الرواية الأكثر مبيعًا في العالم
باكس
سارة بينيباكر
رسوم جون كلاسن
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

الغلاف الأمامي

الرواية الأكثر مبيعًا في العالم
باكس
سارة بينيباكر
رسوم جون كلاسن
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

حقوق الطبع والنشر

سارة بينيباكر

باكس

رسوم
جون كلاسن

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

حقوق النشر

- لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .
- إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاءً شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.
- رجاءً عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

الطبعة الأولى 2025

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.
Copyright © 2025. All rights reserved.

Text copyright © 2016 Sara Pennypacker
Illustrations copyright © 2016 Jon Klassen

للتعرف على فروعنا نرجو زيارة www.jarir.com
إذا كانت لديكم أي ملاحظات حول الترجمة أو الكتاب، أو اقتراحات لترجمة كتب أخرى، فالرجاء مراسلتنا على:
jbpublications@jarirbookstore.com

SARA PENNYPACKER

PAX

ILLUSTRATED BY

JON KLASSEN

JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore

BALZER + BRAY
An Imprint of HarperCollinsPublishers

الأغلفة الداخلية

جمعت علاقة وطيدة بين كل من الصبي بيتر والثعلب باكس، فلم ينفصلا منذ أن أنقذه بيتر عندما كان لا يزال ثعلبًا صغيرًا ضعيفًا، لكن في أحد الأيام حدث ما لا يمكن توقعه؛ حيث التحق والد بيتر بالجيش؛ ما جعله يعيد الثعلب إلى البرية.

عاش بيتر في منزل جده الذي يبعد نحو 500 كيلومتر عن منزله، لكنه يدرك أنه ليس في المكان الذي يجب أن يكون فيه، فلطالما كان يتوق لأن يكون بصحبة صديقه باكس؛ لذا يأخذ زمام المخاطرة منطلقًا بمفرده على الرغم من اقتراب الحرب من منطقتهم، عاقدًا العزم على لم شمله مع ثعلبه العزيز.

ظل باكس وحده منتظرًا طوال هذه المدة عودة صديقه العزيز، وخاض خلال ذلك العديد من المغامرات وحقق مجموعة من الاكتشافات المختلفة...

تقدم الكاتبة الشهيرة سارة بينيباكر ـ مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا التي حصدت عدة جوائز ـ رواية رائعة وجذابة تتناول من خلالها الحقائق الأساسية التي تشكل هوياتنا، بالإضافة إلى الخسائر الهائلة التي تخلفها ويلات الحرب. وتعد هذه الرواية، بما تحويه من تفاصيل، قادرة على الصمود عبر كل العصور المختلفة. ومن المتوقع لها أن تكون في مصاف الروايات الكلاسيكية الرائعة والمحبوبة.

سارة بينيباكر

هي مؤلفة العديد من الروايات الرائعة التي حصدت العديد من الجوائز، والمصنفة ضمن الأكثر مبيعًا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز، ومن بينها سلسلتي *Clementine* و *Waylon* المقتبستين منها. وتمتد مساهماتها الأدبية إلى الروايتين اللتين لقيتا استحسانًا كبيرًا، وهما *Summer of the Gypsy Moths* و *Here in the Real World*. وهي تقضي وقتها ما بين كيب كود وماساتشوستس وفلوريدا.

جون كلاسن

نشأ جون في منطقة شلالات نياجرا، كندا، ويعيش الآن في لوس أنجلوس، كاليفورنيا. وهو المؤلف والرسام صاحب الأعمال الأكثر مبيعًا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز، وصدرت له العديد من الكتب الرائعة من بينها *I Want My Hat Back* و *This Is Not My Hat*، وقد حاز عن الأخير جائزة كالديكوت. كما فاز اثنان من كتبه المصورة *Sam and Dave Dig a Hole* و *Extra Yarn* بوسام كالديكوت الشرفي (وقد فاز عن كتاب *Extra Yarn* بجائزة بوسطن جلوب هورن للكتاب) وكلا الكتابين من تأليف ماك بارنيت.

مؤلفات أخرى بقلم سارة بينيباكر

كتب للناشئين

Summer of the Gypsy Moths

سلسلة ***Clementine***

سلسلة ***The Amazing World of Stuart:***

Stuart's Cape

و ***Stuart Goes to School***

Dumbstruck

كتب مصورة

Meet the Dullards

Sparrow Girl

Pierre in Love

ملاحظة المؤلفة

التواصل بين الثعالب عملية معقدة تنطوي على عدة عناصر مختلفة، مثل الأصوات، والإيماءات، وإفراز الرائحة والتعبيرات. ينقل «الحوار» المكتوب بخط مائل في جميع أجزاء فصول هذا الكتاب لغتها المعبرة بكل وضوح.

إهداء

إلى وكيل أعمالي، ستيفن مالك، الذي اقترح اسم الرواية.

- سارة بينيباكر

مقولة

ليس معنى أنك لم تشهد أحداثًا مثل الواردة في الرواية أنها لم تحدث على أرض الواقع بالفعل!

1

أدرك الثعلب الصغير أن السيارة أبطأت سرعتها قبل أن يشعر الصبي بذلك؛ هذا لأنه معتاد إدراك كل شيء أولًا من خلال حواسه الفائقة، وحساسية عموده الفقري، وتلك الشعيرات الحساسة في أرجله. ونظرًا للاهتزازات التي شعر بها، علم أيضًا أن الطريق أصبح وعرًا، فنهض وترك حضن صديقه، واستنشق بعض النسيم الذي تسرب عبر النافذة، وحينها علم أنهم يسافرون الآن في طريق الغابة. كانت الروائح القوية لأشجار الصنوبر؛ الخشب، واللحاء، والألياف الخشبية، والأوراق الصغيرة، تتطاير في الهواء مثل الريش، تخالطها روائح بسيطة استطاع الثعلب شمها، مثل رائحة البرسيم الناعم، والثوم البري، والسرخس، ومزيج من مائة رائحة أخرى لم يسبق له شمها من قبل، لكنها كانت تدل على نباتات خضراء نضرة.

وفجأة أحس الصبي أيضًا بشيء ما، فجذب حيوانه الأليف إليه، وأحكم قبضته على قفاز البيسبول.

فاجأ قلق الصبي الثعلب، ففي المرات القليلة التي سافرا فيها بالسيارة من قبل، كان الصبي هادئًا، أو ينتابه الحماس، خشي الثعلب على صديقه، فأخفى رأسه في القفاز، على الرغم

من أنه كان يكره رائحة جلده. في العادة عندما يقوم الثعلب بهذا التصرف، يسارع الصبي بربط القفاز حول رأسه، ويبدأ لعب المصارعة معه، وبهذه الطريقة يصرف الثعلب انتباهه عن أي شيء.

لكن اليوم لم ينتبه الصبي لما فعله حيوانه الأليف، بل رفعه لأعلى، وغطى وجهه بفروه الأبيض، ثم ضمه بقوة.

عندئذ أدرك الثعلب أن صديقه يبكي. فمال برأسه، وحدق إلى وجهه ليتأكد؛ نعم، إنه يبكي لكن من دون صوت، وهو أمر لم يعتده الثعلب منه مطلقًا: لم يكن الصبي يذرف الدموع فترة طويلة دون صوت، فالثعلب يذكر جيدًا أنه كان يصرخ دائمًا قبل أن يشرع في البكاء، كما لو كان يطلب الاهتمام بهذا الحدث الجلل المتمثل في انهمار الدموع من عينيه.

لعق الثعلب دموع صديقه، وازدادت حيرته، فهو لا يشم رائحة أي دماء. انتفض من بين ذراعي الصبي ليتفحص جسده بمزيد من الدقة، وانزعج عندما فشل في ملاحظة أي جرح أو إصابة، مع أن حاسة الشم لديه لا تخطئ أبدًا؛ فما من أثر لأي دماء، أو تجمع دموي كذلك تحت الجلد نتيجة كدمة ما، أو تسرب لنخاع ناتج عن كسر في العظام، وهو ما حدث مرة واحدة من قبل.

انحرفت السيارة إلى اليمين، فتحركت الحقيبة الموجودة بجانبهما، ومن خلال رائحتها، عرف الثعلب أنها تحتوي على ملابس الصبي، وبعض الأغراض التي كانت موجودة في غرفته ويحبها كثيرًا: الصورة التي يحتفظ بها فوق مكتبه، والأشياء التي يخفيها في الدرج السفلي. ظل يخدش أحد جوانب الحقيبة بمخالبه، على أمل أن يفتحها بما يكفي ليتمكن أنف الصبي الضعيف من شم رائحة أغراضه المفضلة والشعور بالارتياح. ولكن بعد ذلك تباطأت السيارة مرة أخرى، وصدر عنها صوت متقطع غريب، فانحنى الصبي إلى الأمام، وأخفى رأسه بين يديه.

تسارعت نبضات قلب الثعلب، وانتفش شعر ذيله. كانت رائحة عادم السيارة المنبعثة من ملابس الأب الجديدة تحرق حلقه، فقفز نحو نافذة السيارة وخدشها. في بعض الأحيان أثناء وجودهما في المنزل كان الصبي يسارع بفتح النافذة عندما يخدش الثعلب زجاجها بهذه الطريقة، وقد اعتاد الثعلب الشعور بتحسن عند رفع الحاجز الزجاجي.

أما الآن بدلًا من فتح النافذة، سحبه الصبي إلى حجره مرة أخرى، وتحدث إلى والده بنبرة مليئة بالتوسل. لقد تعلم الثعلب معنى العديد من كلمات البشر، وسمعه يستخدم واحدة منها الآن: "لا". غالبًا ما كانت كلمة «لا» توجَّه له ولصديقه. أنصت بتمعن لحديث الصبي مع والده، وأدرك أن الوالد قال «لا» بمنتهى الحزم، فأخذ الصبي يتوسل إلى الأب مرارًا وتكرارًا.

ظلت السيارة تتأرجح حتى توقفت تمامًا، ومالت إلى اليمين، وتصاعدت سحابة من الغبار خلف النافذة. نظر الأب إلى مقعد الابن مرة أخرى، وبعد أن قال شيئًا لابنه بصوت ناعم لا يتناسب مع رائحة الكذب التي تفوح منه، أمسك الثعلب من رقبته.

لم يعترض الصبي على تصرف والده، لذا لم يقاوم الثعلب بل تعلق بيد الأب وتشبث به، ومع أنه شعر بخوف شديد لم يعض يده، وقرر أنه لن يزعج صديقيه البشريين اليوم. فتح الأب باب السيارة، وترجل منها، وسار في طريقه فوق الحصى والأعشاب غير مكتملة النمو نحو حافة الغابة، فخرج الصبي وتبعه.

وضع الأب الثعلب على الأرض، فقفز بعيدًا عن متناول يده، وأخذ يحدق إلى هذين البشريين، وفوجئ عندما لاحظ أنهما أصبحا في الطول نفسه تقريبًا. لقد نما الصبي مؤخرًا وأصبح طويل القامة.

أشار الأب إلى الغابة، وأمعن الصبي النظر إلى والده لحظة طويلة، وعيناه تتدفق منهما الدموع مرة أخرى. بعدها جفف وجهه بياقة قميصه وأومأ برأسه. مد يده إلى جيب بنطاله الجينز، وأخرج دمية قديمة على شكل جندي؛ إنها لعبة الثعلب المفضلة.

انتبه الثعلب على الفور، واستعد ليلعب معه اللعبة المعتادة، إذ يرمي الصبي الدمية، فيجري الثعلب ليمسك بها - الأمر الذي كثيرًا ما اعتبره الصبي إنجازًا رائعًا - ويبقيها في فمه، وينتظر حتى يجده الصبي، ويأخذها منه ليرميها له مرة أخرى.

وبالطبع رفع الصبي الدمية عاليًا، ثم قذفها بعيدًا نحو الغابة. عندئذ شعر الثعلب بارتياح ظنًا منه أنهم أتوا إلى هنا فقط للعب، وشعوره هذا جعله لا ينتبه جيدًا. وعلى الفور انطلق في طريقه إلى الغابة دون النظر خلفه نحو هذين البشريين. ولو أنه فعل ذلك لرأى الصبي يبتعد عن أبيه ويضع ذراعيه على وجهه، ولعاد مرة أخرى ليقدم لصديقه كل ما يحتاج إليه؛ الحماية، التسلية، الحب.

لكن بدلًا من ذلك، انطلق الثعلب خلف الدمية. كان العثور عليها هذه المرة أصعب قليلًا من المعتاد، حيث كان هناك الكثير من الروائح الأخرى المنعشة في الغابة. ولكنها لم تشتت انتباهه كثيرًا، ففي النهاية رائحة الصبي موجودة أيضًا على الدمية. تلك الرائحة التي لا يمكن أن يجدها في أي مكان.

وأخيرًا وجد الدمية؛ رأى الجندي مستلقيًا ووجهه مدفون في جذر شجرة الجوز، كما لو أنه سقط هناك في حالة من اليأس. أما بندقيته، التي كان الجزء الخلفي منها يضغط بشدة على وجهه، فقد دُفنت هي الأخرى بين أوراق الشجر. التقط الثعلب الدمية، وأطبق عليها أسنانه، ثم وقف على قائمتيه الخلفيتين ليسهل على صديقه العثور عليه.

خيم الهدوء على الغابة، ولم تُسمع بها أي حركة سوى أشعة الشمس التي تتلألأ بشكل جميل على أوراق الشجر. حاول أن يرفع جسده أكثر ليتمكن من النظر إلى مسافة أبعد، لكنه لم يلمح أي أثر للصبي، فشعر بالقلق، ومرت رعشة خفيفة عبر عموده الفقري، وعلى الفور أسقط اللعبة وعوى، لكنه لم يتلقَّ أي رد. عوى مرة أخرى، لكن بلا فائدة أيضًا. أخذ يفكر، واعتقد أن هذه لعبة جديدة، ولو أنها كذلك بالفعل، فإنها لا تعجبه على الإطلاق.

التقط الدمية، وشق طريق العودة من حيث أتى متتبعًا أثره. وبينما كان يخرج من الغابة، ظهر غراب فوق رأسه، وأخذ ينعق، فتجمد الثعلب في مكانه، وشعر بالفزع.

لا بد أن الصبي ينتظره ليلعب معه، تبًّا لهذه الطيور. فدائمًا ما أمضى ساعات وساعات في مراقبتها من قفصه الذي أعده له صديقه، وكان يرتجف عند رؤيتها وهي تقطع السماء بسرعة مثل البرق الذي شاهده كثيرًا في أمسيات الصيف. لكنه في الوقت ذاته كان معجبًا جدًّا بقدرتها على التحليق في السماء بحرية.

نعق الغراب مرة أخرى، من أعماق الغابة، وتلقى ردًّا من مجموعة من الطيور. للحظة تردد الثعلب، وأخذ يحدق إلى الأشجار في محاولة لرؤية هذا الغراب مرة ثانية.

وفجأة، سمع خلفه صوت غلق باب سيارة، ثم باب آخر، فأخذ يجري بأقصى سرعة، غير مبالٍ بالأشواك التي جرحت وجهه. عاد محرك السيارة للعمل، وانزلق الثعلب حتى وقف على حافة الطريق.

فتح صديقه النافذة، ومد ذراعيه للخارج. وبينما كانت السيارة تنطلق مسرعة وسط مجموعة من الحصى، صاح الأب باسم الصبي: «بيتر»، فيما صرخ الصبي مناديًا بالاسم الوحيد الآخر الذي يعرفه الثعلب.

«باكس».

2

«**ثمة** الكثير من الثعالب هنا».

بدت هذه الكلمات غبية من وجهة نظر بيتر، لكنه لم يستطع منع نفسه من تكرارها، حيث تساءل متعجبًا: «الكثير؟». مرر أصابعه بين مجموعة من الدمى البلاستيكية التي كانت على شكل جنود وتوجود في علبة البسكويت البالية - إنها متطابقة في كل شيء باستثناء وضعياتها: بعضها واقف، والآخر راكع، والبعض منبطح، وجميعها تحمل بنادق تضغط بشدة على خدها ذي اللون الأخضر الزيتوني. فجأة قال بيتر: «لقد ظننت دائمًا أن والدي لا يملك سوى هذه الدمية فقط».

رد جده: «يا إلهي، كنت دائمًا أخطو عليها برجلي، لا بد أن لديه المئات منها؛ جيشًا كاملًا من هذه الدمى». ضحك الجد على مزحته العارضة، لكن بيتر لم يضحك، بل أشاح بوجهه، ونظر باهتمام عبر النافذة، كما لو أنه رأى من فوره شيئًا ما في الفناء الخلفي المظلم. رفع يده وثنى أصابعه وقربها من خده، تمامًا كما كان يفعل والده عندما يحك لحيته، ومسح خلسة الدموع التي غمرت وجهه. أي نوع من الأطفال هو ليبكي بسبب شيء كهذا؟

ولماذا كان يبكي من الأساس، على أية حال؟ إنه صبي في الثانية عشرة من عمره، ولم يبكِ منذ سنوات، حتى عندما كُسرت إبهامه عند محاولته التقاط الكرة عقب الرمية العالية التي

سددها جوش هوريهان. كان ذلك مؤلمًا للغاية، لكنه لم يبكِ، وتحمل الألم أثناء انتظاره مع المدرب لإجراء الأشعة السينية. تصرف حينها كالرجال الأقوياء، أما اليوم فها هو يبكي للمرة الثانية.

رفع بيتر جنديًّا من علبة الدمى وعاد بالذاكرة إلى اليوم الذي وجد فيه جنديًّا مثله تمامًا على مكتب والده، فسأله وهو يرفعه عاليًا بيده: «ما هذا؟»

مد والده يده، وأمسك بالدمية، وارتسم على وجهه تعبير ينم عن اللين والرقة، وهو يقول: «أوه، لقد مر وقت طويل. كانت هذه لعبتي المفضلة وأنا طفل».

«أيمكنني أخذها؟»

أعاد له والده الدمية مرة أخرى، وقال: «بالتأكيد».

أخذ بيتر الدمية، ووضعها على حافة النافذة بجوار سريره، موجهًا البندقية البلاستيكية الصغيرة نحو الخارج كأنه يستعرض قوته الدفاعية. ولكن في غضون ساعة أسرع باكس نحو الدمية وأمسك بها، فضحك بيتر على فعلته؛ لقد أراد الثعلب الحصول على الدمية مثله تمامًا.

وضع بيتر الدمية في العلبة مرة ثانية، وكان على وشك إغلاق الغطاء عندما لمح طرف صورة صفراء بارز من بين مجموعة الدمى.

سحب الصورة ونظر إليها، إنها صورة والده، ربما في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، يحمل كلبًا ويطوِّقه بذراعيه. يبدو أنه كلب من سلالة كولي، وربما من سلالة أخرى، وهو يبدو لطيفًا للغاية من نوعية الكلاب التي ستخبر ابنك بقصص عنها. قال بيتر وهو يمرر الصورة إلى جده: «لم أعلم من قبل أن أبي كان لديه كلب».

«هذا دوك، أغبى المخلوقات على الإطلاق، دائمًا ما تجده تحت رجليك». أمعن الجد العجوز النظر في الصورة، ثم نظر إلى بيتر كما لو كان يرى شيئًا للمرة الأولى، وأضاف: «لديك شعر والدك الأسود نفسه». بعدها مرر يده بين الشعر رمادي اللون الذي يغطي رأسه، وأردف قائلًا: «لقد كان لديَّ شعر أسود مثله تمامًا، في الماضي. انظر، كان والدك هزيلًا في ذلك الوقت مثلك تمامًا، ومثلي تمامًا، بأذنيه البارزتين. أعتقد أن جميع رجال العائلة يحملون الصفات الوراثية نفسها، أليس كذلك؟».

«لا أظن ذلك يا جدي». أجبر بيتر نفسه على رسم ابتسامة خفيفة على وجهه، لكنها لم تدم طويلًا. بعدها استغرق في التفكير: «تحت رجليك» إنها العبارة التي استخدمها والده عندما حدثه قائلًا: «لا يمكنه أن يتحمل فكرة وجود هذا الثعلب تحت رجليه، فهو لا يتحرك بالسرعة التي اعتادها. أنت أيضًا عليك عدم إزعاجه. إنه ليس معتادًا وجود أطفال من حوله».

استطرد الجد: «أتعرف فيما مضى عندما بدأت الحرب ذهبت وخدمت مثل والدي. ومثلما يفعل والدك الآن، إنه نداء الوطن، ورجال هذه العائلة معتادون تلبية النداء. أؤكد لك يا بُني أن جميع رجال هذه العائلة متشابهون، ويحملون الصفات الوراثية نفسها». أعاد له الصورة قائلًا: «كان والدك يقضي مع هذا الكلب الكثير من الوقت، كانا لا يفترقان قط. أظنني نسيت هذا الأمر».

أعاد بيتر الصورة إلى العلبة، وأغلق الغطاء بإحكام، ثم وضعها تحت السرير، حيث وجدها. نظر من النافذة مرة أخرى، واستغرق في التفكير، بالطبع لا يمكنه المخاطرة بالحديث عن الحيوانات الأليفة في الوقت الحالي، فهو لا يريد أن يسمع محاضرات عن الواجب وندائه. ومن المؤكد أنه لا يريد أن يسمع المزيد عن مدى تشابه رجال هذه العائلة. وسأل دون أن يلتفت: «في أي وقت تبدأ الدراسة هنا؟».

«في الساعة الثامنة. قالوا إن عليك الذهاب مبكرًا، لتقدم نفسك لمعلمة الصف، السيدة ميريز أو راميريز ... شيء من هذا القبيل. لقد أحضرت لك بعض الأدوات». أشار الرجل العجوز إلى دفتر ملاحظات حلزوني، وزجاجة حرارية متهالكة، ومجموعة من الأقلام الرصاص القصيرة المجمعة معًا برباط مطاطي سميك.

اتجه بيتر نحو المكتب ووضع كل الأدوات في حقيبته، وقال: «شكرًا. هل سأذهب بالحافلة أم سيرًا على رجليَّ؟».

«سيرًا على رجليك. كان والدك يذهب إلى تلك المدرسة على رجليه. وعليك أن تسلك شارع آش حتى النهاية، بعدها انعطف يمينًا نحو شارع اسمه شارع المدرسة، وسوف تراها؛ مبنى ضخمًا من الطوب. شارع المدرسة - فهمت؟ إذا غادرت في السابعة والنصف، فسيكون لديك متسع من الوقت».

أومأ بيتر برأسه، وشعر بأنه يريد الجلوس بمفرده، فأجاب قائلًا: «حسنًا، فهمت. أعتقد أنني سأخلد للنوم».

رد الجد: «حسنًا». ولم يكلف نفسه عناء إخفاء نبرة الارتياح في صوته. ومن ثم غادر وأغلق الباب خلفه بقوة كأنه يقول: يمكنك الحصول على هذه الغرفة، لكن بقية المنزل ملكي.

وقف بيتر عند الباب، وسمع وقع خطواته وهو يغادر. وبعد دقيقة سمع صوت أطباق ترتطم بالحوض. تخيل جده وهو يقف في المطبخ الضيق حيث تناولا عشاءهما المكون من الحساء في صمت؛ ذلك المطبخ الذي تفوح منه رائحة البصل المقلي بقوة لدرجة أن بيتر ظن أن هذه الرائحة ستبقى فيه حتى بعد وفاة جده، وحتى بعد مرور مائة عام من التنظيف على يد عائلة تلو أخرى، ستظل رائحة القلي تفوح في المكان.

سمع بيتر جده يعود عبر الردهة متجهًا إلى غرفة نومه، ثم سمع الطقطقة المنخفضة لصوت تشغيل التليفزيون، بعدها انخفض مستوى الصوت، وبصعوبة استطاع سماع معلق الأخبار الغاضب. عندئذ خلع حذاءه الرياضي، واستلقى في فراشه الصغير.

سيمضي بيتر ستة أشهر، وربما أكثر، هنا في هذا المنزل مع جده، الذي يبدو دائمًا كأنه يستشيط غضبًا. سأل الصبي والده ذات مرة منذ سنوات: «ما الذي يجعل جدي غاضبًا دائمًا إلى هذا الحد؟»

أجاب والده: «كل شيء؛ الحياة بشكل عام. لكن غضبه زاد كثيرًا بعد وفاة جدتك».

بيتر أيضًا فقد والدته، وبعد وفاتها ظل يراقب والده في قلق. ففي البداية، ظل الوالد صامتًا بشكل مخيف، لكن ملامح وجهه قست تدريجيًا حتى أصبح عابس الوجه تمامًا، كما اعتاد الجلوس قابضًا يديه في تحفز كأنه ينتظر شيئًا يثير غضبه.

مع الوقت تعلم بيتر ألا يكون ذلك الشيء الذي يثير غضبه؛ تعلم أن يبقى بعيدًا عن طريقه.

كانت رائحة الدهن والبصل تحاصره من كل اتجاه، تتسرب عبر الجدران، ومن الفراش نفسه؛ لذا نهض وفتح النافذة التي كانت بجانبه.

هب نسيم أبريل البارد عبر النافذة. واستغرق بيتر في التفكير في باكس، فهو لم يتركه وحده في الخارج من قبل، إلا في القفص الصغير الذي أعده له في الحديقة. حاول أن يمحو من ذاكرته تفاصيل آخر نظرة ألقاها على ثعلبه الذي لم يتبع السيارة فترة طويلة على الأرجح، لكن صورته وهو يتعثر على الحصى، مرتبكًا متحيرًا، كانت أسوأ كثيرًا.

بدأ الشعور بالقلق يتسلل إلى نفس بيتر. فعلى مدار اليوم، وطوال رحلته إلى هنا، شعر بهذا القلق يحاصره ويطارده كأنه ثعبان يكمن بعيدًا عن الأنظار، مستعدًا للتسلل خلسة، والالتفاف حول عموده الفقري، والهسهسة في سخرية: ليس من المفترض أن تكون موجودًا في هذا المكان، ستحدث مشكلة ما لأنك لا لست يجب أن تكون.

تدحرج في الفراش، ومال لينظر أسفله، وسحب علبة البسكويت من تحته، وأخرج منها الصورة التي يظهر فيها والده وهو يلف ذراعه حول الكلب المرقط بالأبيض والأسود. بدا كأنه لم يشعر قط بالقلق من أن يفقده في يوم من الأيام.

تذكر كلمات جده: كانا لا يفترقان. لقد لاحظ نبرة الفخر في صوته عندما قال ذلك. وبالطبع كان فخورًا لأنه ربى ابنًا يعرف الولاء والمسئولية، ويعلم أن الطفل وحيوانه الأليف يجب ألا يفترقا أبدًا. ولكن فجأة بدت العبارة نفسها - لا يفترقان - بمنزلة اتهام. فماذا عنه هو وباكس؟ لماذا حدث معهما ذلك... هل كان من العادي أن يفترقا؟

بالطبع لا، وفراقهما لم يكن سهلًا، ففي بعض الأحيان كان يشعر بأنه وحيوانه الأليف اندمجا، وصارا جسدًا واحدًا. المرة الأولى التي حدث فيها ذلك كانت أول مرة اصطحب فيها باكس إلى الخارج. حينها رأى الثعلب الصغير طائرًا، فضغط على السلسلة الملفوفة حول رقبته، وارتجف كأنه أصيب بصدمة كهربائية. ونظر بيتر إلى الطائر وحاول رؤيته من خلال عيني باكس؛ حيث الطيران بسرعة البرق، الحرية، والسرعة المستحيلة. شعر بأن جسده كله يرتجف، وبأن كتفيه تحترقان كما لو كانتا تتوقان إلى جناحين.

حدث ذلك مرة أخرى بعد ظهر اليوم، حيث شعر بأن السيارة تمضي في طريقها بعيدًا كأنه هو من تُرك خلفها وحيدًا، وتسارعت دقات قلبه وشعر بالذعر.

انهمرت الدموع من عينيه مرة ثانية، فمد يده ومسحها في إحباط. لقد أخبره والده بأن ما فعلاه هو الصواب، حيث قال: «الحرب على الأبواب، وهذا يعني أننا جميعًا علينا أن نضحي. يجب أن أشارك في هذه الحرب، فهذا واجبي. وعليك أن ترحل من هنا».

لقد توقع بيتر نصف الأحداث؛ فكرة مغادرته، ذلك لأن اثنتين من عائلات أصدقائه قد حزمتا أمتعتهما بالفعل، وغادرتا عندما انتشرت أخبار الإخلاء، لكن ما لم يتوقعه هو النصف الباقي، الجزء الأسوأ، حينما قال والده: «وبالنسبة لهذا الثعلب ... حسنًا، لقد حان الوقت لإعادته إلى الغابة على أية حال».

فجأة عوى أحد ذئاب البراري، وكان صوته قريبًا جدًّا ما جعل بيتر ينتفض من مكانه، بعدها عوى ذئب ثانٍ، ثم ثالث. نهض بيتر وأغلق النافذة، لكن بعد فوات الأوان، فأصوات الصراخ والعواء وما تعنيه صارت تتردد الآن في ذهنه.

لقد جمعت بيتر ووالدته العديد من الذكريات الجميلة، التي كان يستعيدها دائمًا لتهدئة نفسه، ويخشى كثيرًا تلاشيها في ظل ما يواجهه في هذه الحياة. كما كانت هناك ذكريات أليمة أيضًا، في الواقع كانت هناك اثنتان، وقد دفنهما في أعماق نفسه، وبذل كل ما في

وسعه لإبقائهما مدفونتين. والآن كانت ذئاب البراري تعوي في رأسه، وتستخرج واحدة منهما لتؤرقه.

ذات يوم، عندما كان في الخامسة من عمره تقريبًا، وجد والدته تقف مستاءة بجوار مجموعة من زهور التوليب الحمراء، كان نصفها منسقًا ومنظمًا، والنصف الآخر كان مبعثرًا على الأرض وأزهاره عبارة عن فتات.

قالت الأم: «لقد تسبب الأرنب في هذه الفوضى، إذ على ما يبدو ظن أن السيقان طعمها لذيذ، يا له من شرير».

تذكر بيتر أنه ساعد والده على نصب فخ تلك الليلة، فسألها: «نحن لن نؤذيه، أليس كذلك؟».

«مؤكد، سنمسك به فقط، ثم نذهب به إلى المدينة المجاورة ليأكل زهور شخص آخر».

كان بيتر قد طعَّم المصيدة بنفسه بجزرة، ثم توسل إلى والده ليسمح له بالنوم في الحديقة ليراقب ما سيحدث، فرفض الوالد، لكنه ساعده على ضبط المنبه حتى يكون أول من يستيقظ في الصباح ويرى ما جرى. وما إن دق المنبه، حتى ركض بيتر إلى غرفة والدته ليصطحبها إلى الخارج لرؤية المفاجأة.

على الفور خرج للحديقة ليفاجأ برؤية المصيدة مائلة على جانبها في قاع حفرة حديثة الحفر يبلغ عرضها نحو متر ونصف المتر، وفي داخلها أرنب صغير ميت. لم تكن هناك علامة واحدة على جسده الصغير، لكن القفص كان مخدوشًا ومنبعجًا، والأرض من حوله عبارة عن ركام.

قال والده وهو ينضم إليهما: «ذئاب البراري، لا بد أنها أخافته حتى الموت أثناء محاولة الإمساك به وهو في المصيدة، وللأسف لم يستيقظ أحد منا على صوتها».

فتحت والدة بيتر المصيدة، وأخرجت الجسد الهامد. حملته بين يديها وقربته من خدها قائلة: «واسفاه، لقد مات بسبب زهور التوليب، مجرد مجموعة قليلة من الأزهار».

وجد بيتر الجزرة، وقد قضم الأرنب أحد طرفيها، وبسرعة ألقاها بعيدًا قدر استطاعته. بعد ذلك وضعت والدته جسد الأرنب في راحتي يديه، وذهبت لإحضار جاروف. وبإصبع واحدة، أخذ بيتر يتحسس أذنيه البارزتين، وأظافره الصغيرة، والفرو الناعم المحيط برقبته، المبلل بدموع والدته.

وعندما عادت والدته، وضعت كفها على وجهه الذي يشع خجلًا، وقالت: «لا بأس. لم تكن تعرف ما سيحدث».

لكن هذا الحدث لم يمر مرور الكرام، حيث مضى فترة طويلة بعد ذلك، كلما أغمض عينيه، كان يرى ذئاب البراري وهي تنبش بمخالبها التراب، وتحاول كسر المصيدة بأنيابها. كما رأى نفسه حيث كان ينبغي أن يكون تلك الليلة: في الحديقة يراقب الأحداث. مرارًا وتكرارًا، تخيل نفسه وهو يقوم بما يتحتم عليه القيام به من النهوض من كيس نومه، والعثور على صخرة، وإلقائها كي تفر الذئاب بعيدًا عائدة إلى الظلام، ثم فتح المصيدة ليطلق سراح الأرنب.

ومع استرجاعه لهذه الذكرى، التف ثعبان القلق حول جسده بقوة، لدرجة أنه أفقده القدرة على التنفس. لم يكن موجودًا في المكان المناسب في الليلة التي قتلت فيها الذئاب الأرنب، وها هو الآن لم يكن موجودًا في المكان المناسب مرة ثانية.

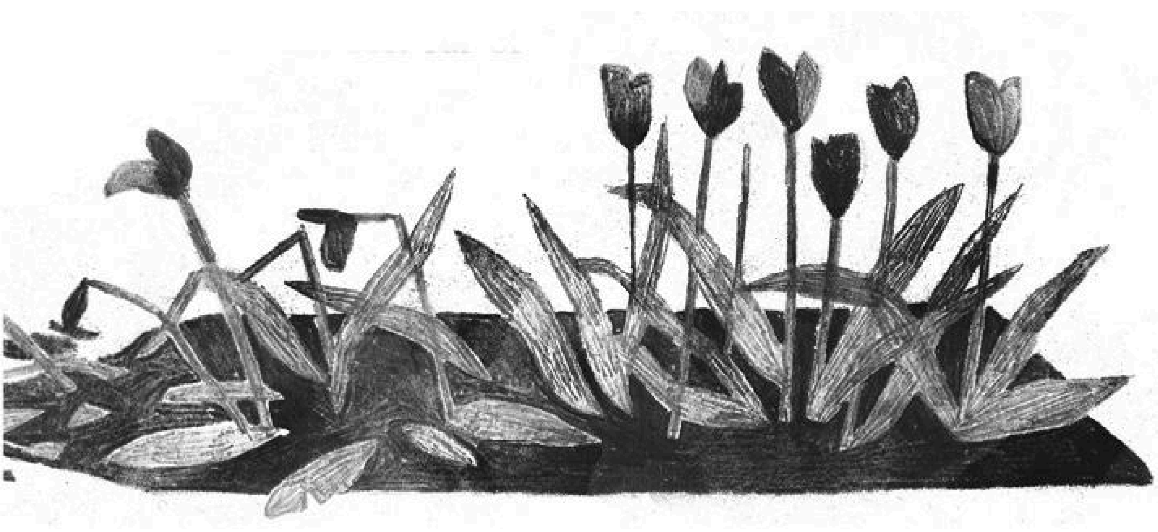

ظل يلهث، وتنفس بصعوبة شديدة، بعدها جلس في وضع مستقيم، ومزق الصورة إلى نصفين، وكل نصف إلى نصفين آخرين، ووضع أجزاءها تحت السرير.

لم يكن ترك باكس وحيدًا في الغابة هو التصرف الصائب على الإطلاق.

قفز ووقف على رجليه، شعر بأنه أضاع الكثير من الوقت بالفعل؛ لذا على الفور أخرج من حقيبة سفره بعض الأغراض؛ قميصًا مموهًا بكمين طويلين، وسترة صوفية، ثم مجموعة إضافية من الملابس الداخلية والجوارب. قام بوضع كل شيء في حقيبة الظهر باستثناء السترة التي ربطها حول خصره. وفي جيب بنطاله الجينز وضع أيضًا سكينًا صغيرة

ومحفظة. وتحير دقيقة هل يختار حذاء المشي مسافات طويلة أم الحذاء الرياضي؟ وفي النهاية قرر اختيار حذاء المشي لكنه لم يرتدِه.

نظر حوله في الغرفة، على أمل العثور على مصباح يدوي، أو أي شيء يشبه معدات التخييم. إن هذه الغرفة كانت غرفة والده في صغره، لكن من الواضح أن جده قام بتنظيفها وتخلص من كل أغراضه، باستثناء بعض الكتب الموجودة على الرف. وهذا يفسر اندهاش الجد عندما رأى علبة البسكويت - يبدو أنه تركها سهوًا. وأخذ بيتر يتحسس حافة الكتب بأصابعه.

لقد وجد بينها أطلس الخرائط، فسحبه مندهشًا لحسن حظه، وظل يقلب صفحاته حتى وصل إلى الخريطة التي توضح الطريق الذي سلكه هو ووالده. وتذكر والده وهو يحدثه في محاولة منه لكسر حاجز الصمت أثناء قيادة السيارة: «سوف تكون على بعد 400 كيلومتر فقط. سآخذ يوم عطلة وآتي لزيارتك». لكن بيتر لم يصدقه، فهو يعرف أن ذلك لن يحدث أبدًا؛ إذ إنه أثناء الحروب، لا تكون هناك إجازات.

فضلًا عن أنه لم يكن يشتاق إلى والده من الأساس.

ثم رأى شيئًا لم يكن يعلمه: الطريق السريع يلتف حول سلسلة طويلة من التلال. وإذا ما سلك مسار التلال هذا بدلًا من اتباع الطريق السريع، يمكنه توفير الكثير من الوقت، بالإضافة إلى تقليل خطر الإمساك به أو العثور عليه. لقد شرع في قطع الصفحة من الكتاب، ثم أدرك أنه لا يستطيع أن يترك لجده مثل هذا الدليل الواضح؛ لذا بدلًا من ذلك، استغرق دقيقة في حفظ الخريطة عن ظهر قلب، بعدها أعاد وضع الأطلس على الرف.

تبلغ المسافة نحو 400 كيلومتر، وبدا كأنه يستطيع اختصار 150 منها عن طريق اتباع الطريق المختصر، ما يعني أنه سيتبقى أمامه نحو 250 كيلومترًا. وإذا استطاع المشي مسافة 37 كيلومترًا في اليوم، يمكنه قطع الطريق كله في أسبوع أو أقل.

لقد تركا باكس على رأس الطريق المؤدي إلى أطلال مصنع قديم لصنع الحبال. أصر بيتر على السير في هذا الطريق، لأنه نادرًا ما يسلكه أحد - لم يكن باكس على علم بحركة المرور - ولأن هناك أشجارًا وحقولًا في كل مكان من حوله. سيعود وسيجد باكس هناك، منتظرًا إياه، بعد مرور سبعة أيام! لم يتمهل بيتر ليفكر فيما قد يحدث للثعلب المروَّض خلال تلك الأيام السبعة. ظن أنه سيكون بأمان، ينتظره على جانب الطريق، حيث تركاه. سيكون جائعًا بالتأكيد، وربما خائفًا، لكنه سيكون بخير. وسيذهب إليه ويصطحبه معه إلى المنزل، ويمكثان به معًا، ولن يجرؤ أحد على جعله يغادر هذه المرة. كان هذا هو التصرف الصحيح الذي ينبغي القيام به.

لم يكن من المفترض أن يفترقا من الأساس.

نظر حوله في الغرفة مرة أخرى، وقاوم رغبته العارمة في الركض. ليس هناك مجال للخطأ، أو ترك أي أثر وراءه: نظر للسرير وسحب البطانية، وجعد فراش السرير، ولكم الوسادة لتبدو كأنه نام عليها طوال الليل. ثم أخرج من حقيبة السفر صورة والدته التي اعتاد الاحتفاظ بها على مكتبه؛ تلك الصورة التي التُقطت لها في ذكرى ميلادها الأخيرة، حيث تقف ممسكة بالطائرة الورقية التي صنعها لها بيتر، مبتسمة كما لو أنها لم تحصل طيلة حياتها على هدية أفضل منها - ووضعها في حقيبة ظهره.

بعد ذلك، أخرج جميع الأغراض التي اعتاد أن يخفيها في الدرج السفلي في مكتبه في المنزل: قفازات البستنة الخاصة بها، التي لا تزال محملة بآخر حبات تراب رفعتها بيديها؛ علبة الشاي المفضل لديها، الذي فقد رائحة النعناع الخاصة به منذ فترة طويلة؛ جوارب الركبة السميكة المخططة بألوان الحلوى التي كانت ترتديها في الشتاء، وغيرها من أشياء. أخذ يتحسس جميع هذه الأغراض، متمنيًا إعادتها إلى المنزل مرة أخرى حيث تنتمي، ثم اختار أصغر هذه الأغراض؛ سوارًا ذهبيًا مزينًا بصورة طائر العنقاء المطلية بالمينا، ذلك السوار الذي كانت أمه ترتديه كل يوم، ووضعه في منتصف حقيبة ظهره مع الصورة.

ظل يتفقد الغرفة من حوله للمرة الأخيرة. لمح كرة البيسبول والقفاز على المكتب فأخذهما ووضعهما في حقيبة الظهر. فلم يكن وزنهما ثقيلًا، كما أنه قد يحتاج إليه عندما يعود إلى المنزل فضلًا عن أنه شعر بتحسن عندما أخذهما معه، بعد ذلك فتح الباب بهدوء وتسلل إلى المطبخ.

وضع حقيبة الظهر على الطاولة المصنوعة من خشب البلوط، ومعتمدًا على الضوء الخافت المنبعث من فوق الموقد، بدأ جمع بعض المؤن: علبة من الزبيب، وكمية من البسكويت، وبرطمان مملوء حتى نصفه بزبد الفول السوداني - سيُخرج باكس من أي مكان يختبئ فيه فقط للحصول على زبد الفول السوداني. ثم أخرج من الثلاجة بعض أصابع الجبن وبرتقالتين. وملأ زجاجته بالماء، ثم بحث في الأدراج حتى وجد عدة أعواد ثقاب فلفها بورق الفويل. وأسفل الحوض عثر على شيء مهم: لفافة من الشريط اللاصق القوي، وعلبة من أكياس القمامة الثقيلة. بالطبع كان يفضل العثور على مفرش كبير من القماش بدلًا من هذه الأكياس، لكنه امتن لوجودها، وأخذ اثنين منها، ووضعهما حقيبته ثم أغلقها.

وفي النهاية أخذ ورقة من الدفتر الموجود بجانب الهاتف، وبدأ كتابة ملاحظة: **جدي العزيز**... أخذ يحدق إلى الكلمات مدة دقيقة، كما لو كانت لغة أجنبية غير مفهومة، بعدها مزق الورقة وبدأ كتابة ملاحظة جديدة: **غادرت مبكرًا، لأحظى ببداية مليئة بالنشاط والحيوية في المدرسة، أراك الليلة.** ومرة ثانية حدق فيها إلى هذه الكلمات مليًا، وتساءل عما إذا كانت تفضح شعوره بالذنب. وأضاف أخيرًا: شكرًا على كل شيء - بيتر، ثم وضع الرسالة تحت الملاحة، وانسل خارجًا.

وبمجرد أن وطئت رجلاه فناء المنزل، ارتدى سترته، وانحنى لربط حذائه، ثم استقام وحمل حقيبة ظهره. بعدها استغرق دقيقة في النظر حوله. وقد بدا المنزل خلفه أصغر مما كان عليه عندما وصل، وكأنه مع كل خطوة يخطوها بعيدًا عنه يتلاشى ليصبح ظلال ذكرى من الماضي. وعلى الجانب الآخر من الشارع، تناثرت الغيوم على طول الأفق، وفجأة ظهر نصف القمر، لينير الطريق أمامه.

3

شعر باكس بالجوع والبرد، لكن ما أيقظه هو الشعور بالحاجة إلى غطاء يحتمي تحته. طرف بعينيه، وتحرك للخلف، فتحطم فجأة الملجأ الذي كان يحتمي به ويشعره بالراحة كأنه منزله، التفت ليجد مجموعة من سيقان النباتات الجافة التي كان يختبئ خلفها قبل ساعات قليلة.

صاح مناديًا بيتر، فتذكر فجأة أن صديقه قد رحل. لم يكن باكس معتادًا الوحدة، فقد أتى لهذه الدنيا ومعه ثلاثة أشقاء توائم، لكن والده اختفى قبل أن يتعرف الصغار على رائحته، وبعد وقت قصير من ذلك، ضلت الأم طريقها في صباح أحد الأيام، ولم تتمكن من العودة إلى حجرهم. وبمرور الوقت مات إخوته واحدًا تلو آخر، وتركوه وحيدًا في الجحر البارد. حتى أتي بيتر وأخذه.

ومنذ ذلك الوقت، كلما رحل بيتر، كان باكس يمضي الوقت في قفصه حتى عودته. وفي الليل كان يئن كثيرًا حتى يُسمح له بدخول المنزل، حتى يتمكن من سماع أنفاس صديقه.

أحب باكس صديقه جدًّا، ولكن الأهم من ذلك أنه شعر بالمسئولية تجاهه؛ مسئولية حمايته. وإذا عجز عن أداء هذا الدور، كان يصاب بالإحباط.

نفض باكس ما علق بظهره من مطر الليل، ومضى في طريقه، دون أن يشغل باله بتحريك عضلاته المتيبسة لتمديدها، في محاولة منه لتقفي أثر رائحة بيتر.

لم يتمكن من العثور عليه، فقد عصفت رياح الليل بأثره تمامًا. ولكن من بين مئات الروائح التي تتصاعد مع نسيم الصباح الباكر، شم باكس رائحة معينة ذكرته بصديقه: الجوز. كثيرًا ما كان بيتر يلتقط حفنة منه وينثرها على ظهر باكس، ويضحك عندما يراه وهو ينفضها ثم يكسرها للحصول على النواة. بدت الرائحة المألوفة أشبه ببصيص من الأمل بالنسبة له، فسار نحوها.

وجد ثمار الجوز متناثرة حول قاعدة شجرة بلوط ضربها البرق، على بعد خطوات قليلة شمال المكان الذي رأى فيه صديقه آخر مرة. كسر القليل منها، لكن للأسف وجدها متعفنة من الداخل. بعدها جلس على الجذع المائل على الأرض، وانتبه جيدًا حتى يسمع أي صوت على الطريق.

وبينما كان ينتظر، لعق باكس فروه لتنظيفه وتجفيفه، مستمدًّا القليل من الشعور بالراحة من خلال شمه رائحة بيتر العالقة بالمكان، ثم حول انتباهه إلى كفيه الأماميتين، وقام بتنظيف الجروح العديدة الموجودة حول مخالبه.

اعتاد باكس الحفر في أرضية قفصه متى شعر بالقلق. ودائمًا ما كان يجرح كفيه الأماميتين عند احتكاكهما بالخرسانة الخشنة المدفونة في الأسفل، لكنه لم يستطع منع نفسه أو السيطرة على رغبته في القيام بذلك. وفي الأسبوع الماضي، كان يحفر كل يوم تقريبًا.

عندما انتهى من تنظيف كفيه الأماميتين، جلس ووضعهما تحت صدره منتظرًا. هب نسيم الصباح نابضًا بأصوات الربيع. ففي الليلة الطويلة السابقة، أثارت هذه الأصوات قلق باكس، حيث امتزج الظلام بحفيف المتطفلين الليليين، وحتى أصوات الأشجار نفسها - الأوراق التي تتطاير، والعصارة التي تسيل على الجذوع، والطقطقة الناجمة عن تمدد قشرة اللحاء

- كل هذا أثار رعبه مرارًا وتكرارًا بينما كان ينتظر عودة بيتر. وفي النهاية عندما بزغ ضوء الفجر وكسا السماء باللون الفضي، خارت قواه، ونام وهو يرتجف.

والآن ها هي الأصوات نفسها تثير إعجابه. لقد سمع الكثير من الأصوات التي لفتت انتباهه، وكاد ينهض ليتحقق من الأمر، لكن في كل مرة كان يتذكر صديقه، ويعود ليجلس ساكنًا في مكانه. إنه يعلم أن البشر يتمتعون بذاكرة قوية ستمكِّنه من العودة إلى هذا المكان. لكنهم يعتمدون على حاسة البصر فقط - حيث إن جميع حواسهم الأخرى ضعيفة للغاية - لذا إذا لم يره بيتر عند عودته، فقد يغادر مرة أخرى. ومن ثم سيبقى باكس بجانب الطريق، ويتجاهل كل الإغراءات من حوله، بما في ذلك رغبته القوية في التوجه جنوبًا، الاتجاه الذي تخبره غريزته بأنه سيقوده إلى منزل بيتر. سيبقى في هذا المكان تحديدًا حتى يأتي صديقه من أجله.

رفع بصره، فلمح نسرًا يحلق عاليًا في السماء فوق رأسه، إنه صياد كسول، يبحث عن الجيف والحيوانات الميتة. لكن هذا النسر عندما رأى الثعلب ذا الفرو البني المائل للحمرة جالسًا بلا حراك غير أنه لا تنبعث منه رائحة العفن، حاول الطيران على مقربة منه ليتحقق من الأمر.

انتاب باكس قلق وخوف شديد عندما رأى الحركة السريعة والمفاجئة للنسر، وظله الذي امتد فوق رأسه. وبسرعة قفز من فوق جذع الشجرة، وأخذ يحفر في التراب.

شعر بأن الأرض تستجيب لصوت قعقعة آتٍ من بعيد، فاهتزت كأنها قلب ينبض بالحياة. مد باكس جسده ليتمكن من رؤية مصدر الصوت، ونسي تمامًا الخطر الذي يحلق فوق رأسه. ففي المرة الأخيرة التي رأى فيها صديقه، كانت هناك اهتزازات كهذه على طول هذا الطريق تحديدًا. قفز بسرعة على الحصى، واتجه نحو المكان الذي تركه فيه صديقه.

زادت قوة الاهتزازات، وسمع صخبًا عاليًا. وقف باكس على رجليه الخلفيتين، ومد جسده ليُرى بسهولة. لكن مصدر الصوت لم يكن سيارة صديقه. بل لم يكن سيارة من الأساس. إذ

عندما ظهر مصدر هذا الصوت في الأفق، بدا كبيرًا جدًّا في الحجم، وأشبه بالمنزل الذي يعيش فيه صديقه بيتر.

إنها شاحنة خضراء اللون، وإن لم يكن نضرًا كلون الأشجار النامية في كل مكان من حوله، بل كان لونًا أخضر باهتًا، أشبه بلون أوراق الشجر عندما تذبل وتموت. وأقرب إلى اللون الزيتوني الباهت؛ لون الدمية التي خبأها الثعلب تحت أغصان الشجر. وكانت تفوح من هذه الشاحنة رائحة الوقود والمعدن المحترق نفسها التي كانت عالقة بملابس والد بيتر. ووسط سحابة من الغبار والحجارة المتناثرة بكل مكان، شقت الشاحنة طريقها، وتبعتها أخرى وأخرى وأخرى.

وقف باكس بعيدًا عن الطريق، بينما حلق النسر عاليًا بضربة واحدة من جناحيه.

4

لم يبحث بيتر عن مصباح جده - وهذا هو الخطأ الأول الذي ارتكبه في رحلته. أضاء نور القمر طريقه مدة ساعتين تقريبًا قبل أن يغرق وسط أمواج وأمواج من السحب الكثيفة. ظل يتعثر في الظلام مدة ساعة أخرى قبل أن يستسلم، ومن ثم أخرج واحدًا من كيسي القمامة، وشق جانبيه ليستخدمه فراشًا صغيرًا، وقطع الآخر لارتدائه مثل معطف مطر يحميه من الضباب البارد، ونام بجانب مجرى مائي، مستخدمًا قفاز البيسبول وسادة. حقيقة، كلمة «نام» تعد مبالغة، فهو لم ينعم بنوم هانئ، وعندما لامس أول شعاع للشمس جفونه، استيقظ من غفوته هذه متجمدًا من البرد، ومبتل الثياب.

أول ما طرأ على ذهنه فور استيقاظه كان باكس: أين هو هذا الصباح؟ وهل يعاني هو الآخر البرد؟ وهل بلل المطر جسده؟ وهل يشعر بالخوف؟ قال بصوت عالٍ وهو يعيد كيسي القمامة إلى حقيبته: «أنا قادم. تحمل من أجلي».

أكل قطعة من الجبن وقطعتين من البسكويت، وتناول كوبًا كبيرًا من الماء، ثم ربط حذاءه، ومضى في طريقه.

شعر بتصلب جسده، وبألم شديد، لكن على الأقل خفف هذا الألم من حدة قلقه. ربما لم يقطع أكثر من 8 أو 10 كيلومترات، لكن لا بأس، فلا يزال أمامه يوم كامل قبل أن يعود

جده إلى المنزل من العمل ويشك في رحيله.

وفقًا لخريطة الأطلس، أمامه على الأرجح نحو 20 كيلومترًا أخرى ليقطعها قبل أن يصل إلى الطريق السريع. وبعد ذلك، يمكنه الانعطاف غربًا لتحديد موقع الطريق المختصر الواعد. سينام الليلة في الغابة، بعيدًا عن كل مظاهر الحضارة، وذلك هو الجزء الأكثر خطورة في الرحلة التي تنتظره.

تمنى لو كان أكثر انتباهًا للطريق أثناء قيادة والده السيارة في اليوم السابق - الخطأ الثاني - لكنه تذكر أنه رأى بلدة صغيرة هادئة مباشرة بعد اجتيازهما الطريق السريع، وبعد ذلك لمح مساحات شاسعة من الغابات تتخللها بعض المزارع.

مشى بيتر خمس ساعات كاملة، ما أدى لظهور بثور على عقبيه، فضلًا عن آلام كتفيه الناجمة عن حمله الحقيبة. لكن كل خطوة كانت تقربه من باكس والمنزل الذي لم يكن ينبغي له أن يغادره من الأساس، ومن ثم شعر بالأمل. ومع حلول فترة بعد الظهر، اقترب من مجموعة من المباني تشكل ميدانًا صغيرًا في البلدة.

على الفور، حدق الجميع إليه بريبة، وظلوا يتساءلون عن سبب عدم وجوده في المدرسة التي مر بها قبل قليل. وعندما توقفت امرأة تسحب خلفها طفلًا صغيرًا لتحدق إليه بشدة، تظاهر بيتر بأنه يفحص نافذة عرض متجر الأدوات المجاور له.

رأى في الزجاج انعكاس صورته، فتحطمت آماله؛ كان شعره متشابكًا ومليئًا بأوراق الشجر، وسترته ملطخة بالطين، وأنفه الأحمر ينذر بأنه مع نهاية اليوم سوف يعاني حروق الشمس بوجهه كله، إنها صورة لطفل هارب من مكان ما، ولم يستعد جيدًا لما ينتظره.

أحس بالمرأة تتحرك نحوه، ولكن قبل أن يتمكن من المغادرة، لاح ظل فوق كتفيه.

«هل تحتاج إلى شيء أيها الشاب؟».

رفع بيتر بصره، فرأى رجلًا ذا شعر رمادي خفيف يرتدي سترة زرقاء عليها شعار المتجر يقف عند الباب، عاقدًا ذراعيه فوق بطنه المترهل ويدخن. وثمة شيء ما في الطريقة التي كان يحدق إليه بها، ذكَّر بيتر بصقر رآه ذات مرة يبحث عن فريسة من أعلى شجرة أرز. لقد أشار الرجل إلى نافذة المتجر.

التفت إليها بيتر - رأى أمامه أكياس بذور وأدوات بستنة. وأجاب قائلًا: «أوه، لا، كنت فقط... آه، هل تبيع مصابيح يدوية؟».

أمال الرجل رأسه، ونظر إلى بيتر بينما كان يسحب سيجارته من فمه، فتذكر بيتر الصقر مرة أخرى. وأخيرًا سأله الرجل: «ابحث في الرف رقم 7. ألا توجد مدرسة اليوم؟».

«إنها استراحة الغداء. يجب أن أعود سريعًا».

أطفأ الرجل سيجارته، وتبعه إلى الداخل، وظل يحوم حوله وهو يختار أرخص مصباح يدوي على الرف وعلبة من البطاريات، بل ظل يتبعه أثناء خروجه.

في الخارج، أطلق بيتر أنفاسه التي لم يكن يدري أنه يحبسها، ثم وضع كل شيء في حقيبته، وعاد لاستئناف رحلته.

صاح الرجل: «انتظر».

تجمد بيتر في مكانه.

تبعه الرجل، ووضع يده على كتفه قائلًا: «المدرسة من هذا الاتجاه».

لوح بيتر وابتسم في محاولة منه للتظاهر بأنه لم ينتبه، وبسرعة غير اتجاهه. وعند منعطف الطريق، خاطر ونظر خلفه، فرأى الرجل لا يزال يراقبه.

انطلق بيتر، وغطت قطرات العرق المفاجئة مؤخرة رقبته. لم يتوقف عن الركض حتى وصل إلى مدخل المدرسة، ثم انعطف تجاه موقف السيارات.

إن كل ما أراد فعله هو الاختباء بضع دقائق - ربما بين شاحنتين صغيرتين - واكتشاف طريق للهروب. ولكن بعيدًا عن ساحة انتظار السيارات والمباني الخدمية، رأى شيئًا أكثر جاذبية.

إنه ملعب بيسبول أقيم وسط عشب الربيع الأخضر الليموني. وعلى طول خط القاعدة الثالث، في مواجهة المدرسة، توجد استراحة لاعبين خالية.

وقف بيتر على أطراف أصابعه في محاولة منه ليرى المنظر جيدًا. وظل يجادل نفسه مدة دقيقة فقط، فهو يرغب في التحرك بالتأكيد، كي لا يضيع الوقت. ولكن ماذا لو اتصل هذا الرجل بالشرطة؟ إن عبوره الطريق الآن يمثل مخاطرة كبيرة. وأي وقت سيضيع منه، يمكنه بسهولة تعويضه في الليل، فهو الآن لديه مصباح يدوي. فجأة، شعر بالتعب؛ إنه تعب شديد للغاية.

وفي الوقت ذاته بدا الملعب كأنه يرحب به، بل يدعوه للدخول. وكان بيتر يشعر دائمًا بالراحة في ملعب البيسبول. وربما كانت تلك علامة - لم يعتقد أنه يؤمن بالعلامات، ولكن بعدما سمع صوت ذئاب البراري الليلة الماضية، لم يكن متأكدًا من عدم إيمانه بها. لقد عدل بيتر وضع حقيبته على ظهره، واتجه نحو أسفل التل.

في استراحة اللاعبين، أحاطت به الروائح المألوفة للجلد المدبوغ، والعرق، والعلكة القديمة من كل اتجاه كأنها تحاول معانقته. ومن ثم سارع بيتر إلى ارتداء ملابس أخرى، وفرك شعره ليزيل التراب الأحمر الطيني من عليه - عندما يغادر هذا المكان، من المؤكد أنه سيبدو مختلفًا تمامًا عن أي وصف له قد يصل للشرطة يمكنها استخدامه للعثور عليه. ثم ملأ زجاجته من مُبَرِّد المياه، وشربها كلها، ثم ملأها مرة أخرى. وبينما كان ينزلق لينام تحت

مقعد اللاعبين، ابتسم، مدركًا أن باكس كان سيختار هذا المكان نفسه إذا أراد الحصول على قسط من الراحة - فموقعه هذا يوفر له الحماية، ويمثل نقطة مراقبة جيدة.

سيحظى بقسط من الراحة مدة ساعة ليس أكثر، بعدها سيقطع الطريق خلف المدرسة، ويستأنف رحلته مرة أخرى. وهذه الساعة مدة كافية لتفقد الشرطة الأمل في العثور عليه، في حال جرى الاتصال بها من الأساس. وضع قفاز البيسبول تحت رأسه، ثم أمال رأسه وهو يتمتم قائلًا: «سأرتاح مدة ساعة فقط، حتى إنني لن أغمض عينيَّ».

5

هذه أرضي أنا.

شعر باكس بالكثير من الدهشة لدرجة أنه كاد يسقط من فوق جذع شجرة البلوط التي كان يغفو عليها: ظل يراقب المكان من حوله طوال اليوم، وأكبر شيء رآه هو الجندب، والآن ظهر أمامه ثعلب ذو فرو لامع. لم يسبق له أن رأى ثعلبًا آخر من قبل، ومع ذلك أدرك أن ما يقف أمامه الآن هو ثعلب، وليس أي حيوان آخر: إنه أصغر منه حجمًا، وسنًّا، ونوعه مختلف؛ أنثى، لكنها في النهاية ثعلب. وبغريزته علم أيضًا أن طريقة رفعها أذنيها وذيلها تعني أنها تتوقع استسلامه.

قالت: أنا أصطاد هنا.

شعر باكس بالرغبة في العودة إلى مخبئه والاحتماء بسيقان النبات، كما لو كان ينسحب عائدًا إلى قفصه، لكنه قاوم ذلك الشعور، فماذا لو عاد صديقه ولم يكن هنا؟ رفع أذنيه ليُظهر أنه لا يقصد أي تهديد، لكنه لن يغادر.

تقدمت الثعلبة خطوات للأمام، واستنشق باكس رائحتها - التي كانت مألوفة وتشبه رائحته، ولكنها غريبة إلى حد ما. واستنشقت الثعلبة رائحته هو الآخر، وشعرت بعدم الثقة بسبب الرائحة البشرية العالقة بفروه.

لقد ولد باكس بالغريزة نفسها أيضًا؛ عدم الثقة بالروائح البشرية، لكن هذا الشعور بعدم الثقة لا يمكنه الصمود في مواجهة اللطف والعطف الذي يُقدم بانتظام وبلا حساب، خاصة بالنسبة للثعالب المولودة حديثًا. كان باكس يبلغ من العمر ستة عشر يومًا فقط عندما أنقذه بيتر - كان بلا أب أو أم؛ مخلوقًا عبارة عن فرو لم يفتح عينيه على الدنيا بعد - وبسرعة وثق بالصبي الهادئ الطويل الذي اصطحبه معه إلى منزله.

قامت الثعلبة بدس أنفها المدبب في فروه لشمه من كثب مرة أخرى.

قال باكس: هذه الرائحة هي رائحة صديقي. فهل رأيته؟ وشاركها أهم سمات صديقه البشري - الأذنين المستديرتين؛ الساقين الطويلتين للغاية، طويلة جدًّا لدرجة أن باكس كان يخشى عليه دائمًا أن يسقط أثناء الركض؛ الشعر الأسود المجعد الذي كان ينمو بدرجات مختلفة من الطول، ثم يعود قصيرًا مرة أخرى.

ما من بشر هنا، لكنهم يقتربون. وفي تلك اللحظة رفعت بريسل رأسها، كما لو أن هناك سلكًا غير مرئي سحبها لأعلى، وانتصبت أذناها، وانتبهت لحفيف وسط مجموعة من الأعشاب والنباتات. رفعت ذيلها وشحذت طاقتها، ثم قفزت عاليًا، بعدها وضعت كفيها الأماميتين على أنفها الأسود، وتسحبت بين الأعشاب مخلفة وراءها وميض ذيلها ذي الطرف الأبيض.

جلس باكس، في حالة تأهب. وفي غضون ثانية، ظهر رأس بريسل مرة أخرى، وبين فكيها فأر الغابة. قفزت بعيدًا عن العشب، وعضَّت رقبة الفأر، ثم طرحته أرضًا.

تيتم باكس قبل فطامه، ومن ثم لم يأكل قط فريسة نيئة. ازداد شعوره بالجوع بسبب رائحة الدم، كما أنه شعر بالفضول. اقترب منها بحذر، فدمدمت بريسل، ما جعله يتراجع ليراقب من مسافة آمنة.

صار يتضور جوعًا، وهو يراها تأكل الفأر قضمة تلو أخرى. وتذكر كيف كان يشعر بالراحة عند رؤية عبوة طعامه ممتلئة، والطعم اللذيذ للحلوى التي كان بيتر يطعمه إياها، والمكافأة

النهائية: زبد الفول السوداني. لقد كان في أمس الحاجة للعثور على صديقه كي يُطعمه.

قبل أن يتمكن من السؤال عن البشر الذين يقتربون، التقطت بريسل الجزء المتبقي من الفأر - ساق خلفية واحدة والذيل الطويل - وانطلقت به وهو يتدلى من فكها. لقد راقبها باكس وهي تشق طريقها بين العشب، حتى اختفت، وصارت عبارة عن وميض أبيض بين الحشائش. وأثناء مغادرتها اجتاحته ذكرى سيارة بيتر ووالده وهي تنطلق بعيدًا، وتنثر الحصى على جانبيها.

وقبل أن تشق طريقها وسط مجموعة من أعشاب السرخس عند حافة الغابة، توقفت بريسل لتنظر خلفها، وتلقي نظرة إليه. في تلك اللحظة، باغتتها ضربة حادة أتت من شجرة البلوط المتدلية، أعقبها ظهور شرارة حمراء لفرو يتأرجح بين أوراق الشجر الجافة، ويحلق فوق الأعشاب الضارة ليهبط في النهاية على ظهرها.

مد باكس جسده على الأرض، وسمع صياح الثعلبة وهي تتشاجر مع مهاجمها، لكن صوتها أوحى بالانزعاج أكثر من الخوف. رفع رأسه ليرى ما يحدث؛ فشاهد بريسل وهي تنقض على كرة من الفرو وتعضها بقوة. ولدهشته، اكتشف أنها تقاتل نسخة أخرى منها لكنها أصغر حجمًا وأكثر نحافة.

أصيب باكس بصدمة كبيرة، فهو لم يتخيل قط أن الثعالب يمكنها أن تحلق مثل الطيور التي تتحرك وتحلق بطريقة لا يمكنه هو نفسه محاكاتها.

انقلب الثعلب الصغير على ظهره، وأعلن استسلامه، لكن تصرفه هذا جعل بريسل أكثر غضبًا، فأخذت تثرثر، وتلكمه، وتعضه. قفز باكس واقترب منهما والفضول يقتله.

فزع الثعلب النحيل عند شمه الرائحة البشرية غير المألوفة، ونظر من فوق كتف بريسل. ومن ثم اتسعت عيناه عندما رأى باكس، وبسرعة انطلق نحوه وقال له: هل أنت صديق، أنا شقيق بريسل ولست طفلها، أتود أن تلعب؟

كشفت بريسل عن أسنانها، وزمجرت في وجه شقيقها قائلة: إنه خطر ابتعد عنه.

تجاهل باكس تحذيرات بريسل ورد التحية: نعم صديق، رأيتك تطير قبل قليل، هل أنت طائر؟

وثب الثعلب الصغير عائدًا إلى شجرة البلوط المائلة، ثم قفز على جذعها، وتشبث بفرعها المتجه لأعلى، وأخذ يتحرك بخفة عليه ناظرًا إلى الأسفل للتأكد من أن باكس يراقبه.

خفض باكس رأسه، ووضع كفيه الأماميتين تحت صدره، وبمنتهى الصعوبة منع نفسه من القفز على الشجرة ليجرب ذلك بنفسه. وعلى الرغم من أنه تسلق جدران قفصه من قبل، فإن ارتفاع هذا القفص لم يتجاوز مترين. اهتز ذيله بسرعة من فرط الحماس والإثارة.

تقدمت الثعلبة بضع خطوات، ثم افترشت الأرض، بعدها تدحرجت ومالت على جانبها لتنظر مباشرة إلى أخيها، حبها له صار واضحًا الآن، قالت: إنه ضعيف، وصغير الحجم، لكنه عنيد. لا أريد اصطحابه معي أثناء الصيد، لكنه يتبعني. هزت رأسها، وزمجرت في وجه باكس، كأنها تلومه على ما يفعله أخوها.

ظل الثعلب الصغير يتحرك على طول الغصن، ومد ذيله للحفاظ على توازنه، ثم لف جسده وقفز نحو الثعلبين الواقفين على الأرض، لكنه سقط فوق مجموعة من النباتات المليئة بالأشواك بجانب الطريق، وفي الحال قفز منها بعد أن ملأ شوكها جسده، أخذ يدور حول نفسه في جنون، كما لو أن التحليق قد غمره بشحنة كبيرة من الفرح لا بد من التخلص منها عبر سيقانه، وأخيرًا ألقى بنفسه على الأرض ليتخلص من باقي هذه الشحنة.

انقضت عليه شقيقته، وقالت: قفزت قريب جدًّا من الطريق. وبينما كانت تسحب الأشواك من فروه، وبختته لتهوره في الطيران. أما باكس، فوقف مندهشًا مما رآه، فقد حلق هذا الثعلب الصغير مسافة كبيرة دون أن يلمس الأرض بمخالبه. سيجرب بنفسه هذا الإنجاز ذات يوم.

عندما تمكن رانت من الوقوف على رجليه، خفض رأسه، وعانق شقيقته، لكنها أسقطته على الأرض مرة أخرى بعنف هذه المرة، ثم مالت بجسدها عليه، وثبتت جسده بإحكام. حاول الاستمرار في المقاومة، لكن دون إزعاجها، واحتج بلطف عندما بدأت تنظيفه.

وقف باكس بعيدًا عنهما بمسافة مناسبة. بعد مرور لحظات، خضع لها شقيقها تمامًا وتلاشى غضبها، وأحضرت بريسل بقايا الفأر ووضعتها أمامه. بعدها استلقت وبدأت لعق كفيها، ثم أخذت تنظف وجهها بهما.

اقترب باكس قليلًا، خافضًا جسده لدرجة أن بطنه لامس الأرض. لقد جذبته صحبة هذين الثعلبين الصغيرين، سواء كان مُرحبًا به أم لا.

أخذت بريسل تتمطى في ظل ضوء الشمس المائل على جسدها. ولمعت وجنتاها الرطبتان - كخشب المائدة الذي كان له لون اليقطين، حيث اعتاد صديقا باكس البشريان تناول طعامهما - وبرزتا في مقابل اللون الأبيض لحلقها الأملس.

نظر باكس إلى رانت وهو يشم موضع نومه، فلاحظ أن لديه علامات بفروه تشبه تلك الموجودة على جسده، لكنها لم تكن زاهية. كما أن فرو رانت كان خفيفًا ومتكتلًا في بعض الأماكن دون غيرها، وكانت عظام حوضه تبرز بزوايا حادة. وفجأة تحرك رانت بضع خطوات إلى الخلف وقفز متظاهرًا بالهجوم.

راقب باكس رانت وهو يرمي الجندي الدمية في الهواء، ثم يثبته في الأرض، ويعود ليقذفه في الهواء، ظل يفعل ذلك مرارًا وتكرارًا. لقد كان باكس نفسه يلعب بهذه الطريقة في صغره. وبهدوء اتجه باكس نحوه، وانضم إلى اللعبة، ورحب به رانت كما لو كانا يلعبان معًا منذ ولادتهما.

نهضت بريسل وصاحت: اقذفها نحوي.

تجاهلها شقيقها لحظة، ولكن بعد ذلك حدق إليها، كما لو كان يحاول أن يختبر مدى صبرها، واتجه نحوها، وأسقط اللعبة بجوار كفيها.

زمجرت بريسل في وجه الدمية، وقالت: أشم رائحة البشر، اتركها هنا، ولتذهب للمنزل الآن.

انحنى رانت، واتكأ على ساقيه الأماميتين محاولًا الاقتراب من باكس.

قفزت بريسل لتعض شقيقها، وقالت: تفوح منه رائحة البشر، تذكر ذلك جيدًا.

فزع باكس من الصورة التي وصفتها لشقيقها حينها، فلقد حدثته عن ريح باردة عاتية؛ ثعلبين يتصارعان مع شيء يذكِّر باكس بقفصه: شيء مصنوع من الفولاذ لكنه ذو مشابك بدلًا من القضبان. الدماء التي تلطخ تلك المشابك الفولاذية والأرض الثلجية.

مالت بريسل برأسها لتفحص السماء، وتشم النسيم الذي ينذر بعواصف رعدية آتية من الجنوب. وصاحت: إلى المنزل.

خفض رانت ذيله، وتبع شقيقته، لكنه التفت بعد ذلك إلى باكس ودعاه ليلحق بهما هو الآخر.

تردد باكس، فهو لم يكن يريد مغادرة المكان الذي سيعود إليه بيتر، لكن السحب القاتمة بدأت تكسو السماء، وفي تلك اللحظة، دوى الرعد من بعيد. وعلم أن صديقه لن يغامر بالخروج أثناء العاصفة، وخشي أن ينتهي به المطاف مبتلًّا على جنبات الطريق، وحده.

التقط الجندي الدمية، وخبأه في فمه، وانطلق خلفهما.

التفتت بريسل عندما شعرت بوجوده، وقالت: ليلة واحدة فقط يا من تفوح مه رائحة البشر.

وافق باكس، وعزم على تتبع رائحته والعودة من الطريق نفسه بعد انتهاء العاصفة. سيأتي صديقاه البشريان من أجله حينها، وبمجرد أن يعثر على بيتر، فلن يفارقه أبدًا.

6

تعرَّف بيتر على الأصوات قبل أن يستفيق تمامًا من نومه؛ وقع أرجل عدد كبير من الأطفال الذين سُمح لهم من فورهم بالدخول، صوت هتافاتهم، وضربهم القفازات بقبضاتهم المتحمسة. خرج من أسفل المقعد، وأمسك بأغراضه، لكن للأسف بعد فوات الأوان: كان هناك عشرون فتى ومدربهم يتوجهون نحو أسفل التل. وفي موقف السيارات، ثمة مجموعة من البالغين يشرفون على عملية تنظيم الأطفال، وكان بعضهم يرتدي الزي الرسمي. رأى أن أفضل خيار أمامه هو الانضمام إلى عشرات الأطفال الذين كانوا منتشرين بالفعل في المدرجات، مقربين رءوسهم بعضها من بعض في شكل مجموعات تتكون كل منهما من طفلين أو ثلاثة، والاندماج معهم والتخفي بينهم عند مغادرتهم.

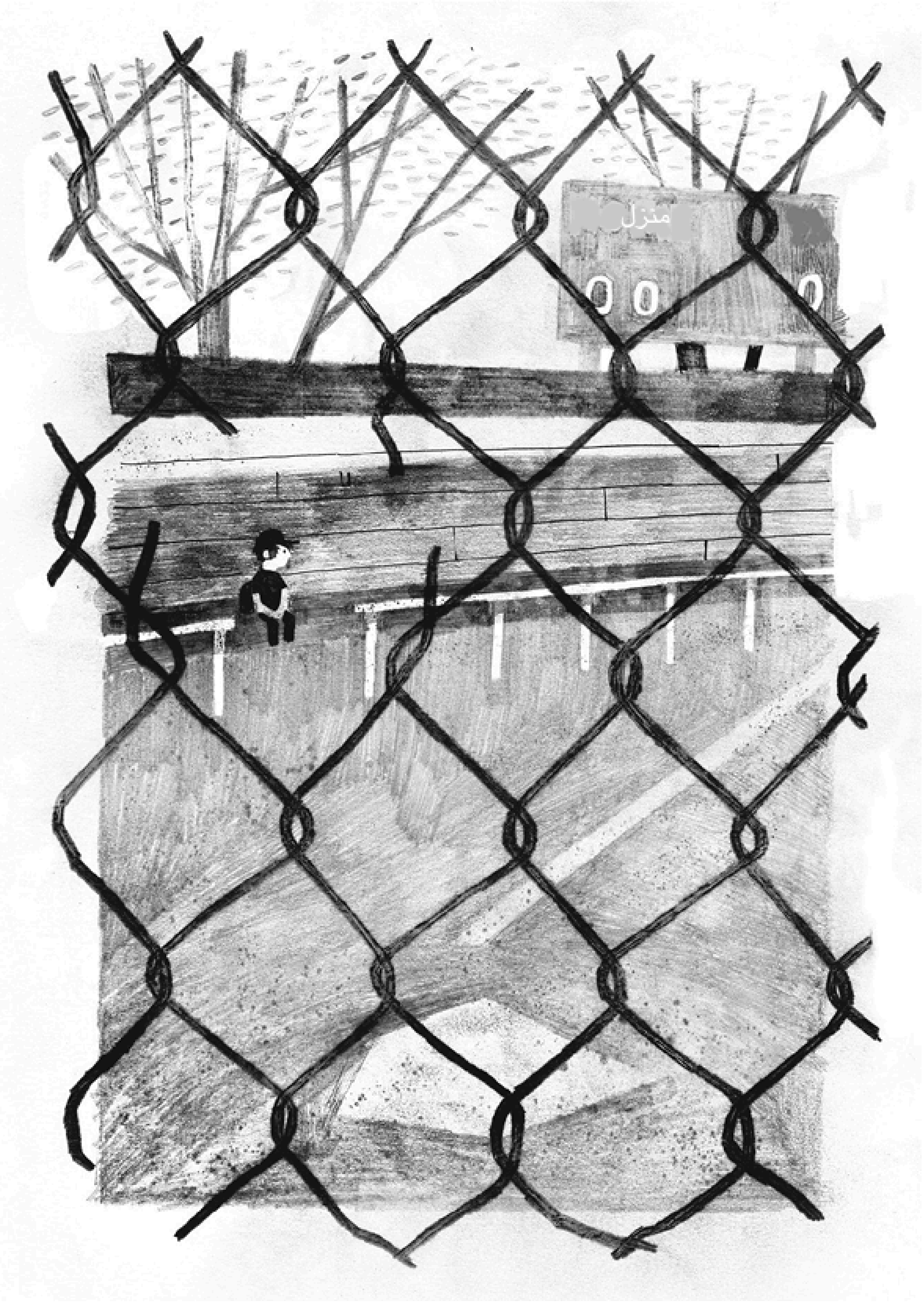
منزل
00
0

صعد بيتر المدرجات إلى الصف العلوي، وألقى حقيبته أسفل رجليه. إنه مجرد طفل يشاهد تدريب البيسبول - لا يمكن أن يبدو المشهد طبيعيًا أكثر من ذلك، ومع ذلك خفق قلبه بسرعة كبيرة.

في الملعب، بدأ المدرب في رمي الكرة في الهواء لتدريب اللاعبين الذين بدوا عاديين ككل الأشخاص الذين تتوقع رؤيتهم في ملعب الكرة؛ كانوا لاعبين مفتولي العضلات يصيحون بصوت عالٍ. وجال بيتر ببصره وفي النهاية رأى الشخص الذي أراد مشاهدته، وهو طفل صغير ذو شعر أشقر قصير، يرتدي قميصًا أحمر باهت اللون، ويلعب في مركز الدفاع. وبينما كان بقية اللاعبين يتدافعون مثل الجراء، وقف هذا الطفل ثابتًا في مكانه كالتمثال، ويداه مرفوعتان إلى أعلى خصره، وعيناه مثبتتين على مضرب المدرب. وفي اللحظة التي كانت تلامس فيها الكرة مضرب المدرب، كان يقفز بسرعة شديدة تمكنه بطريقة ما من التقاط كل كرة تأتي بالقرب منه، على الرغم من قصر قامته الشديد، لدرجة أنه بدا كأنه شقيق أصغر لأحد اللاعبين يرافقهم.

كان بيتر يعلم أنه لا يبدو من نوعية الأطفال المتوقع وجودهم في ملعب البيسبول، بل وكان يشعر بعدم الانتماء في استراحة اللاعبين، حيث الكثير من اللكمات على الكتف، والأحاديث التافهة، ولكن ملعب البيسبول كان المكان الوحيد الذي يشعر فيه بأنه موجود حيث ينتمي حقًّا.

هذا المكان يمنحه شعورًا لم يحاول قط وصفه لأي شخص آخر - من ناحية لأنه يُعتبر شعورًا خاصًّا جدًّا، ومن ناحية أخرى لأنه لم يعتقد أن لديه الكلمات المناسبة لوصفه. ربما تبدو كلمة «روحاني» هي الأقرب لوصف مشاعره، وكلمة «هدوء» تبدو مناسبة أيضًا، ولكن لا تصف أي منهما تلك المشاعر بدقة. وفي لحظة جنون، شعر بيتر بأن لاعب مركز الدفاع قصير القامة هذا يفهم ويستوعب معنى هذه الروحانية وهذا الهدوء، بل يشعر بهما أيضًا.

أخذ المدرب يرمي مجموعة من الكرات باتجاه اللاعبين. وكان الضاربون يسددون ضربات قوية للكرات، أما لاعبو الدفاع، فكانوا ينتبهون جيدًا، أو على الأقل يواجهون ويتحركون

في الاتجاه الصحيح. ظل يشعر بأن لاعب مركز الدفاع هو الوحيد الذي يستحق المشاهدة، فقد بدا كما لو كان مثبتًا في الأرض بأسلاك قوية، وكان يحدق بثبات إلى اللاعبين.

يعرف بيتر هذا النوع من التركيز جيدًا - في بعض الأحيان كانت عيناه تعانيان الجفاف لأنه نسي أن يحرك جفونه، وكان يركز بشدة على كل حركة لكل لاعب - ويعلم أن هذا يؤتي بثماره. ذات يوم، كان بيتر مثل هذا الطفل الذي يرتدي القميص الأحمر الباهت؛ كان له موقعه الخاص في ملعب البيسبول. لقد أحب هذا الموقع بكل تفاصيله حتى رائحة العشب والغبار الجاف. لكن أكثر شيء أحبه في الملعب هو السياج الذي يحيط بتلك المساحة؛ ذلك السياج الذي يحدد ما هو ضمن مسئوليته بالضبط وما هو ليس كذلك: إذا سقطت الكرة داخل هذا السياج، فعليه أن يمسك بها، أما إذا ارتفعت الكرة فوقه، فليس عليه القلق بشأنها. وهذا يجعل الأمور واضحة وسهلة.

كثيرًا ما تمنى بيتر أن تكون المسئولية التي يشعر بها محاطة بأسوار مرتفعة مثل السياج الذي يحيط بملعب البيسبول، كي تكون واضحة ومحددة.

عندما توفيت والدة بيتر، ذهب فترة إلى معالجة نفسية. حينها كان في السابعة من عمره، ولم يرد التحدث مع أحد، أو ربما لم يكن يعرف كيف يختصر هذا الشعور بالفقد والخسارة في كلمات محددة.

قالت المعالِجة، وهي امرأة لطيفة، عيناها مليئتان بالعطف والود وشعرها مصفف على هيئة جديلة فضية طويلة، إنه لا بأس من عدم رغبته في الحديث، وما من مشكلة أبدًا في ذلك. وعلى مدار الجلسة كلها، كان بيتر ينشغل بسحب سيارات وشاحنات صغيرة من صندوق الألعاب - كان هناك المئات منها في هذا الصندوق؛ حيث اكتشف بيتر لاحقًا أن المعالِجة قد اشترت له كل الألعاب الموجودة قي المتجر - ويصدم بعضها ببعض، اثنتين في كل مرة. وعندما كان ينتهي، كانت المعالجة تردد الكلمات نفسها: «لا بد أن الموقف صعب عليك. فما حدث فظيع للغاية؛ لقد استقلت والدتك السيارة وذهبت لشراء البقالة في يوم عادي، لكنها لم تعد قط للمنزل».

لم يرد بيتر عليها مطلقًا، لكنه يتذكر إحساسه بأنها كانت على صواب، وبأن الساعة التي يمضيها معها مهمة - بدا الأمر بالنسبة له كما لو أنه وصل أخيرًا إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه، وأنه لا يتحتم عليه القيام بأي شيء آخر سوى صدم تلك السيارات الصغيرة بعضها ببعض، وسماع المعالجة وهي تتحدث عن مدى صعوبة الموقف عليه.

حتى أتى اليوم الذي قالت فيه المعالجة شيئًا مختلفًا: «بيتر، هل تشعر بالغضب؟».

رد بسرعة: «لا، على الإطلاق». بالطبع كان يكذب. وبعد ذلك، نهض وأخذ واحدة من حلوى التفاح الأخضر الموجودة في الوعاء النحاسي المجاور للباب، تمامًا كما كان يفعل في نهاية كل جلسة - كان هذا هو الاتفاق الذي أبرمته المعالجة ذات العينين الطيبتين معه: كلما شعر بالاكتفاء، يمكنه أن يأخذ قطعة حلوى، وهكذا تنتهي الجلسة، ويغادر. لكنه عندما غادر هذه المرة، رمى قطعة الحلوى في البالوعة. وفي طريقه إلى المنزل، أخبر والده بأنه لن يزور هذه المعالجة مرة أخرى. ولم يعترض والده على قراره هذا؛ لأنه بدا مريحًا بالنسبة له.

لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لبيتر. ترى هل كانت المعالجة اللطيفة على علم بأنه كان غاضبًا في آخر يوم قضاه مع والدته، وأنه ارتكب خطأ فادحًا يومها؟ وأنها، على سبيل العقاب له، لم تصحبه معها إلى المتجر؟ وهل كانت المعالجة تلومه على ما حدث؟

بعد بضعة أشهر من وفاة والدته، عثر بيتر على باكس: ذات يوم صادف ثعلبًا ميتًا على جنبات الطريق بالقرب من منزله. وكان ذلك بعد وقت قصير من رؤية نعش والدته وهو يُدفن في الأرض، لذا شعر بأنه من الضروري دفن جثة هذا الثعلب. وبينما كان يبحث حوله عن مكان مناسب للدفن، وجد الجحر، وكان فيه ثلاثة ثعالب أجسادها باردة ومتيبسة، وثعلب صغير ذو فرو باهت اللون جسده دافئ ولا يزال يتنفس. وضع باكس في جيب سترته، وأخذه معه إلى المنزل، وقال - لم يطلب أو يستأذن بل قال: «سأحتفظ به». رد والده: «حسنًا، حسنًا. لفترة وجيزة».

ظل الثعلب الصغير يرتجف ويعوي طوال الليل، وعندما سمعه بيتر، شعر بأنه إذا عاد لزيارة المعالجة ذات العينين الطيبتين مرة أخرى، فسوف يحطم تلك السيارات اللعب جميعها، وسيظل يحطم فيها طوال النهار وطوال الليل، إلى الأبد. ليس لأنه يشعر بالغضب، بل ليلفت أنظار الجميع إليه.

إن التفكير في باكس أيقظ من جديد ثعبان القلق ليلتف حول صدر بيتر. كان بحاجة إلى التحرك مرة أخرى والانطلاق في طريقه لتعويض ما فاته من وقت. لقد انتهت التدريبات الآن، وبدأ الفتيان الانتشار في الملعب، وجمع أدواتهم أثناء توجههم نحو استراحة اللاعبين. وبمجرد أن أصبح الملعب خاليًا، نزل من المدرجات، وسحب حقيبة ظهره، ووضعها فوق كتفيه. وبينما كان يتحرك عند أحد أركان الملعب رأى لاعب مركز الدفاع قصير القامة.

تردد بيتر، يجب عليه أن ينطلق، ويحاول الاندماج مع الجموع أثناء مغادرة الملعب. لكن بقية الفريق تركوا هذا الطفل ليحمل المعدات ويعود بمفرده، وكان بيتر يعرف معنى ذلك الشعور جيدًا. ومن ثم التقط مجموعة من الكرات، وأعطاه إياها قائلًا: «مرحبًا».

أخذ الصبي الكرات وابتسم في حذر قائلًا: «مرحبًا».

«أحسنت اللعب، كيف سددت الضربة الأخيرة؟ كانت قوية للغاية».

أشاح الصبي بوجهه وركل الأرض برجله، لكن بيتر رأى السعادة في عينيه وهو يقول: «لاعب المركز الأول له الفضل في ذلك».

«لا، أنت من سدد تلك الكرة ببراعة، لاعب المركز الأول ليس في مهارتك، عذرًا لا أقصد إساءة».

ابتسم الصبي لبيتر وقال: «نعم. إنه ابن شقيق المدرب. فهل تلعب أنت البيسبول؟»

أومأ بيتر وقال: «نعم، أنا لاعب دفاع».

«أنت طالب جديد، أليس كذلك؟».

«أوه .... أنا لا أعيش هنا، أنا ...». أومأ بيتر برأسه بشكل غامض وأشار إلى الجنوب.

«هل تقصد هامبتون؟»

«نعم، هامبتون، صحيح».

بدا الصبي عابسًا وهو يقول: «هل تقوم بجولة استكشافية قبل مباراة يوم السبت، أيها الأحمق؟»، ثم بصق واتجه نحو استراحة اللاعبين.

ما إن غادر الفتى الملعب، هنأ بيتر نفسه على سرعة بديهته، وتحايله كي لا يترك أي أثر وراءه، لكنه بطريقة ما شعر بالحزن والاستياء الشديدين.

حاول التخلص من هذا الشعور - تذكر حديث والده عن المشاعر، لقد قال إنه من الممكن تحسين الحالة المزاجية من خلال تناول فنجان من القهوة وإعطاء الأمور بعض الوقت - وعلى الفور نظر في ساعته، إنها الرابعة و15 دقيقة. لقد أضاع أكثر من ثلاث ساعات.

تحرك بيتر سريعًا، ولكن عندما وصل إلى ميدان البلدة مرة أخرى، عبر إلى الجانب الآخر المقابل لمتجر الأدوات، وأجبر نفسه على السير بسرعة ثابتة مارًّا بمكتبة، ثم بمحطة للحافلات، وبعدها بمطعم. بعد ذلك عد ألف خطوة قبل أن يجازف ويرفع رأسه.

وعندما فعل ذلك، نظر في ساعته مرة ثانية، إنها الرابعة وخمسون دقيقة. ربما كان جده يحزم أغراضه الآن. تخيله بيتر وهو يسير نحو سيارته الزرقاء الصدئة، ويقوم بتشغيلها.

ومع تخيله تلك الصورة، استبد به القلق وضاقت أنفاسه. تسلق سياجًا خشبيًّا منخفضًا، وسقط وسط مجموعة من الأشجار الكثيفة. بعدها تحرك بحذر نحو مكان آمن على بعد نحو 9 أمتار، حيث توجد شجيرات ارتفاعها أطول منه بقليل، عندئذ قل توتره وتمكن من

العودة للتنفس بشكل طبيعي، قبل أن ينعطف للسير في محاذاة الطريق الذي أصبح أكثر وعورة الآن، ولكن بعد خمس عشرة دقيقة وجد ضالته: الطريق السريع.

تسلل نحو مدخل هذا الطريق، جاثمًا كي لا يراه أحد، ثم عند توقف حركة المرور، ركض وعبر إلى الجانب الآخر، وتسلق السياج المعدني، ليسقط في الاتجاه الآخر، فيما كان قلبه ينبض بقوة، ها قد فعلها.

أخذ يجري بخطى سريعة بين الأشجار، بحثًا عن طريق مناسب للتوجه نحو الغرب. وفي غضون دقائق معدودة، وجد طريقًا ترابيًا موازيًا للطريق السريع، صحيح أنه يشبه مسار عربة قديمة، ولكنه كان في الاتجاه الصحيح، ويمكن المشي عليه بسهولة حتى في الليل. لذا استدار على الفور.

أخذت الأشجار تزداد كثافة بجانبه، ولم يكسر حاجز الصمت من حوله سوى أصوات الطيور وحفيف السناجب. أدرك بيتر أنه ربما شاهد آخر مظاهر الحضارة قبل قليل، وتلك الحقيقة منحته شعورًا بالراحة والحرية.

ولكن بعد بضع دقائق ظهر أمامه منعطف، فسلكه، ليظهر له بستان قديم مليء بأشجار الفاكهة النضرة، وجدار حجري يحيط بحقل كبير، وحظيرة صغيرة في الزاوية البعيدة. ولم تكن ثمة أنوار في الحظيرة، ولا سيارة أو شاحنة بجانبها. ومع ذلك، خفق قلب بيتر بقوة شديدة. لقد بدت الحظيرة مطلية حديثًا، وكانت بعض ألواح السقف وردية اللون لأن الخشب جديد. هذا الطريق يؤدي إلى منزل شخص ما. والأسوأ من ذلك أنه قد يؤدي إلى طريق أطول لم يظهر في الأطلس القديم. وعلى أي حال، لم يكن هذا هو الطريق المختصر الممتد عبر التلال.

رمى بيتر حقيبته، وانحنى ببطء ليستند إلى الجدار الحجري، منهكًا وجائعًا. وبهدوء خلع حذاءه وجوربه ليفاجأ بوجود بعض البثور على عقبيه، ستقتله تلك البثور من الألم عندما يخرج منها القيح. ومن ثم أسرع بإخراج الجورب الإضافي من أسفل حقيبته، وارتداه فوق

الجورب الحالي. وأرجع رأسه إلى الخلف ساندًا إياه على الحجر الصلب الذي لا يزال يحتفظ بالقليل من دفء شمس النهار التي تلقي بأشعتها الآن على خط الأشجار، وتغمر الحقل بوهج برتقالي لامع.

أخرج حبات الزبيب وأكلها واحدة تلو أخرى، مع تناول رشفات صغيرة من الماء بينها. ثم فتح علبتي أصابع الجبن، وأخذ أربع قطع من البسكويت. ظل يأكل ببطء قدر استطاعته، وهو يراقب أشعة الشمس التي تغطي البستان، وتفاجأ بأنه يمكنه ملاحظة حركتها وهي تغرب. ترى كيف عاش اثنتي عشرة سنة من عمره دون أن يعرف هذه المعلومة عن الغروب؟

بعد أن ربط حذاءه، وهمَّ لينهض، رأى غزالًا يقتحم البستان من الغابة المجاورة. لقد حبس أنفاسه بينما ملأت الغزلان المكان من حوله - إجمالي عددها بلغ أربعة عشر غزالًا. وقد بدأت الغزلان الرعي، وكان عدد قليل منها يمضغ بلطف فروع الأشجار المنخفضة.

جلس بيتر في وضع القرفصاء مرة أخرى، فاقتربت منه غزالة وصغيرها المرقط، مالت برأسها لتنظر إليه مباشرة. رفع بيتر كفه ببطء، على أمل إيصال رسالة بأنه لا يقصد الأذى. وفي الحال تحركت الغزالة بين بيتر وصغيرها، وبسرعة غاصت برأسها في العشب مرة أخرى.

لم يقطع لحظة الغروب الهادئة الصافية هذه سوى صوت منشار يقطع بعض الأخشاب آتٍ من خلف الحظيرة. فزع القطيع كله، وانطلقت الغزلان بعيدًا نحو الغابة المظلمة، وذيولها البيضاء تومض وسط الظلام. وقبل أن تقفز وتغيب عن الأنظار، رمقت الغزالة بيتر بنظرة ثاقبة كأنها تود أن تقول له: أنتم أيها البشر تدمرون كل شيء...

نهض بيتر، وركض عائدًا إلى الطريق السريع، فلاحظ أن نصف السيارات تضيء مصابيحها الأمامية الآن، ويبدو أنها جميعًا تتجه نحوه مباشرة. ومن ثم حاول تفاديها والاختباء.

كانت الأرض رطبة ورائحتها أشبه برائحة المستنقعات. وبينما كان يفكر في استخدام المصباح اليدوي، انزلقت رجله في الماء. أمسك بغصن متدلٍّ ليرفع نفسه، لكن بعد فوات الأوان، حيث شعر بمياه المستنقع الباردة تتسرب إلى حذائه. استاء بيتر لأنه لم يحضر المزيد من الجوارب - ها هو خطأ آخر، لعله يكون الأخير في هذه الرحلة.

وبعد أن تمكن من الخروج من المستنقع، والتسلق لبقعة مرتفعة، ارتكب خطأ آخر، أسوأ كثيرًا.

انزلقت رجله اليمنى على جذور بعض النباتات فسقط. سمع صوت كسر عظام - صوتًا ناعمًا ومكتومًا - وفي الوقت نفسه شعر بآلام حادة. للحظة، جلس يلهث من شدة الألم، وأخيرًا، سحب رجله، وفك رباط حذائه، منتفضًا عند كل حركة. ثم خلع جوربه المبلل، وصُدم من هول ما رآه: كانت رجله تتورم بسرعة كبيرة وبشكل ملحوظ.

حاول ارتداء جوربه مرة أخرى، وكاد يصرخ من الألم الناجم عن ذلك، ثم عض على أسنانه، وهو يحاول ارتداء الحذاء ثانية قبل أن تنتفخ رجله أكثر من ذلك. ثم زحف نحو شجرة، ورفع نفسه ليقف بوضع مستقيم. اختبر حمل وزنه على رجله، وكاد يسقط مرة أخرى. كان الألم أشد كثيرًا من أي ألم شعر به من قبل - ألم الإبهام المكسورة مقارنة به ليس إلا لدغة بعوضة.

في النهاية أدرك أنه لا يستطيع المشي!!

7

استيقظ باكس في سعادة غامرة شاعرًا بثقل جسد آخر فوقه ودفئه. وقبل أن يستفيق بشكل تام، بدأ يستنشق الهواء من حوله ليشم رائحة صديقه التي تغمره بالارتياح، لكن أنفه لم يشم رائحة بشرية على الإطلاق، يا إلهي ما هذا إنه ثعلب.

استيقظ تمامًا في هذه اللحظة ليجد شقيق الثعلبة ملتفًّا حوله ويغط في النوم. زمجر رانت ورفع ذيله ولفه حول أنفه، وهو لا يزال نائمًا.

سحب باكس نفسه بقوة. إذ لم يمارس السيطرة والهيمنة من قبل، لكن الموقف لم يترك له خيارًا آخر. وقال بحدة: عد إلى جحرك. وعندما حاول رانت أن يستقر على صدره، عضَّه باكس من كتفه.

هز رانت جسده، واستيقظ، ثم نهض من مكانه. لم يخفض رأسه مستسلمًا، ولم يخطُ خطوة واحدة تنم عن عزمه على المغادرة، بل بدا عليه أنه يدعوه للعب.

لو أن الظروف مختلفة، لرحب باكس بصحبة هذا الثعلب الصغير الطيب، لكنه لم يرد الاشتباك مع بريسل مرة أخرى، وفي الواقع لم يكن متحمسًا لأي شيء سوى العودة إلى صديقه.

أحضر باكس الجندي اللعبة الذي خبأه، ووضعه أمام رانت هدية، ثم حذره مرة أخرى. وبعد نظرة توسل أخيرة، التقط رانت اللعبة بفمه. وتبعه باكس وراقبه حتى انزلق في حفرة تقع على مسافة تقدر بطول ذيل مثلًا.

عندما ضربت العاصفة الرعدية السماء - قصيرة وعنيفة لدرجة أنها شقت صفحة السماء - تحرك باكس نحو مدخل ضحل لجُحر مهجور يقع بالقرب من الجحر الذي تتشاركه بريسل مع شقيقها، وبدأ تقييم محيط ذلك الجحر. الآن، في ظل الضوء الباهت لنصف القمر، استغرق لحظة في فحص المكان.

يقع هذا الجانب من التل في مواجهة الجنوب. هنا بدت جذور الأشجار كأنها تحكم قبضتها على التربة، بالضبط كيد بشرية تقبض بشدة على شيء ما، وفيما بين هذه الجذور رأى باكس ثلاثة مداخل لجحور خفية.

فوق هذا التل، امتدت الغابة نحو الشمال والغرب، وتحته، امتد وادٍ عشبي شاسع. إنه موقع مثالي: فالمنحدر الجانبي يوفر بعض الحماية من الحيوانات المفترسة التي تقترب،

وسلسلة الأشجار تحمي الثعالب من الرياح الشمالية. كما أن المروج تفوح منها بغزارة رائحة الحياة.

عندما استوعب باكس كل هذا، هدأ التوتر العميق داخله. وانتابه شعور مشابه لذلك الذي شعر به في صغره بعد أن دفع طبق طعامه إلى أقصى زاوية في منزل بيتر ثلاث مرات، وفهم بيتر أخيرًا أن يتركه هناك بعيدًا عن الجدار الشمالي البارد، ليتمكن أيضًا من رؤية الباب الذي يدخل منه الأب، غاضبًا في بعض الأحيان. وفي كلا الموقفين هدأ، وقال لنفسه: صرت بأمان.

ولكن هذا المكان لم يكن آمنًا لهذا الحد بالنسبة له. لقد حذرته بريسل من أن هذا المرج يعيش فيه ثعلب أكبر سنًّا وزوجته، وهذا الثعلب كان يواجه بالفعل منافسًا من الخارج، ولن يتحمل فكرة وجود ذكر وحيد آخر. وفي تلك اللحظة رأى باكس حركة بالقرب منه - خرج ثعلب عريض المنكبين ذو فرو أسود ورمادي من الأدغال عند منتصف الطريق أسفل المنحدر، ووضع علامة على شجيرة بجانبه. بدأ الثعلب الكبير في تنظيف نفسه، ولكن بينما كانت مخالبه لا تزال على أذنه، شم رائحة ما في الهواء. اندفع باكس نحو أعلى التل، واختفى عن الأنظار وسط شجيرات الغابة.

تمكن باكس بمنتهى السهولة من تعقب أثر رائحته على الرغم من الأمطار الغزيرة. ولم يتوقف إلا ليلعق بعض قطرات الماء على أوراق الشجر بسرعة، ثم تبع تلك الرائحة عائدًا أدراجه للمكان الذي سينتظر فيه بيتر.

وهناك، شم باكس رائحة الشاحنة العسكرية التي مرت في اليوم السابق، وما من شاحنات أخرى قد مرت منذ ذلك الحين. استقر مرة أخرى على جذع شجرة البلوط المائل للانتظار.

جلب ضوء الصباح طنين مجموعة من الحشرات، وزقزقة الطيور، ولكن غابت تمامًا أصوات حركة المرور على الطريق. وعندما أشرقت الشمس حارة وجافة، تبخرت قطرات المطر التي علقت بكل فرع أخضر.

أدرك باكس مدى جوعه الآن، لكن شعوره بالعطش كان أصعب - لم يرتوِ بالماء منذ أن غادر منزل صديقه، ومن ثم جف حلقه وانتفخ لسانه. كان يشعر بالدوار كلما غير موضعه. شم رائحة المياه أكثر من مائة مرة، لكنه لم يفكر قط في ترك مكانه لأنه قطع على نفسه عهدًا بالبقاء هنا، ظنًّا منه أن صديقه سوف يعود. تشبث بمخالبه بجذع الشجرة، وحاول جاهدًا سماع صوت أي سيارة تسير على الطريق الصامت. مرت ساعة، ثم أخرى، وفجأة غلبه النوم، واستيقظ بعدها، وتذكر ما حدث معه، ثم نام مرة ثانية، واستيقظ، وتذكر ما جرى مرة أخرى. وأخيرًا جلبت الرياح أخبار اقتراب شيء ما.

إنه ثعلب. الثعلب الذكر الذي رآه سابقًا، هذا الذي حذرته منه بريسل. مشي هذا الثعلب بخطى متأنية، دون أن يبدو عليه أي تردد أو ضعف. لكن شكل فروه رمادي اللون أوحي بأنه عجوز. رأى باكس بمجرد اقترابه أن عينيه تغير لونهما إلى الرمادي مع تقدمه في السن.

بعد أن انتشرت رائحته في المكان، استلقى جراي على العشب بجوار جذع الشجرة المائل على الأرض. ولم يحاول أن ينهض في إشارة منه إلى أنه لا يقصد أي تهديد. قال لـ باكس: أنت تحمل رائحة البشر. لقد عشت معهم ذات مرة. إنهم يقتربون.

أحيا هذا الأمر المفاجئ الأمل في باكس من جديد، فسأله: هل رأيت صديقي؟ ووصف له بيتر.

لكن جراي لم يرَ أي بشر على الإطلاق منذ تلك الفترة التي عاشها معهم في شبابه. وكان ذلك في مكان آخر - أرض جافة صخرية في بلدة فصول الشتاء فيها طويلة، وشمسها دافئة، وبعيدة. أجابه جراي: تقول الغربان إن البشر قادمون من الغرب. وسيجلبون معهم الحرب والدمار، ولا يوجد بينهم أي شباب أو أطفال.

شعر باكس بخيبة أمل ما إن سمع ذلك، وتمايل جسده، وكاد يسقط من فوق الجذع.

قال له جراي: أنت بحاجة إلى الماء، اتبعني.

تردد باكس، فصديقه قد يأتي في أي وقت. لكنه كان في احتياج شديد للماء. قال: هل المكان قريب؟ وهل يمكنني سماع أي أصوات على الطريق من هناك؟

نعم، يمر النبع أسفل الطريق، فقط اتبعني.

أسلوب جراي الواثق الخالي من أي تهديد هدَّأ من روع باكس، لذا نهض وقفز على الفور ليتبعه.

وسرعان ما وصلا إلى شق عميق في الأرض، تصاعدت منه روائح الماء والكائنات التي تنمو في الطين الخصب. أطل باكس من فوق الحافة، ورأى جدولًا فضيًّا مرصعًا بالحجارة السوداء، يلمع بين القصب الأخضر والأزهار الأرجوانية. بدأ جراي الهبوط بحذر. وبعد أن جذبته رائحة الماء، انطلق باكس أمامه، واندفع نحو الشق، وفي منتصف الطريق، فقد توازنه وانزلق.

وعندما نهض، حدق إلى المكان من حوله، فوجد أن المياه تتدفق أمامه كما لو كانت تندفع من صنبور ضخم، أكبر كثيرًا من الصنبور الذي كان يصب الماء في الحوض الأبيض الكبير الذي يستحم فيه صديقه. غمس رأسه في الماء، فوجده باردًا، وكان طعمه يخالطه طعم النحاس والصنوبر والطحالب. تدفق الماء بفمه، فأعاده إلى الحياة. ثم تخلل بين أسنانه وغمر فمه وحلقه. ظل يشرب ويشرب، ولم يتوقف إلا عندما امتلأ بطنه.

انضم إليه جراي، وشرب، ثم دعا باكس للحصول على قسط من الراحة برفقته.

أمال باكس رأسه لينصت بتمعن إلى الطريق الذي لا يزال صامتًا فوق المجرى المائي. وقال بعدها: يجب أن أكون على الطريق عندما يأتي أصدقائي البشر من أجلي.

استلقى جراي على الأرض، ومدد جسده، وقال: لقد أغلق المتعطشون للحرب هذا الطريق أمس.

تذكر باكس السيارات التي مرت في اليوم السابق، تلك التي كانت تفوح منها رائحة تشبه ملابس والد الصبي الجديدة. صحيح أن الطريق لم يُستخدم منذ ذلك الحين. ولكن لا يهم. سوف يعود صديقي من أجلي.

لا، لقد أعلنت الغربان أن الطريق مغلق.

ظل باكس يتنقل من حجر إلى حجر، ويضرب بذيله وهو يفكر كأنه يحل لغزًا. وأخيرًا جاء الجواب: سأعود أنا لصديقي، لمنزلنا.

أين يقع منزلك؟

ظل باكس يلتفت حوله ليتأكد، مع أنه لم يكن هناك أي شيء يشتت انتباهه: انتابه شعور قوي بأن منزله يقع في هذا الاتجاه، الجنوب.

لم يفاجأ جراي عند سماعه ذلك، ورد عليه قائلًا: هناك مستعمرات بشرية واسعة هناك. عندما يصل المتعطشون للحرب إلى هنا، سيتعين على عائلتي أن تقترب من تلك المستعمرات، أو تتجه شمالًا إلى الجبال. أخبرني عن البشر هناك. وكيف يبدو العيش بجوارهم.

مرة أخرى، هدَّأ سلوك الثعلب العجوز من روع باكس الذي جلس وقال لقد رأيت الكثيرين منهم من بعيد، ولم أتعامل عن قرب سوى مع اثنين فقط.

هل هم كاذبون، مثل مَن أعرفهم؟

لم يفهم باكس كلامه.

نهض جراي، وبدا عليه الغضب، بعدها أخبره بالسلوك الذي رآه من البشر: إنسان يطرد جارًا يتضور جوعًا، ويتظاهر بأنه لا يوجد لديه أي طعام، بينما ثلاجته مليئة بالأطعمة. إنسان يتعامل بلامبالاة مع حيوانه الأليف الذي اختاره. إنسان يستدرج خروفاً من بين القطيع بصوت هادئ ثم يذبحه. فهل البشر الذين تعرفهم لا يفعلون ذلك؟

على الفور، تذكر باكس والد صديقه وهو يسحبه من السيارة، وكيف كانت نبرة صوته تدل على الأسف، لكن باكس أدرك أنه شعور مزيف بسبب رائحة الكذب التي كانت تفوح منه.

عاد إلى نبع المياه. فرأى التيار يتحرك فوق اثنتين من الحجارة، وانقسم نصفين، ثم اتحد مرة أخرى في شكل جديلة فضية سائلة. عند هذه اللحظة طرأت على ذهنه ذكرى صادمة.

بعد فترة قصيرة من إنقاذه على يد بيتر، وهو لا يزال رضيعًا، طرق شخص غريب الباب. وظل باكس يراقب من تحت الطاولة والد صديقه وهو يلقي التحية على امرأة ذات شعر مجدول فضي اللون ينسدل على إحدى كتفيها. ابتسم لها ابتسامة عريضة أظهرت كل أسنانه، ففهم باكس أن تلك الابتسامة تعني مرحبًا؛ أنا سعيد لرؤيتك؛ أتمنى أن تكون كل أمورك على ما يرام. ولكن بغض النظر عن هذه الابتسامة، كان جسد الرجل مشدودًا ومشحونًا بالغضب والخوف.

شعر باكس بالحيرة بسبب رؤية هذا الخوف - إذ لم تكن المرأة ضئيلة البنية الجسمانية تظهر شيئًا سوى اللطف والاهتمام. ثم أخذت تكرر الاسم الذي ربط باكس بينه وبين صديقه - بيتر - بنبرة يملؤها التوسل. وبقيت ابتسامة الرجل العريضة مرسومة على وجهه، لكن الغرفة امتلأت برائحة الخداع المريرة أثناء حديثه معها. فضلًا عن أن صدره امتلأ بالحنق والغضب وهو يغلق الباب بقوة في وجهها.

التفت باكس إلى الثعلب العجوز، وقال: لقد رأيتهم يفعلون ذلك، لكن ليس بيتر صديقي، بل والده.

بدا الثعلب العجوز كأنه تقدم أكثر في السن عندما سمع كلامه هذا. وبصعوبة شديدة، نهض وقال: هل ما زالوا لا يكترثون لشيء؟ لقد كانوا كذلك في الفترة التي عشتها معهم.

لا يكترثون لشيء؟

نعم، يحرثون الحقل، ويذبحون الفئران التي تعيش فيه دون سابق إنذار. يسدون النهر، ويتركون السمك ليموت. هل ما زالوا مهملين بهذه الطريقة؟

ذات مرة، عندما كان والد بيتر على وشك قطع شجرة، شاهد باكس بيتر وهو يتسلقها ليأخذ عشًّا وينقله إلى شجرة أخرى. وفي الأيام شديدة البرودة، كان يحضر قشًّا نظيفًا إلى قفص باكس. وقبل أن يتناول هو نفسه الطعام، كان يتأكد دائمًا من حصول باكس على الماء والطعام، لذا رد باكس: لا، صديقي ليس مهملًا.

شعر الثعلب العجوز بالارتياح حيال سماع ذلك، لكن للحظة فقط حيث أردف قائلًا: عندما تأتي الحرب، سيتصفون بالإهمال.

ما الحرب؟

صمت جراي، ثم قال: هناك مرض يصيب الثعالب في بعض الأحيان، ويجعلهم يتصرفون بطريقة غريبة، ويهاجمون الغرباء. إن الحرب مرض بشري أشبه بذلك يجعل البشر متعطشين للحرب.

قفز باكس وقال: المتعطشون للحرب - هل سيهاجمون صديقي؟

اندلعت الحرب في المكان الذي كنت أعيش فيه مع البشر، ودمرت كل شيء، الحرائق في كل مكان، والجثث، ليس فقط جثث المتعطشين للحرب، بل الكثير من الرجال، والأطفال، والأمهات، والشيوخ، وكذلك الحيوانات. الرجال الذين أصيبوا بهذا المرض جعلوا الفوضى تعم في كل مكان تطؤه أرجلهم.

هل هذه الأحداث نفسها آتية؟

رفع جراي رأسه، وصاح في حزن حتى صار الهواء من حوله محمَّلًا بهذه المشاعر. قال: غربًا، حيث تدور رحى الحرب بالفعل، وحيث يقتل البشر بعضهم بعضًا، تدمرت الأرض تمامًا. إن الغربان تحمل الأخبار، وقد ذكرت أن الأنهار سُدَّت، والأراضي احترقت وصارت جرداء، ولن ينمو فيها ولو الورد الجبلي. ماتت الأرانب، والثعابين، والعصافير، والفئران. . . قُتلت جميع المخلوقات.

قفز باكس واتجه نحو الطريق، على أمل العثور على صديقه قبل أن تأتي هذه الحرب.

لحق به جراي وهو يقول انتظر، سأسافر جنوبًا معك للبحث عن منزل جديد. فاتبعني أولًا.

أتبعك إلى المرج؟ لا، لقد حذرتني الثعلبة من العودة.

لن ترحب بك الثعلبة أبدًا، لأنك عشت مع البشر.

استعاد باكس بعد ذلك لمحة سريعة للمشهد نفسه الذي وصفته الثعلبة لشقيقها: ريح باردة عاتية؛ ثعلبان في حالة يرثى لها؛ مشابك فولاذية؛ ثلج ملطخ بالدماء. وفجأة يتوقف المشهد.

استطرد جراي قائلًا: لكنها ليست من يسيطر هنا، اتبعني. ولسوف نرتاح ونأكل، ثم نغادر الليلة.

8

بدا أكثر صوت أحبه بيتر في هذا العالم؛ صوت اصطدام جلد الكرة بجلد قفاز البيسبول - حقيقيًّا جدًّا في حلمه لدرجة أنه ابتسم وهو يفتح عينيه، ثم صرخ مصدومًا بعدها.

هناك امرأة تقف فوقه، وتقذف كرة البيسبول بإحدى يديها لتلقفها باليد الأخرى التي ترتدي القفاز. إنها ترتدي بدلة عمل مرقعة بقطع من أوشحة مختلفة، وتحرك شعرها الأشعث وهي تميل برأسها لتفحص بيتر من قرب.

اندفع إلى الوراء على طول ألواح الأرضية الخشبية الخشنة، وهو يصرخ مرة أخرى، هذه المرة بسبب الألم الذي يشعر به في رجله اليمنى والذي عاوده سريعًا. وفي حالة من الخوف الشديد، نظر حوله بحثًا عن حقيبته، فوجدها خلف هذه المرأة، ومحتوياتها متناثرة على الأرض.

اقتربت المرأة وضربت الكرة في القفاز بقوة أكبر.

أدرك بيتر أنها كرته وقفازه؛ الكرة التي كانت في حقيبته. والقفاز الذي كان ينام عليه. شعر بتوتر شديد ثم قال: «يا إلهي! هذه أغراضي، ماذا تفعلين هنا؟».

عند هذه اللحظة أمالت المرأة رأسها إلى الوراء وأصدرت صوتًا كان مزيجًا بين الضحك والزمجرة. وعلى الفور قذفت الكرة والقفاز بعيدًا، وجلست لتنظر إليه، وإحدى يديها قابضة على قلادة من الريش ترتديها حول رقبتها.

وبهذا القرب، رأى بيتر أنها ليست طاعنة في السن كما ظن. ليست أكبر كثيرًا من والده على أي حال. وكانت هناك خصلة واحدة في شعرها قد وخطها الشيب، لكنها تتمتع ببشرة ناعمة. وعندما ضيقت عينيها، ولمست وجهه بأصابعها، ظن أنها ربما تكون مجنونة.

أجابته قائلة: «لا، لا اصمت، هذه حظيرتي وأنت اقتحمتها، لذا دعني أنا أسأل: ’ماذا تفعل هنا؟‘».

زحف بيتر للوراء. سواء كانت تلك المرأة مجنونة أم لا، فهي تقف وخلفها جدار مليء بالفئوس والمناجل، أما هو، فبرجله المصابة هذه عاجز أيضًا عن الركض. لذا أجابها قائلًا: «معك حق. لقد آذيت رجلي الليلة الماضية. ومررت بحظيرتك لأنني كنت بحاجة إلى مكان لأنام فيه، لذا .... اسمعي، سأغادر حالًا».

«ليس بهذه السرعة. ماذا تقصد بقولك مررت بحظيرتي؟ هذه ملكية خاصة، وأنا هنا أقطن في العراء».

نهضت المرأة، وتراجع بيتر زاحفًا أكثر إلى الوراء.

«أنا .... كنت أسلك طريقًا مختصرًا إلى المنزل عائدًا من...». وفجأة تذكر التدريب الذي حضره اليوم السابق، لذا أشار إلى كرته وقفازه، وأردف قائلًا: «من تدريب البيسبول».

«هل مررت بأرضي وأنت عائد إلى المنزل بعد تمرين البيسبول؟ إذن أول شيء سوف أسألك عنه لماذا ليس لديك مضرب». ثم مررت يدها بين أغراضه، وقالت: «لماذا تحمل لفافة من الشريط اللاصق، وأكياس قمامة، وسوارًا ذهبيًا، وملابس، وطعامًا، وماء... لا أرى المضرب، أجبني يا فتى؟».

جعلته الطريقة التي نطقت بها كلمة «فتى» - بنبرة سلسة وعلى مقطعين - يدرك أنها متأثرة بلكنة معينة. إنه مجرد تأثر، كما لو كان في وقت ما من طفولتها، كان الناس من حولها يتحدثون لغة قريبة من الغناء.

«حسنًا، أنا.. . لقد تركته. المضرب ثقيل ولا يمكنني حمله».

هزت المرأة رأسها مرة أخرى، وبدت مشمئزة هذه المرة. رفعت الساق اليسرى من بنطالها لتكشف عن شيء غريب أسفل ركبتها؛ ساقها كانت عبارة عن عمود خشبي خشن، حركته بعنف، وقربته من بيتر قائلة: «والآن، انظر لهذه الساق. أوه، إنها ثقيلة يا فتى. فهي مصنوعة من خشب الصنوبر الصلب. ومع ذلك أحملها معي كما ترى، أليس كذلك؟».

نظرت المرأة لساقها، وبدا أنها رأت شيئًا لم يعجبها على الإطلاق. سحبت سكينًا من حزامها، وبحركة سريعة من معصمها، أزالت شقًّا من المكان الذي من المفترض أنه يمثل كاحلها. ثم استقامت لتواجه بيتر مرة أخرى، موجهة السكين نحوه مباشرة وهي تقول: «إذن دعنا نحاول مرة أخرى، لأنني أشعر بالفضول الآن: كيف ذهبت لتمرين البيسبول من دون المضرب؟».

حدق بيتر إلى وجهها، ثم عاد لينظر إلى السكين ذات النصل الطويل اللامع المنحني عند الطرف بشكل مخيف. ربما كانت هذه المرأة مجنونة، وربما أسوأ. خفق قلبه بشدة، وهربت الكلمات من على طرف لسانه، لكنه تمكن أخيرًا من الإجابة قائلًا: «أنا لا أملك مضربًا».

ابتسمت المرأة نصف ابتسامة، وغمزت بسرعة: «هذه إجابة أفضل، أشعر بأنها تحمل شيئًا من الحقيقة. ما اسمك؟».

أخبرها بأن اسمه بيتر.

«حسنا يا بيتر ليس معك مضرب، فماذا بشأن رجلك؟».

أبقى بيتر عينيه على السكين وهو ينزع سترته بعيدًا عن رجله. وقد صدمه الألم الناجم عن تلك الحركة الطفيفة، لدرجة أن جسده ظل يرتجف دقائق، وأدرك للمرة الأولى مدى برودته. أجابها قائلًا: «لقد التوت».

جلست المرأة بجواره، فمالت ساقها الخشبية بشكل غريب. وأدار بيتر وجهه محاولًا أن يبتعد، فقالت له:

«لا تتحرك».

وقبل أن يتمكن من استيعاب ما يحدث، أدخلت المرأة نصل سكينها البارد في جوربه، وبضربة سريعة مزقته نصفين. وأطبق شفتيه بإحكام ليمنع نفسه من البكاء. يا إلهي، كانت رجله قاتمة اللون ومنتفخة مثل ثمرة الباذنجان.

سألته: «هل مشيت وهي هكذا؟».

أشار بيتر إلى الفرع الذي بجانبه، وقال: «لقد قطعته واستخدمته عكازًا». كان إصبعه يرتجف وعلى الفور أسقط يده.

أومأت المرأة مرة أخرى، ثم وضعت يديها حول عقبه وحذرته قائلة: «سأحاول تحريكها، هل أنت مستعد؟».

«كلا، لا تلمسيها».

لكن المرأة لم تكترث بكلامه، وبدأت تفحص رجله، وتوجه له الأوامر: «حرك إصبع رجلك الكبير، والآن حرك كل أصابعك، حرك رجلك يمينًا ويسارًا». ارتجف بيتر من الألم، لكنه امتثل لأوامرها.

قالت وهي تضع رجل بيتر على سترته: «يا لك من محظوظ، إنه كسر غير مضاعف في العظمة الخامسة من مشط الرجل. مجرد كسر بسيط في العظم الخارجي للرجل».

«محظوظ؟ كيف أكون محظوظًا وقد كسرت رجلي؟».

مالت المرأة إلى الخلف، وضربت بساقها الخشبية بالقرب من يده، ثم طعنت تلك الساق بالسكين، وقالت: «أوه، لا أعرف ... دعنا نرَ ... كيف يمكن أن تكون محظوظًا وقد كسرت رجلك...».

«حسنًا، حسنًا، فهمت. آسف».

سحبت السكين من ساقها ووجهتها نحوه: «أنت صغير في السن، ربما ستبقى في الجبيرة مدة ستة أسابيع، بعدها ستتعافى وتكون على ما يرام».

«كيف عرفت ذلك؟ هل أنت طبيبة أو شيء من هذا القبيل؟».

أجابت: «نعم، كنت طبيبة في حياة أخرى». بعدها نهضت ونظرت إليه نظرة من فهم وأدرك الحقيقة، وقالت: «أنت هارب». بعدها عقدت ذراعيها على صدرها، وأمالت رأسها نحوه، وأضافت: «نعم تلك هي الحقيقة. هل تهرب؟».

«لا، لا، لقد خرجت فقط ... في جولة ليس أكثر».

صفقت بيديها على أذنيها، وعبست قائلة: «أنا آسفة، لم أتمكن من سماعك. كان جهاز كشف الكذب الخاص بي ينذر بالخطر. حاول مرة أخرى: هل أنت هارب من منزلك؟».

تنهد بيتر: «ليس بالضبط».

«إذن، لماذا مررت بأرضي الليلة الماضية، وماذا كنت تفعل بملابسك الإضافية، وأغراضك الكثيرة التي لا تحتوي على مضرب يا بيتر؟».

«حسنًا، أنا لا أهرب من المنزل، أنا أهرب إلى المنزل».

«أوه، مفاجأة غير متوقعة، أكمل كلامك».

نظر بيتر من النافذة فوق طاولة العمل، فرأى أشجار الصنوبر الطويلة وهي تشق طريقها نحو سماء الصباح الشاحبة، وسمع مجموعة من الغربان وهي تنعق عاليًا من موقعها أعلى فروع هذه الأشجار. لو أن هناك قصة يمكنه أن يرويها ليخرج من هذه الحظيرة، ويعود إلى الطريق المؤدي إلى باكس، لسردها وانتهى، فهو يريد أن يخرج من هذا المأزق، ويمضي في طريقه برجله المكسورة، وكل ما يحيط به من تفاصيل. ولكن إذا كانت مثل هذه القصة موجودة، فهو لا يستطيع أن يفكر ولو في أحداثها. استند إلى الحائط، وقال: «الحرب. إنها آتية باتجاه مدينتنا، سوف يسيطرون على النهر. وكان على والدي أن يذهب لتأدية الواجب. إن والدتي متوفاة وليس لي سواه، لذا أحضرني ...».

«كم عمر والدك هذا؟».

«عفوًا! إنه في السادسة والثلاثين، لماذا؟».

«هذا يعني أنه لم يكن مجبرًا على فعل أي شيء. إن التجنيد الإجباري يكون لمن تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وعشرين عامًا، لأن صغار السن يسهل غسل أدمغتهم. من ثم إذا كان والدك قد ذهب، فإنه فعل ذلك بمحض إرادته. لقد كان اختياره. فلنبدأ هذه القصة من جديد بقول الحقيقة. إن هذه هي القاعدة هنا اتفقنا».

«حسنًا، بالتأكيد. لقد اختار الذهاب. وأحضرني إلى منزل جدي، و...».

«ولم يعجبك الوضع هناك».

«ليس بالضبط. كل ما هنالك ... أوه هل يمكنك وضع السكين جانبًا؟».

نظرت المرأة ليدها، واندهشت عندما رأت السكين، ثم وبخت نفسها قائلة: «ما هذه التصرفات السيئة يا فولا لقد نسيت كيفية التعامل مع الضيوف». وألقت السكين على

طاولة العمل، وأردفت: «أكمل حديثك».

«حسنا، كان لدي ثعلب، أقصر أنه لدي بالفعل ثعلب. لقد أطلقنا سراحه؛ تركناه على جانب الطريق. وقال والدي إنه يجب علينا القيام بذلك، لكن لم يكن ينبغي لي أن أسمع كلامه قط».

منذ اللحظة التي غادراه فيها، ظل بيتر يتعذب بسبب ما يضمره في أعماق نفسه من كلمات كان من المفترض أن يصرح بها لأبيه. وقد طفت هذه الكلمات الآن وحاصرته من كل اتجاه: «لقد ربيته منذ كان رضيعًا، وهو يثق بي، لن يعرف كيف يعيش في الخارج. إنه ليس ’مجرد ثعلب‘ - هكذا كان يسميه والدي، ’مجرد ثعلب‘ كما لو أنه ليس مهمًّا كالكلب أو أي حيوان أليف آخر».

«فهمت، بالطبع أثار ذلك غضبك فهربت».

«لم أغضب. أنا لست غاضبًا. وكل ما في الأمر أنه ثعلبي الذي يعتمد عليَّ في كل شيء، سأعود وأحضره».

«عذرًا، لن تستطيع الذهاب الآن، فقد حدث تغيير في الخطة».

«لا. يجب أن أُحضره وأعود به إلى المنزل». جثا بيتر على ركبتيه، وقمع إحساسه بالألم النابع من رجله، وأمسك بالغصن، وجرب أن يستند إليه ثانية، لكنه انهار وسقط مرهقًا من مجرد المحاولة.

«ما رأيك الآن؟ هل ما زلت تعتقد أنك يمكنك الذهاب؟ وأين تركت ثعلبك هذا؟».

أجاب بيتر: «على بعد 300 كيلومتر، أو أكثر».

قالت فولا في ضجر: «لن تقدر وأنت بهذه الحالة على قطع مسافة 3 كيلومترات، فلن تكون سوى وجبة لدب، هذا إذا لم تمت منذ أول ليلة بسبب انخفاض درجة حرارة جسمك؛ لأنك

لن تقدر على التحرك بما يكفي لتدفئة نفسك».

استندت إلى طاولة العمل، وأخذت تلف وشاحها حول إصبعها، فأدرك بيتر أنها تفكر في شيء ما. ولم تبدُ مجنونة الآن، بل كانت تفكر بتركيز شديد. وربما تكون قلقة، وفجأة بدا أنها توصلت لقرار ما.

«من المؤكد أن شخصًا ما سيأتي للبحث عنك، ولا يمكنني السماح لك بالبقاء هنا، بل يجب أن تذهب. لكنني لا أستطيع طردك وأنت في هذه الحالة، إن ضميري لا يسمح لي. ومن ثم سوف أربط رجلك وأعطيك دواء لتخفيف الألم، دواء مسموحًا به للأطفال، وبعد ذلك...».

«أنا لست طفلًا. عمري ثلاثة عشر عامًا تقريبًا».

هزت فولا كتفيها وقالت: «وبعد ذلك سوف تغادر. يوجد مرأب على مقربة من الطريق السريع. اتصل بجدك هذا، واطلب منه أن يأتي ليصحبك».

«لن أعود. سأذهب للعثور على ثعلبي».

«ليس الآن، حالتك لا تسمح. لا يمكنك الوقوف على رجلك المكسورة هذه حتى تشفى العظام، أمامك ستة أسابيع على الأقل. وربما يمكنك أن تحاول مرة أخرى بعد ذلك».

«ستة أسابيع؟ لا، سيكون قد فات الأوان. ثعلبي ...».

«تذكر، يا فتى، إنني على دراية إلى حد ما بمشقة السفر بساق واحدة. فللتجول قبل أن تشفى عظام رجلك، عليك أن تتعلم كيفية الاعتماد في حركتك على كتفيك وذراعيك. ويجب أن تكتسب قوة من نوع خاص. وهذا أمر شبه مستحيل بالنسبة لشخص بالغ، ناهيك بطفل...».

«أنا لست طفلًا».

رفعت فولا يدها لتُسكته: «لذلك سوف تعود الآن، وتعالج ساقك المكسورة، ولكنني سأضمدها لك أولًا، وأعطيك شيئًا أفضل من ذلك الغصن لتمشي به». وبسرعة دفعت فولا نفسها بعيدًا عن طاولة العمل، وغادرت الحظيرة.

شاهدها بيتر وهي تختفي في طريق محاط بأشجار الصنوبر، كانت تعرج في مشيتها بطريقة توحي بتحملها الكثير من الألم. زحف على الأرض، وأعاد أمتعته إلى حقيبته. بعدها استند إلى طاولة العمل ليقف، على الفور أصابه ما بذل به من جهد بالدوار، فاضطر لأن يتشبث بخشب الطاولة حتى يستجمع قواه. ظلت رجله تنبض بقوة من شدة الألم أثناء وقوفه، وعند هذه اللحظة أدرك أنه لن يتمكن من المشي عليها. لكن فولا ستضمدها، وعلى الأرجح سيتمكن من المشي عليها بعد ذلك، لا مفر من هذا.

رفع نفسه وجلس على الطاولة في انتظار فولا.

لم يتمكن من رؤية تفاصيل الحظيرة في الليلة السابقة، حتى باستخدام المصباح اليدوي. والآن يمكنه رؤية كل شيء فيها؛ الأرض نظيفة تمامًا، وهناك أكياس من البذور والأسمدة متراصة بعناية بجوار الباب. وتفوح من المكان رائحة التبن والخشب النظيف، وليس رائحة الحيوانات، على الرغم من سماعه أصوات الدجاج في مكان قريب.

شغلت طاولة العمل مساحة جدار كامل من الجدران مثلثية الشكل. وكانت مليئة بأدوات صغيرة وقطع من الخشب. وفي مقابلها ظلام يعترض مستطيل النور الآتي من المدخل، وعلى هذا الجانب رأى قماشًا من الخيش يغطي مجموعة من الأشياء المعلقة على الحائط.

ارتجف جسده وارتعش مرة أخرى، ولكن هذه المرة ليس بسبب البرد؛ بل الأشياء المغطاة كانت على شكل رءوس بشرية. ويمكن أن يعلّق على جدار الحظيرة عدد لا حصر له من الأغراض الآمنة تمامًا، لكن هذه ليست أغراضًا، إنها تبدو حقًّا رءوسًا بشرية.

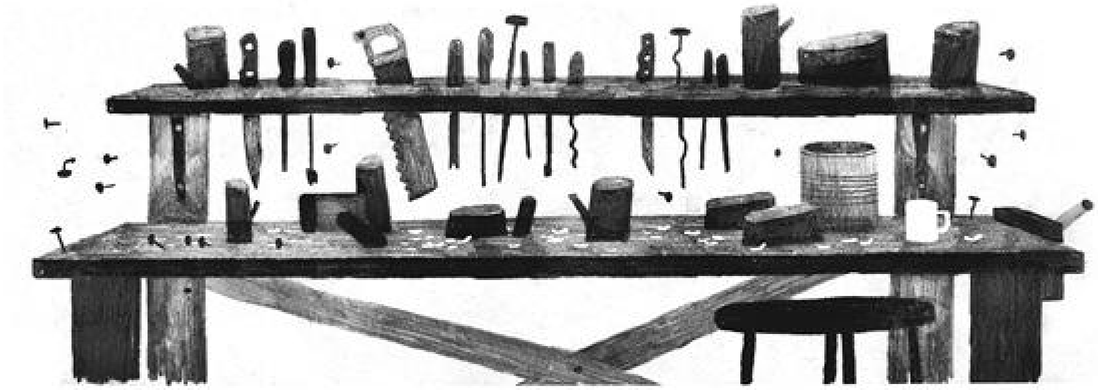

جف حلقه، وبدأ قلبه يخفق بقوة. لقد كان غبيًا ومهملًا. وعلى الأرجح ستتركه هذه المرأة المجنونة يرحل - نعم، فلماذا ستمنعه من الرحيل؟ - لكن هناك احتمالًا ألا تسمح له بذلك. وجد السكين التي تركتها، فأحكم قبضته عليها. وبالطبع ستكون لفولا اليد العليا في كل ما سيحدث بينهما، لكن هذا لا يعني أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه. أدخل السكين في جيبه عندما ظهرت عند المدخل.

أعطته كوبًا، وقالت: «اشرب هذا». ووضعت وعاء بجانبه. ومن ثم قرب الكوب من أنفه ليشم ما به.

«عصير تفاح يحتوي على القليل من لحاء الصفصاف، اشربه كله».

«لحاء الصفصاف؟»

«نعم إنه أسبرين البرية».

وضع بيتر الكوب جانبًا. لم يكن ليتناول مشروبًا أعدته امرأة مجنونة مثل تلك التي تحدق إليه الآن.

«كما تريد». أمسكت فولا بالوعاء، وبدأت تحريك المعجون الأخضر داخله بإصبعها.

«ما هذا؟».

«وصفة طبية مكونة من زهرة الأرنيكا لعلاج الكدمات، وعشب السنفيتون لعلاج العظم المكسور». ثم أشارت له كي يسند رجله إلى الطاولة.

وبينما كانت تدهن هذا المعجون على بشرته الملتهبة المشدودة شعر ببرودة وقدر من الارتياح يتسللان لجسده. وقامت بفك المنديل المربوط على حزام بدلة العمل وربطته حول رجله، ثم ربطت وشاحًا آخر فوقه لمزيد من الحماية. وبعدها نهضت ومسحت يديها في ملابسها، وسألته: «كم يبلغ طولك؟».

«نحو 160 سنتيمترًا، لماذا؟».

لم تجب عن سؤاله، وأخذت تبحث في كومة من الخشب حتى عثرت على بعض الأخشاب الطويلة السميكة، واتجهت نحو المنشار، وبدأت قطعها إلى لوحين متساويين في الطول. كانت رائحة الخشب المقطوع منعشة ونظيفة. وبينما كانت تثبت قطعة خشب قصيرة أعلى كل لوح طويل، فهم بيتر الأمر؛ إنها تصنع له عكازين. وفي هذه اللحظة، أصبحت السكين التي سرقها أثقل على فخذه.

في غضون دقائق قليلة، تمكنت فولا من تثبيت القطعتين العلويتين على مسندي اليد. بعدها قامت بقياس العكازين عليه، ثم نشرت بضعة سنتيمترات من أسفلهما.

بعدها أخرجت إطارًا قديمًا من ركن الحظيرة، ومضت باتجاه طاولة العمل لتقيس طوله. وقد احمر خدا بيتر عندما التفتت لتنظر إليه.

سألته بنبرة توحي بالخطر: «هل أخذت سكيني؟» تغيرت نبرة صوتها بشكل يوحي بأنها صارت نارًا مشتعلة يمكن أن تلتهم كل ما حولها في لحظة.

شعر بيتر بالدوار، وبدأ قلبه يخفق مرة أخرى. ثم أخرج السكين، وسلمها إياها.

«لماذا أخذتها؟».

ابتلع ريقه بصعوبة، وضاعت الكلمات من على طرف لسانه.

«أجبني، لماذا؟».

«لأن ... حسنًا؛ لأنني كنت خائفًا من أن تقتليني».

نظرت إليه بحدة: «أقتلك؟ ماذا؟ هل لأنني أعيش في الغابة، يصبح من المفترض أن أكون قاتلة؟».

أشار إلى الجدار المعلق عليه الكثير من الأدوات الحادة.

«أدواتي؟ لديَّ عشرون فدانًا من الأشجار لأعتني بها. وأنا نحاتة خشب. فهل ظننت أنها أسلحة؟».

أشاح بيتر بوجهه بعيدًا، في خجل.

«انظر إليَّ يا فتى».

فاستدار لينظر إليها.

قالت وهي تنظر مباشرة في عينيه: «ربما لم تكن مخطئًا. ربما رأيت شيئًا ما. ربما أكون ...» - رفعت يديها ببطء، وقبضتهما بإحكام أمام وجه بيتر، ثم فتحتهما فجأة - «بوووووم. ربما أكون خطيرة، وأفعل شيئًا كهذا ... دون تحذير».

انتفض بيتر قائلًا: «لا، أنا آسف. كنت مخطئًا».

لوحت فولا بيدها في وجهه، ثم ابتعدت عنه. قطعت أربعة شرائط مطاطية من الإطار، ثم لفتها حول قمتي العكازين ومقبضيهما وثبتتها ببعض الخيوط دون أن تنبس ببنت شفة.

وأخيرًا قدمت له العكازين.

وضع بيتر كلًّا منهما تحت ذراعيه، ثم وقف على الأرض. يا له من شعور مريح أن يقف منتصبًا ومتوازنًا، مع تثبيت رجله المصابة بأمان لمنعها من الاحتكاك بالأرض.

«حاول أن تستند إلى راحتي يديك. بعدها ارفع نفسك؛ لا تتصرف كأنك معلق على العكازين، بل اغرسهما في الأرض، ثم تحرك متكئًا عليهما».

بدأ بيتر يشكرها، لكنها قاطعته مرة أخرى قائلة: «في نهاية طريقي هذا يوجد الطريق السريع. اتجه يسارًا، وعلى بعد نحو ربع كيلومتر ستصل إلى محطة الوقود، وما إن تصل إلى هناك حاول العثور على حل لمشكلتك». ثم ساعدته حمل حقيبة ظهره، ثم استدارت بعيدًا، والتقطت قطعة من الخشب، وبدأت تحويلها إلى شرائح كما لو أنه غادر الحظيرة.

حاول بيتر أن يخطو خطوة نحو الباب، فتمايل قليلًا لحظة.

قالت فولا دون أن ترفع عينيها: «هذه قفزة، قلت لك تحرك ببطء مستندًا إلى العكازين، والآن اخرج من هنا».

للحظة لم يتحرك بيتر، فهو لا يعرف إلى أين سيتجه؛ لكنه بالتأكيد لن يعود إلى منزل جده. ومن ثم التفتت فولا ومالت نحوه، وقبضت يديها، ثم أطلقتهما في وجهه، وصاحت قائلة: «اذهب قبل أن أؤذيك».

9

ما إن اقترب جراي من المرج الأخضر عند أطراف الغابة، حتى توقف فجأة ورفع أنفه في الهواء، يبدو أنه يشم رائحة معينة، ومرة أخرى، رفع أنفه ليستكشف الرائحة بدقة، لقد صارت أقوى الآن.

شعر باكس، الذي يبدو عليه التردد، بتوتر شديد.

انطلق جراي مسرعًا نحو الحافة المليئة بالأشجار، وقال: ثمة ثعلب واحد يتحداني ليسيطر على هذه المنطقة، لكن ظهوره سيفيد الثعلبة الشابة على أية حال، فهي ستختار زوجًا هذا الشتاء.

تبعه باكس، ورأى في الأسفل هذا المشهد، أربعة ثعالب منتشرة في المرج، بريسل ورانت يقفان معًا في جانب وأذنا كل واحد منهما ذواتا الأطراف السوداء منتفختان ومائلتان للأمام تجاه الثعلبين الآخرين، اللذين كانا يجلس كل منهما في مواجهة الآخر على حافة صخرية، وأحد هذين الثعلبين أنثى ذات فرو أكثر قتامة من فرو بريسل، وقد عكس كِبَر حجم بطنها ما تحمله من صغار في أحشائها. والآخر كان ذكرًا كبيرًا ذا فرو خشن لونه أصفر مائل للبني، وشعيرات فروه منتصبة مع وجود شق في أذنه اليسرى.

صاح جراي ليعلن عن وجوده. فتحرك الثعلب المتحدي عن حافة الصخرة، وتناثرت الدماء من أذنه على شكل قوس، وبسرعة اندفع نحو المرج الأخضر.

شق جراي طريقه إلى أسفل التل، وتبعه باكس. وعندما مر جراي بـبريسل ورانت، بدا أن وجوده قد هدأ من روعهما، وكأنه يد خفية حنون قد ربتت كتفيهما. وبمجرد مروره من جانبهما، رقص رانت فرحًا برؤية باكس، لكن بريسل لوت شفتيها، وأصدرت صوتًا ينم عن الغضب.

أسرع باكس ولحق بجراي - الذي صعد إلى حافة الصخرة بجانب زوجته - وما إن وصل للصخرة جلس عليها بهدوء واحترام، بينما كانت الزوجة تستقبل زوجها وتلقي عليه التحية، وتشاركه بعض الأخبار، إذ قالت: رياح هذا الصباح كانت آتية من الغرب، وقد جلبت معها رائحة النار. يجب أن نتحرك في أسرع وقت. بعدها نظرت إلى باكس، وأردفت: هذا الغريب يحمل رائحة البشر.

اقتربت بريسل وشقيقها، ووجَّه كل منهما أذنيه نحو جراي في انتظار رد فعله. قال جراي: إنه يبحث عن البشر الذين عاش معهم في الجنوب. سأسافر معه للبحث عن مكان مناسب ليبدأ منه رحلة البحث. سوف أرتاح أنا وهو الآن، ونغادر الليلة.

من خلفه، زمجرت بريسل مرة أخرى وشعر باكس بالرغبة في الركض، فهو لا يريد أي شيء سوى صديقه - لا يتمنى أي شيء سوى العثور عليه، لكن غريزته أخبرته بأنه يحتاج إلى الراحة والطعام أولًا، لذا أومأ برأسه في إشارة إلى موافقته، بعدها تسلل جراي وزوجته بهدوء نحو المرج الأخضر.

تدحرج رانت واصطدم بباكس، وأسقط الجندي الدمية من فمه، ودعا باكس للعب. قفزت بريسل بينهما، ودفعت الدمية بعيدًا قائلة: البشر، تذكر أنهم خطر.

استعاد رانت الدمية، وأطبق عليها أسنانه متحديًا.

شعر باكس بأن رانت أصبح الآن في ورطة أكبر من ذي قبل، وبأنه هو السبب في كل ذلك. فكثيرًا ما كان يمر بمواقف مشابهة مع بيتر ووالده، وكانت إحدى إستراتيجياته هي الاختفاء، إذا رأى أن ذلك سيحمي صديقه من غضب هذا الرجل؛ لذا قرر الآن أن يتراجع على الفور، لكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لبريسل.

على الفور حذرت شقيقها قائلة: ابتعد عن هذا الثعلب الذي تفوح منه رائحة البشر، وتذكر أن كل ما يتصل بهم خطر.

اقترب باكس منهما خطوة، وقال: البشر الذين عشت معهم ليسوا خطرين.

بدا رانت منزعجًا مما سمع، كما لو أن باكس قد وجَّه له تحديًا. ثم انطلق نحو أعلى التل باتجاه مدخل جحره، لكن شقيقته كانت أسرع منه، فاعترضت طريقه، وعندما حاول التسلل بعيدًا في اتجاه آخر، أمسكت به بكل قوتها حتى استسلم في النهاية.

قالت: كل البشر خطرون...

ارتعش فرو باكس في رد فعل تجاه المشهد الذي استحضرته بريسل حينها: رياح، وبرد، وعويل، وخطر، وثلوج تتساقط. علم باكس عن أي رياح تتحدث - القصة التي كانت على وشك روايتها ستنتهي بمشهد الدماء التي تلطخ الثلج، والمشابك الفولاذية.

كشرت بريسل عن أنيابها في وجه باكس، وبدأت رواية قصتها.

10

بينما كان يسير في تؤدة مستندًا إلى الجدار حيث رأى الغزلان، توقف بيتر.

تصبب عرقًا حينما رأى بعض الدماء التي سالت نتيجة حك يده في شق خشبي مسنن، ما أدى إلى جرح بشرته الرقيقة أسفل إبهامه. ثم شعر بأن ذراعيه ترتجفان لتحملهما ثقل وزنه على مدار هذه الدقائق البسيطة، كما تورمت راحتا يديه بالفعل بسبب الإمساك بإحكام بالمقبضين المطاطيين، فضلًا عن أن الخفقان في رجله اليمنى بات قويًّا وشديدًا كدوي الرعد، لكن الخطأ الذي اقترفه لم يكن يكمن في أي من ذلك، ولا في احتمال العودة إلى منزل جده الكئيب.

المشكلة الحقيقية أنه كان يسير في الاتجاه الخطأ.

ظل يترنح ويتحرك بصعوبة، ويطعن الأرض بعكازيه، ويتأرجح فوقها، حتى وصل أخيرًا إلى مدخل حظيرة فولا مرة أخرى. استقام وقال: «لا، لن أذهب».

رفعت فولا رأسها بسرعة ورمقته بنظرة تنم عن التحذير والوعيد، لكن بيتر قرأ على وجهها تعبيرًا يدل على شيء مختلف: شعور بالخوف.

قال بحزم: «لن أعود لجدي، سواء ساعدتِني أم لا، بل سأعثر على ثعلبي».

«أساعدك كيف؟».

تحرك بيتر نحو طاولة العمل، ودفع نفسه للجلوس عليها، بعدها قال: «علِّميني. أتذكرين حديثك عن التحرك معتمدًا على ذراعيَّ، وعن التحلي بالقوة. لقد تعلمت كيفية التجول بساق واحدة، فمن فضلك علميني تلك المهارة. كما أنك كنت تعملين طبيبة، وبالفعل تمكنت من علاج رجلي. أرجوك، سأفعل كل ما تطلبينه مني». التقط عصير التفاح وشربه ليُبدي مدى ثقته بها، وأردف قائلًا: «بعدها سأغادر، ولكن حتى لو لم تساعديني، فسوف أذهب لأعثر عليه».

وضعت يديها على خصرها، وخفضت رأسها لتحدق إليه، ثم قالت: «نتحدث عن ثعلب مروض أُطلق في البرية، أنت تعلم أنه ربما يكون ميتًا الآن، أليس كذلك؟».

«أعلم ذلك، وسيكون هذا خطئي. فلو أنه مات، يجب أن أعيده إلى المنزل وأدفنه. ومن ثم في كلتا الحالتين، سأذهب للبحث عنه وإعادته إلى المنزل».

أمعنت النظر فيه كأنها تراه لأول مرة، وقالت: «أخبرني بالحقيقة من فضلك، أنت عائد لمنزلك أم في طريقك للبحث عن حيوانك الأليف».

أجاب بيتر: «إنهما وجهان لعملة واحدة». لقد جاء الرد سريعًا وحازمًا ومفاجئًا بالنسبة له.

«وهل ستفعل هذا بغض النظر عن أي محاولات لمنعك؟ بالطبع لأنك تؤمن في أعماق قلبك بأن هذا هو التصرف الصحيح الواجب عليك القيام به؟» قبضت فولا يدها، ولكمت صدرها، وقالت: «هنا في أعماق قلبك، أليس كذلك؟».

انتظر بيتر قبل أن يجيب، فهذه المرأة - التي ربما تكون مجنونة، وربما لا - طرحت أسئلتها عليه كأن مصير العالم يتوقف على إجابته. لكن الجواب سيظل واحدًا سواء أسرع في إخبارها به، أو انتظر عمرًا كاملًا للتفكير فيه. وضع يده على صدره، وشعر بعضلة قلبه وهي

تنبض بقوة وتكاد تقفز من بين ضلوعه، وقال: «معك حق، ففي الحقيقة، بأعماق قلبي لا أؤمن بأي شيء آخر سوى هذا الهدف».

أومأت وقالت: «حسنًا، أنت في الثانية عشرة من عمرك، ما يعني أنك تعرف جيدًا ما تريده، حسبما أظن؛ لذا لن أضيع وقتي في مناقشة هذه النقطة. لا بأس».

«هل يعني ذلك أنك ستساعدينني؟».

مدت فولا يدها لتصافحه، وقالت: «سوف أساعدك، لكن لديَّ ثلاثة شروط».

11

في ثاني حمل لأمي أنجبت شقيقي رانت وعددًا من الجِراء في بداية موسم الشتاء. وفي هذا العام، جاء الربيع متأخرًا، وظلت الثلوج تتساقط ولم تذب، وبقيت الأرض متجمدة تحت الجِراء. وقد حرصت على أن أظل دومًا قريبة من أمي وأبي لأساعد في عمليات الصيد. إذ كنت أبحث طوال اليوم أنا ووالداي عن الطعام؛ لأن الجراء كانت تشعر بالجوع طوال الوقت، غير أنه لم يكن هناك ما يكفي على الإطلاق.

توفي اثنان منهما في اليوم نفسه. وفكرت والدتنا في الذهاب للمزرعة، وحثت والدنا على ذلك، ففي مزرعة البشر، هناك دائمًا فئران سمينة في الحظيرة الدافئة وبيض الدجاج.

غير أن والدنا لم يكن ليخاطر أبدًا بالذهاب إلى هناك.

وعندما أصيب صغيرها الثالث بالضعف والوهن، ولم يقوَ كذلك على الوقوف، تحدث أمي والدنا.

رفع رانت رأسه، ونظر لبريسل في توسل.

لكنها تجاهلت نظرته هذه، واستطردت قائلة: اصطحبتني أنا وأقوى صغارها - أختي - إلى مزرعة البشر.

اقترب رانت أكثر، وضغط بأنفه على كتف باكس. على الفور ضربت الثعلبة خده، ومع أن باكس لاحظ أنها لم تستخدم مخالبها، فقد سقط رانت على الأرض.

كانت الأرض المحيطة بالحظيرة خالية من الثلوج بفعل العديد من آثار الأرجل، سواء كانت آثار أرجل بشر أو حيوانات. وكان الهواء مشبع برائحة القوارض. توجهت والدتنا نحو شق في الألواح الخشبية بالقرب من أرضية الحظيرة، وكنا نتبعها على بعد مسافة تقدر بذيل مثلًا. وقبل أن تصل إلى الشق مباشرة، انبثقت مشابك معدنية من الأرض بسرعة شديدة لدرجة أنها عصفت بالهواء من حولها. صرخت والدتنا؛ لأن أحد هذه المشابك قبض على ساقها الأمامية. وكلما حاولت الهرب، كان المشبك يصيبها بجرح أعمق. بدأت تعض ساقها لتحريرها، وفي كل مرة حاولنا الاقتراب، كانت تأمرنا بالابتعاد.

وفجأة ظهر والدنا، يبدو أنه تتبع آثار أرجلنا، أمسك بي أنا وشقيقتي ووضعنا بالقرب من بعض الأشجار، وأمرنا بالبقاء هناك. ثم شرع في مساعدة والدتنا.

المشهد الذي وصفته كان لثعلبين يربطهما حب قديم وخوف جديد؛ خوف رهيب للغاية لدرجة أن عيونهما كانت تتقلب في محاجرها، تخيل باكس المشهد كأنه يجري أمامه، لدرجة أنه شم رائحة الخوف القوية من حوله.

بدأ رانت يئن، وهو صوت مثير للشفقة جعل باكس يرغب في تهدئته؛ لكن بريسل حذرته من الاقتراب منه.

بعد ذلك ظهر إنسان وبيده عصا. صرخ والدانا في وجهينا لكي نعود إلى المنزل. لكننا بقينا ورأينا ما حدث. رفع الإنسان العصا، وأمام أعيننا انفجرت الدماء من جسد والدنا ووالدتنا، وتناثرت عظامهما وأجزاء من فرو كل منهما فوق الثلج.

انتحب رانت، واتجه نحو الجحر مرة أخرى، لكن بريسل أوقفته للمرة الثانية.

لم أستطع أنا وأختي المغادرة وترك جثتي والدينا. حل الظلام، وجاء اليوم التالي، بقينا نختبئ وسط كومة من الخشب بجانب الحظيرة. وفي النهاية قررنا التحرك، ولكن في تلك الليلة التي انطلقنا فيها بدأ الثلج يتساقط وحجب كل الأصوات والروائح. وتحت تأثير الشعور بالضياع زحفنا تحت أغصان الصنوبر الكثيفة، وأحطت شقيقتي التي كانت أصغر مني كثيرًا بجسدي. وفي الصباح اكتشفت أنها قد فارقت الحياة. وعندما توقف الثلج، رأيت أننا احتمينا بشجرة الصنوبر الكبيرة الموجودة أعلى سلسلة التلال القريبة من منزلنا. لقد كنا على مقربة من المنزل.

أصابتها الصورة المرعبة التي وصفتها في هذه اللحظة وما تحتويه من جثة شقيقتها المتجمدة عند قاعدة شجرة الصنوبر الضخمة، بإرهاق شديد، فقالت على الفور: لماذا ليست لدينا عائلة يا أخي؟

التفت رانت إلى باكس قائلًا: بسبب البشر، هم السبب في خسارتنا عائلتنا.

التفتت بريسل لباكس، ونظرت له بعينيها الذهبيتين، في تحدٍّ صريح.

لو كان الوقت مناسبًا، لأخبرها بكل ما حظي به يوميًا من عطف وحب على يد صديقه. لكن مشاعر الكراهية التي كانت تضمرها للبشر كانت عميقة، ولكنها عادلة في الوقت ذاته؛ لذا بدلًا من الشرح والتوضيح أعرب عن تعاطفه وتأثره. ثم استدارت بريسل، وأمرت شقيقها بالتوجه نحو الجحر.

12

«**هل** ستدخل، أم أنني سأبقي الباب مفتوحًا أمام الذباب فحسب؟».

ألقى بيتر حقيبته، وحاول أن يقف متوازنًا، وهو يستند إلى العكازين محدقًا إلى الكوخ الخشبي وهو يقول: «نمت هذه الأشجار هناك».

لم تكن عبارة استفهامية، لكن فولا أومأت برأسها، وأشارت إلى أعلى التل قائلة: «إن شجرة التنوب نمت على قمة تلال ماسون ريدج. وتذكرك هذه الجذوع بلعبة لينكون لوجز، هذا ما تفكر فيه، أليس كذلك؟».

«نوعًا ما». لكن لم تكن هذه الحقيقة. وقد مد بيتر يده ليلمس واحدًا من جذوع الأشجار. تُرى كيف سيكون شعورك عند بناء كوخ كهذا... شيء ذو أهمية مثله؟ أن تقطع جذوع الأشجار وتشاهدها وهي تهوي أمامك من أعلى نقطة قرب السماء الزرقاء الصافية، ثم تدحرجها إلى مكان مفتوح، لتجد بعدها أن يدك تفوح منها رائحة قوية ومميزة، بعد ذلك ترفع تلك الجذوع إلى المكان المناسب، وتعمل على تكديسها بعضها فوق بعض، نعم، تمامًا مثل تلك الألعاب التي كان يفضلها في مرحلة رياض الأطفال، المجموعة القديمة في العلبة الكرتونية الطويلة، لينتهي بك الأمر بتشييد منزل. قال: «هل بنيتِ هذا؟».

«لا، لقد بُني هذا الكوخ قبل أن أولد. والآن، تفضل بالدخول. فلن أضيع اليوم كله».

لم يتحرك بيتر وسألها: «ما الشروط؟ لقد قلت إنك ستخبرينني عندما نصل إلى هنا».

تنهدت فولا، وعادت خطوة للوراء، حيث وطئت رجلها لوح الجرانيت الذي يشكل الدرجة الأمامية، فانغلق باب الكوخ. التقطت جرة بذور، فتجمعت حولها مجموعة من الطيور. وملأت وعاء طعام الطيور المعلق في إحدى زوايا السقف قبل أن تلتفت للرد عليه قائلة: «الشرط الأول: لا أريد أن يأتي أحد إلى هنا. فأنا أعيش بمفردي لسبب ما. وسوف تكتب إلى جدك وتخبره بكل ما يضمن عدم اقتراب أي شخص من هنا. أضف إلى ذلك أنه من العدل أن تخبر عائلتك بأنك لم تمت في خندق في مكان ما».

بسرعة تحرك بيتر عدة خطوات للخلف لدرجة أنه كاد يسقط. وتسببت هذه الحركة في ألم شديد له، لكنه عض شفتيه وقال: «لا، لن أفعل ذلك، فسوف يأتي ليأخذني، لا».

«دعني أخبرك بأن الشرط الأول غير قابل للتفاوض».

أخرجت بعض البذور من الجرة، وبسطت كفها بها، على الفور ترك طائر القرقف وعاء الطعام، واستقر على أطراف أصابعها، ثم نقر يدها متناولًا كل البذور، وما إن انتهى، حتى أطلقته مرة أخرى في الهواء، وعادت للتحدث إلى بيتر: «الشرط الثاني: ستخبرني لماذا تحمل هذا السوار».

نظر بيتر إلى حقيبته، وشعر بقلبه ينتفض لحماية هذا الأمر الشخصي؛ لذا سألها: «لماذا؟».

«لأنني أشعر ببعض الفضول تجاهك. ويمكنك معرفة الكثير عن الجندي من خلال ما يحمله من أسلحة في المعركة».

«لكنني لست جنديًا، وكل ما هنالك أنني عائد لمنزلي».

«هل هذا صحيح؟ لأنه يبدو لي أنك متجه للقتال من أجل شيء ما، في مكان تدور فيه رحى الحرب. لكن معك حقًا، أنت لست جنديًا. ومع ذلك لا يزال الشرط الثاني كما هو:

عندما أسأل، ستخبرني لماذا أحضرت هذا السوار معك. ولماذا هذا السوار خاصة. وستخبرني بالحقيقة - تلك هي القاعدة المتبعة هنا، موافق؟».

أومأ بيتر برأسه، وشعر برجله اليمنى تنبض، وبألم في ساقه اليسرى بسبب ثقل جسده، أما قميصه، فكان ينضح بالعرق نتيجة الجهد الذي بذله وهو يعرج على رجليه مسافة 90 مترًا ملتمسًا طريقه إلى الحظيرة، لكنه مع كل ذلك ظل ثابتًا مكانه، وسألها: «وماذا عن الشرط الثالث؟».

«سوف تساعدني في إنجاز شيء ما. إنني أعرف تلك النظرة، فلا تقلق، إنها مجرد مهمة تحتاج إلى شخص آخر، هذا كل شيء؛ لكنني لست مستعدة لإخبارك بنوع المهمة الآن». التقطت حقيبته، وأردفت: «فلتدخل الآن، لقد حان الوقت لتخفيف العبء عن رجلك. وأظن أنك جائع يا سيد بيتر، يا من لم تهرب من منزلك، وكذلك تلعب البيسبول دون مضرب».

فجأة شعر بيتر بأنه يتضور جوعًا، ومع ذلك تردد لحظات، ثم التفت لينظر إلى التلال التي تضيئها الشمس، وتكسوها باللون الأزرق الفاتح. إن باكس لا يزال هناك في مكان بعيد جدًّا.

اقتربت منه فولا، وأحس بها وهي ترفع يدها نحو كتفه، ثم تتراجع على الفور.

قالت: «أعرف ما تفكر فيه؛ لكنك لست مؤهلًا للذهاب بعد».

في الداخل كان الكوخ مضيئًا، وتفوح منه رائحة دخان خفيفة. نقرت فولا على طاولة من خشب الصنوبر، فجلس بيتر. غطت كتفيه ببطانية، ثم غادرت وعادت وفي يدها كيس بلاستيكي مليء بمكعبات الثلج. ثم أسندت قدمه إلى كرسي، ووضعت كيس الثلج عليها. وبمنشفة، نظفت الدم الذي يغطي يده. وفي النهاية، ناولته لوح تقطيع عليه رغيف خبز وسكين.

وضع بيتر اللوح جانبًا وسألها: «كم من الوقت سيستغرق هذا؟».

أشارت إلى الخبز وقالت: «هذا يتوقف عليك. ماذا، ألا يمكنك استخدام يديك أيضًا؟ اقطع رغيف الخبز».

«إلى متى سأظل هنا؟».

«يمكنك الذهاب عندما تتمكن من السير مسافات طويلة على الأراضي الوعرة باستخدام هذين العكازين ثماني ساعات يوميًّا. أظن أن أمامك أسبوعين، على ما أعتقد. اقطع الخبز ست شرائح».

«أنت لا تفهمين، لن ينجو».

خفضت فولا رأسها لتحدق إلى بيتر، وأشارت بإبهامها إلى الحائط خلفه، ثم قالت: «رقم أحد عشر».

التفت بيتر لينظر خلفه، فرأى مجموعة من بطاقات الفهرسة مثبتة على الحائط. قرأ بصوت عالٍ الكلمات المدونة على البطاقة رقم 11: «سوف يتدفق تيار الخليج عبر القشة، بشرط أن يكون موضع القشة متوافقًا مع اتجاه التيار وليس عكسه»!! بعدها سألها: «ما معنى ذلك؟».

«يعني أنه يجب عليك التوافق مع اتجاه التيار يا فتى».

«ما معنى التوافق؟».

«حاول أن تفهم كيف تسير الأمور، وتقبَّل وضعك، ولا تتحرك عكس اتجاه التيار. رجلك مكسورة، أتفهم؟ مكسورة. الاتفاق الذي بيننا ينص على بقائك هنا حتى أقول إنك قادر على المغادرة، لقد أخبرتك بأن ضميري لن يسمح لي بتركك تغادر في هذه الحالة. وعليك أن تختار: إما أن تبقى هنا حتى أحدد الوقت المناسب لمغادرتك، أو ترجع إلى منزل جدك الآن. فهل غيرت رأيك وقررت العودة لجدك؟».

«لا ، لكن...».

«إذن، أنت توافقني الرأي، أليس كذلك؟ الآن قم بتقطيع الخبز، اللعنة».

بدأ بيتر في الجدال، لكنه التزم الصمت بعد ذلك. ولم يكن مقتنعًا بفكرة البقاء مدة أسبوعين، لكن الطاعة وتقديم المساعدة هما أفضل خيار أمامه في الوقت الحالي.

هز رأسه، وبدأ تقطيع الخبز إلى ست شرائح سميكة ومتساوية، بينما وضعت فولا قطعة من الزبد مقلاة حديدية، وأشعلت النار تحتها. ودون أن تلتفت، أشارت إلى رف فوق طاولة المطبخ، وقالت: «اختر لنفسك شيئًا».

رأى برطمانات المعلبات، متراصة على هيئة ثلاثة صفوف عميقة، وكأنها ألوان الطيف من الجواهر السائلة على طول الرف. قرأ بيتر الحروف المكتوبة على الملصقات: كرز، خوخ، طماطم، توت أزرق، تفاح، يقطين، كمثرى، فاصوليا خضراء، بنجر، خوخ. كما رأى ضفائر من الثوم الجاف والفلفل الحار معلقة بجانب الرف.

«هل تزرعين كل هذا؟».

أومأت فولا برأسها، وظهرها لا يزال موجهًا إليه.

«الأشجار التي تمتد على طول جدارك الحجري مزدهرة ورائعة، ما اسمها؟».

«أتقصد تلك القريبة من الجدار؟ إنها أشجار الخوخ».

أشار إلى برطمان بالقرب من نهاية الرف، وقال: «أريد الخوخ من فضلك يا سيدتي».

فتحت فولا البرطمان وأعطته شوكة.

قال: «أوه... ثمة غصن صغير فيه أو شيء من هذا القبيل».

التقطت فولا البرطمان، ووضعت هذا الشيء في فمها، وامتصت الشراب منه، ثم ألقت به في الحوض، بعدها طرفت عيناها وقالت: «يمكنك أن تأكل منها الآن. يا إلهي، إنه عود قرفة». وجمعت الخبز الذي قطعه، وأومأت برأسها قائلة: «تريد جبن الشيدر أم جبنًا سويسريًّا؟».

«الشيدر، على ما أظن».

استقامت وقالت: «على ما تظن أيها الفتى؟ أنت لا تعرف ما تريد؟».

هز بيتر كتفيه، وبالشوكة أخرج قدرًا من مربى الخوخ وتناولها، كان طعمها غنيًّا ورائعًا تمامًا كما أوحى مظهرها.

بدا أن فولا تستعد لقول الكثير عن موضوع الجبن هذا، لكنها عزفت عن الحديث، وضمت شفتيها معًا، ثم تحركت مستندة إلى ساقها الخشبية، وخرجت من الباب الخلفي. وبعد دقيقة، عادت ومعها قطعة من الجبن، ثم بدأت صنع الساندويتشات دون أن تنطق بكلمة واحدة. سمع بيتر صوت الزبد وهي تضع الجبن في المقلاة الساخنة.

ظل يتفحص المكان من حوله، فلم يكن الكوخ فسيحًا، لكنه لم يكن ضيقًا أيضًا. تسللت أشعة الشمس من خلال النوافذ النظيفة، وكست الجدران الخشبية ببريق لامع. كان هناك كرسيان مخططان باللون الأزرق على جانبي مدفأة حجرية، وبينهما صندوق مليء بالكتب يشبه طاولة، كما رأى براميل صغيرة عليها مصابيح للإضاءة، فضلًا عن وجود مصابيح أخرى معلقة من عوارض السقف.

كانت هناك صور على رف المدفأة، وبعض اللوحات على الجدران، وسلة من الخيوط بجانب الكرسي، وعبر باب مفتوح بالقرب من المدفأة، أبصر بيتر جانب الفراش المرتب بعناية والمغطى بلحاف أصفر اللون. بدا المنزل عاديًّا جدًّا، وليس منزلًا تقطنه امرأة مجنونة، ولكنه ينقصه شيء ما. لاحظ بيتر بعد ذلك مدى هدوء المكان - الصمت يعم

الأرجاء، باستثناء أصوات العصافير في الخارج، وتناثر الزبد في المقلاة - لكن هذه ليست المشكلة. قال عندما أدرك الأمر فجأة: «يا إلهي، ليس لديك كهرباء».

حركت فولا الساندويتشات على الجانب الآخر، وأجابت: «على حد علمي، هذه ليست جريمة في هذا البلد. ليس الآن على أي حال».

حاول بيتر التفكير فيما سيفتقده من دون الكهرباء، فأدرك أن هناك الكثير من الأشياء التي لا يمكنه إحصاؤها. أخرج آخر قطعة من الخوخ، بينما كانت الشوكة ترتطم بالبرطمان الفارغ. ما زالت فولا تقف موجهة ظهرها إليه، لذلك رفع البرطمان إلى فمه ليشرب آخر قطرات من القطر بعدها قال: «لكن أخبريني كيف حصلت على الثلج؟».

«لديَّ ثلاجة في الشرفة، إنها تعمل بالغاز. وكذلك الموقد وسخان الماء. لديَّ هنا كل ما أحتاج إليه». وضعت طبقين أزرقين على الطاولة، فسال لعاب بيتر بمجرد أن شم رائحة الطعام، لكنه انتظر، حيث شعر بأن فولا لم تنتهِ بعد.

جلست فولا وقالت: «لديَّ أكثر مما أحتاج إليه؛ لديَّ السلام الذي يعم أرجاء المكان».

«لأنه هادئ جدًّا؟»

«لا، لأنني حيث يجب أن أكون، أفعل بالضبط ما يجب عليَّ فعله. إن هذا هو السلام بالنسبة لي. تناول طعامك».

قضم بيتر الساندويتش، كان الجبن ساخنًا، وسال ليغطي قطعة الخبز المقلية المقرمشة بنية اللون.

وبحكم العادة كسر قطعة من الخبز، وكاد يلقيها أسفل الطاولة، لكنه تذكر أن ثعلبه ليس موجودًا تحتها، وتساءل عما إذا كان باكس يفتقده بقدر اشتياقه له الآن. التفت لفولا وسألها: «ألا تشعرين بالوحدة هنا؟».

«أرى الكثير من الأشخاص، مثل بيا بوكر، أمينة المكتبة، وكذلك روبرت جونسون، سائق الحافلة، ولديَّ ..... أقصد أرى الكثير من البشر».

نهضت، وأحضرت المقلاة، ووضعت بها شطيرة أخرى، وقالت: «تناول طعامك».

أكل بيتر وهو يفكر في كلامها عن السلام. وعندما انتهى، لعق بقايا الزبد من بين أصابعه، وسألها: «ماذا تقصدين بقولك إنك تفعلين بالضبط ما يجب عليك فعله؟ هل لديك وظيفة؟».

«بالطبع! تبلغ مساحة الحديقة نصف فدان، والبستان مساحته ضعف ذلك. وسوف أزرع الفول والبامية اليوم، ربما عليك استبدال سدادة مضخة البئر، فثمة الكثير من المهمات للقيام بها هنا».

«لكنك لا تذهبين لتأدية وظيفة معينة، فكيف تحصلين على المال؟ كيف تشترين أغراضك؟ أقصد كل تلك الأدوات في الحظيرة؟ وكذلك»، توقف ولوح بيده في جميع أنحاء الكوخ، ثم أضاف: «كل هذه الأدوات الخاصة بك؟».

نهضت فولا ومدت ساقها الخشبية على طاولة المطبخ وضربتها بالملعقة، وقالت: «تدفع لي مدينتي كل شهر مبلغًا قليلًا من المال دية مقابل ساقي».

بعدها ألقت الملعقة في الحوض، وهزت رأسها، وأضافت: «تلك الصفقة اللعينة، تبين أن ساقي لم تكن ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم. ليتهم أخبروني بذلك قبل أن يرسلوني لاستكشاف حقل الألغام. فقد أحببت دائمًا ساقي، كانت تمثل قيمة كبيرة بالنسبة لي، ربما لم تكن جذابة أو جميلة، لكنها كانت تؤدي الغرض منها، أتذكر عندما استخدمتها في الجري إلى البلدة المجاورة عندما أشعلت أنا وديردري كالانان النار في مخزن الحطب الخاص بوالدها ونحن في الصف السادس، كما ساعدتني على محو الابتسامة عن وجه هنري فالنتين عندما حاول الاستيلاء على حقيبتي في العام التالي وفشل. والكثير من

المواقف. إن ساق المرء هي ثمن باهظ للغاية ليدفعه. وكل يوم يمر عليَّ، أتمنى أن أستعيدها».

«لكن لماذا لم تحصلي على واحدة أفضل من ...؟».

مدت ساقها على الطاولة مرة أخرى، وشمرت عنها بطولها لإظهار العمود الخشبي، وقالت: «أوه، لقد أعطوني طرفًا صناعيًا - وهو أداة معقدة الشكل وغريبة. كانت تخيفني كلما نظرت إليها؛ لذا صنعت ساقي الخاصة. إنها ثقيلة ومتعبة، لكنني ارتكبت العديد من الفظائع في الحرب، وأعتقد أنني أستحق العقاب وتحمل قدر من المعاناة».

«هل ألقيتها بعيدًا؟ رميت الساق الاصطناعية؟» لم يستطع بيتر منع نفسه من تخيل الصدمة التي ستظهر على وجه جامع القمامة عند عثوره عليها.

«بالطبع لا، فأنا أستخدمها أحيانًا، أما الآن، فهي في الحديقة، يرتديها خيال المآتة. يبدو أنها تخيف الغربان المزعجة أيضًا».

نزلت من على الطاولة، ووضعت قبعة مصنوعة من القش على رأسها كما لو أنها تذكرت حديقتها فجأة: «سأعود قبل حلول الظلام. تقع دورة المياه خلف شجرتي الأرز مباشرة، ويوجد حوض استحمام في المطبخ. عليك تنظيف نفسك. إن الشرفة لك. وفي الواقع، سيتعين عليك مشاركتها مع فرانسوا. لكن أبقِ ساقك مرتفعة عن الأرض».

«مَن فرانسوا؟».

مرة أخرى أثارت ضحكات فولا خوف بيتر. أومأت برأسها في إشارة نحو الباب الخلفي المؤدي إلى شرفة مغطاة، وقالت: «من المحتمل أنه يوجد في الخارج يغفو الآن، يا له من لص عجوز كسول». اقتربت من الباب، ونظرت إلى الخارج، ثم أشارت له قائلة: «تعالَ وانظر».

نهض بيتر من كرسيه، واتكأ على عكازيه. أبقت فولا الباب مفتوحًا ولوحت نحو صندوق خشبي. رأى بيتر عينين محاطتين بحلقتين داكنتين تحدقان إليه. فمد رأسه للحصول على رؤية أفضل، لكن الراكون دفع رأسه إلى الخلف.

«فرانسوا فيلون، سُمي على اسم أحد أشهر اللصوص في التاريخ. كان شاعرًا ولصًّا في الوقت ذاته، وكان يتمتع بشخصية ساحرة وجذابة لدرجة أنه كلما قُبض عليه، يعفو عنه أحد المعجبين».

ابتسم بيتر، وانحنى قليلًا ليتمكن من النظر إليه بشكل أفضل. قال بهدوء: «مرحبًا تشاك، تشاك، تشاك». تلك هي الطريقة التي كان يحيي بها باكس دائمًا في الصباح. فنظر إليه الراكون بتكاسل لحظة أخرى، وبعدها قرر أنه ليس مهتمًّا، فاستدار وأغمض عينيه.

«هل هو بري أم مروض؟».

تجاهلت فولا سؤاله كأنه لا قيمة له، وقالت: «أترك باب الشرفة مفتوحًا، فهو يدخل عندما يحلو له، وهو رفيق رائع. أنا أطعمه، ولكنني لست مجبرة على ذلك - فهو يوفر لنفسه ما يكفيه من طعام ليصبح سمينًا جدًّا كما ترى. لقد توصلنا إلى اتفاق بسيط بشأن حظيرة الدجاج: لا يقترب من الدجاج، وأنا أعطيه بيضة بين الحين والآخر. إنه رفيق ممتاز. هذا أنسب وصف له».

أشارت إلى عارضة تمتد عبر السقف وأردفت: «غدًا يمكنك القيام ببعض تمارين السحب. لكن اليوم، انتبه لساقك، واحرص على إبقائها مرتفعة - والأفضل أن تكون فوق مستوى قلبك». بعدها أومأت برأسها تجاه الثلاجة، وأضافت: «استمر في وضع كمادات الثلج عليها، وأزلها من حين لآخر. إنني أريد تخفيف التورم قليلًا حتى أتمكن من تجبير تلك العظمة الليلة. اخلط ملعقة من لحاء الصفصاف بالماء كل بضع ساعات، واستخدم المزيج لتسكين الألم».

أومأ بيتر برأسه، ثم ألقى بجسده على الأرجوحة الشبكية المعلقة في العوارض، وهو في غاية الإرهاق.

همت فولا بالمغادرة، لكنها توقف عند الباب، والتفتت لتحدق إليه. عقدت ذراعيها على صدرها، وظهر على وجهها تعبير غير مفهوم.

سألها بيتر: «ماذا؟».

«فقط أتساءل: هأنتذا ملتزم بالتعليمات وجالس في الشرفة، في اعتقادك ما معنى ذلك؟ أهذا يجعلك بريًا أم مروضًا؟».

13

استيقظ باكس في وقت متأخر من الظهيرة. وكان الألم الذي شعر به في بطنه الأيام القليلة الماضية يزداد سوءًا، وعندما حاول النهوض، فقد توازنه لحظة، وارتجفت عضلاته.

في فضول شديد ظل يتفحص جسده بحثًا عن أي جرح. لقد مرض من قبل، وعندها أجبره بيتر على تناول حبة دواء، بعدها تبلدت حواسه وتباطأت ردود فعله. إنه يشعر بالأحاسيس نفسها الآن.

سقط على الأرض الباردة، وشاهد جراي وزوجته في الأسفل وهما يستفيقان، ويستنشقان الهواء، ويقضيان حاجتهما، بعدها استعدا للبحث عن الطعام. قفزت بريسل من جحر بجانبه، ولم تتوقف إلا لتأمر شقيقها بالبقاء مكانه وعدم التحرك، ثم انطلقت للصيد هي الأخرى.

في اليوم الذي استقل فيه السيارة مع صديقه، شعر باكس بالتوتر؛ لذا رفض تناول طعام الصباح، ما يعني أن هناك ثلاثة أيام كاملة مرت على آخر مرة تناول فيها طعامًا. ومع أنه لم يرَ الموت من قبل، أدرك أن هذا هو مصيره المحتوم إذا لم يجد طعامًا ليأكله. ومع ذلك لم يشعر بضرورة البحث عن طعام، بل صرف عن ذهنه هذه الفكرة، واستغرق في التفكير في

أمر آخر: ضرورة العثور على صديقه والاطمئنان عليه؛ لذا نهض مرة أخرى، حيث اتكأ أولًا على كفيه الأماميتين قبل أن يستقيم ويستند إلى قوائمه الأربع.

بعد لحظة أصبح قادرًا على التفكير بوضوح وتركيز، تجول بالقرب من الجحر الذي تتشاركه بريسل مع شقيقها، فشم رائحة مخبأ الصيد المدفون في الأرض، لكنه لم يجرؤ على حفره لأنه كان محاطًا بالكثير من الروائح التحذيرية القوية. وبعيدًا عن الجحر، عثر على بعض بقايا جثث الحيوانات التي ألقيت خارجًا لتقتات عليها الحيوانات نابشات الفضلات ذات الرتب الأدنى. بدأ باكس استكشاف هذه البقايا، فلم يعثر على أي لحم سوي بطرف ذيل فأر الأراضي. إلا أنه كان لحمًا متعفنًا ولينًا لا يصلح طعامًا للغربان، فضلًا عن الديدان التي كانت تزحف عليه.

خفض باكس رأسه نحو هذه البقايا، وفتح فكيه، لكن الرائحة دفعته للوراء. إن هذا لا يصلح لأن يكون طعامًا على الإطلاق.

تراجع بضع خطوات إلى الوراء، ودفن أنفه في كومة من البرسيم الطازج، وأخذ يمضغ البراعم ليقضي على الرائحة الكريهة التي ظلت عالقة في جيوبه الأنفية الحساسة. ثم ابتلع طعامه ليحصل على غذاء مؤقت، كانت هذه البراعم بمثابة عزاء لبطنه الذي يتضور جوعًا، لكنها لم تكن سوى مسكن - فالبرسيم لم يكن ليقويه. وبعد تناول القليل منه، طرأت بذهنه تلك الفكرة مرة أخرى: يجب أن يعثر على بيتر.

في تلك اللحظة فقط، سمع شيئًا يتحرك وسط العشب. وقبل أن تتمكن حواسه البطيئة من الاستجابة، شعر بحمل ثقيل يندفع نحوه.

انقض رانت على رأسه، وأخذ يصيح، لأنه نجح في نصب كمين له؛ لكن عندما لم يتحرك ليدفعه بعيدًا، شعر رانت بالقلق، وبدأ يتفحصه. استلقى باكس ساكنًا بينما كان الثعلب الأصغر يستنشق جسده ويلعقه، وكان باكس أضعف من أن يهدر طاقته في إبعاده.

قال رانت: هل أنت على ما يرام؟

أغمض باكس عينيه في مواجهة ضوء الشمس الخافت ولم يرد.

انطلق رانت، وعاد بعد بضع دقائق، ومعه دودة تتدلى من فكه، وعلى الفور وضعها على كف باكس.

انكمش باكس وانسحب بعيدًا، ولكن الأفكار التي كانت تتصارع في عقله في وقت سابق ظهرت مرة أخرى: عليه أن يجد صديقه، وعليه أن يأكل ليتجنب الموت؛ لذا التقط الدودة، وبدأ يمضغها بين أسنانه، لكن لأنه لم يكن معتادًا طعم اللحم الحي، تقيأ وابتعد.

حفر رانت، وأخرج دودة أخرى، ووضعها أمام باكس، وهذه المرة نهض باكس ووقف على قوائمه، وخطا بضع خطوات قبل أن تخور قواه ويسقط ثانية.

اقترب منه رانت وحثه على تناولها قائلًا: كل.

استجمع باكس قواه قدر المستطاع، وقال: اذهب بعيدًا.

للحظة حدق الثعلب الصغير إلى باكس الأكبر منه، ثم استدار وهرول نحو العشب. شاعرًا بالارتياح، وضع باكس رأسه على كفيه. ولم تكن لديه القدرة على المقاومة الآن. لكن رانت ظهر مجددًا بعد لحظات قليلة، وفي فمه شيء مستدير. وقد أسقط هديته، فانقسمت نصفين.

إنها بيضة. أثارت الرائحة بداخله ذكرى مهمة: ذات مرة، عندما كان صغيرًا جدًّا، عثر باكس على كرة بيضاء صلبة أثناء استكشافه طاولة مطبخ البشر. فضربها معتقدًا أنها إحدى ألعاب بيتر، لكنها تدحرجت وسقطت على الأرض وانشقت لنصفين وظهر السر اللذيذ الكامن داخلها.

جاء والد بيتر بينما كان لا يزال يلعق القطرات الأخيرة، وضربه ودفعه بعيدًا. جُرحت خاصرته نتيجة هذه الضربة، لكن تلك البيضة كانت تستحق العناء. ومنذ ذلك الحين، في كل مرة يُترك وحده في المنزل، اعتاد باكس الذهاب في زيارة استكشافية إلى طاولة المطبخ بحثًا عن المزيد منها، وكثيرًا ما كان يحالفه الحظ.

كانت بيضة السمان التي أحضرها رانت أصغر حجمًا، وقشرتها المرقطة ملطخة بالعشب الجاف، إضافة إلى أن رائحتها بدت أقوى من رائحة البيض الذي يتناوله البشر، ولكن ما من شك أنها بيضة.

نهض باكس. وتراجع رانت للسماح له بالحصول على الجائزة المتمثلة في الصفار. أكل باكس، بل لعق كل قطرة من العشب وجعله نظيفًا، ثم رفع بصره متلهفًا للتعبير عن امتنانه.

لقد اكتشف أن رانت قد رحل، لكنه عاد بعد لحظات قليلة، حاملًا بيضتين أخريين في فمه بحرص شديد، والتهمهما باكس، فغادر رانت وعاد مرتين أخريين ومعه المزيد من البيض.

ظل باكس يأكل بنهم، إلى أن انتفخ بطنه المنكمش ثانية نتيجة تناوله سبع بيضات، ليسقط بعدها على ممر رملي أمام الجحر ويغمض عينيه.

قفز رانت على جذر شجرة ملتوٍ ومتشابك فوق الجحر، وحاول الوقوف مستقيمًا قدر الإمكان، وبينما كان باكس نائمًا، تولى هذا الثعلب الصغير مهمة الحراسة.

14

تعرَّف بيتر على وقع خطوات فولا - ضربة الساق الخشبية القوية يتبعها وقع الحذاء الناعم - فألقى على الفور بجذوع الأشجار في الصندوق الخشبي. ووقف عند مدخل الكوخ، وظل يراقبها وهي تضخ الماء إلى حوض المطبخ.

سألته: «هل اعتنيت برجلك جيدًا؟».

«بالطبع». في الواقع، لقد نهض ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرة، واستخدم العارضة في القيام بتمارين السحب، كما أمضى نصف ساعة في رفع جذوع الأشجار. كانت ذراعاه تؤلمانه، ورجله تنبض من شدة الألم عندما لا يرفعها، لكنه مع كل ذلك لم يقدر على الاستلقاء دون القيام بأي شيء وهو يعلم أن باكس لا يزال وحيدًا في الغابة.

بدأت فولا غسل يديها، وقالت دون أن تستدير: «هل كتبت الخطابات التي طلبتها منك؟».

سحب بيتر العكازين إلى جانبيه، حيث كان يشعر بمزيد من الاتزان وهما مثبتان تحت ذراعيه بإحكام، بعدها قال: «نعم، ولكن...».

«من دون اعتراض، سوف تكتب خطابًا واحدًا كل أسبوع. أتذكر صديقي سائق الحافلة الذي أخبرتك به؛ روبرت جونسون، لقد طلبت منه أن يرسل هذه الخطابات عبر البريد من

أماكن مختلفة على طول طريقه. إنه الشرط الأول، هل تذكر؟».

استدار بقوة، فاهتز جسده، لكنه سرعان ما استعاد توازنه واعتدل في وقفته. وحاول أن يلتفت مرة أخرى - هذه المرة ببطء.

قال: «حسنًا».

«اتفقنا». علقت فولا منشفة الأطباق على الشماعة، واتجهت نحو المدفأة، وبدأت تمزيق الصحف ووضعها بها، بعدها قالت: «إذن، دعنا ننتقل إلى الشرط الثاني، هذا السوار الرائع الذي تحمله، أعتقد أنه كان لوالدتك، فلماذا تحمله معك؟ ولماذا هذا الشيء خاصة؟».

تيبس جسده على الفور كما هي الحال دائمًا عندما يسأل أي شخص عن والدته، كأن عليه أن يتجمد ليقرر ما إذا كان من المقبول التحدث عنها أم لا. وعادة لم يكن من المناسب الحديث عنها مع الغرباء، لذلك فوجئ عندما أرخت يداه قبضتيهما على العكازين قليلًا، وبدأ التحدث ليقول:

«لقد كانت ترتديه دائمًا، وكانت ترفع معصمها لأعلى حتى أتمكن من اللعب به وأنا رضيع، بالطبع لا أذكر ذلك، لكنني رأيت هذا في الصور. وأذكر حديثها معي عنه، أقصد عن مدى سحره وجماله. إن هذا السوار مزين بصورة طائر العنقاء الخيالي. إنه طائر فريد من نوعه. لونه عبارة عن مزيج من اللون الأحمر والذهبي والأرجواني، وكأنك تنظرين لمشهد شروق الشمس، وهو...».

«هو ينهض من الرماد، أنا أعرف ما هو طائر العنقاء».

«صحيح، ولكن من رماده الخاص. هذا هو الجزء الذي استحوذ على اهتمام والدتي».

«رماده الخاص؟».

«عندما يشعر بالتعب، يبني لنفسه عشًا أعلى الأشجار، بعيدًا عن كل شيء». توقف بيتر، فجأة لاحظ أن كوخ فولا يبدو كعش. وظل يدور مستندًا إلى العكازين لينظر حوله، نعم إنه عش سري محمي ومحاط بالأشجار، في منأى عن كل شيء.

التفت إلى فولا التي كانت تشعل نيران المدفأة، وتمنى ألا تكون قد تمكنت من قراءة أفكاره، ثم أردف قائلًا: «وهكذا يملأ هذا الطائر العش بأشيائه المفضلة - مادة المر والقرفة كما ورد في القصة، على ما أعتقد. بعدها يشتعل العش ويحترق جسده. وينهض الطائر الجديد من رماد الطائر القديم. لقد أحبت والدتي هذه القصة، وقالت إن المغزى منها أنه مهما ساءت الظروف يمكننا دومًا البدء من جديد».

لم تبدِ فولا أي رد فعل على كلامه، أمسكت عود ثقاب وقربته من الورق الممزق، وشاهدت النار تشتعل فيه. بدا وجهها قاتمًا في ظل ضوء اللهب. ثم ألقت بجذعي شجرة في المدفأة، ثم بالثالث، وقالت دون أن ترفع بصرها لتنظر إليه: «اذهب وجرب عكازيك في الخارج بينما لا يزال هناك بصيص من ضوء النهار».

فتح بيتر الباب الأمامي وتحر ك عبر الدرج، شاعرًا بالارتياح للهروب من الموقف. لكنه في الوقت ذاته شعر بقليل من الحيرة؛ إذ لم يعلم ما الخطأ فيما قاله. ربما يتسبب العيش منعزلًا في الغابة في أن يصبح الشخص غريب الأطوار، لكنها كانت على حق في أنه بحاجة إلى التدرب في الخارج. لقد ضاع منه يوم كامل الآن، يوم كامل. ربما كان بحاجة حقًا إلى بعض الوقت للتدريب والشفاء؛ لأنه سيغادر في أسرع وقت ممكن.

غادر الفناء ذا الأرض الممهدة، وتوجه إلى رقعة تمتزج فيها الأرض غير المستوية بالجذور والأغصان. لقد استغرق وقتًا طويلًا للغاية للدوران حول الكوخ. وكانت دورته الثانية أسرع قليلًا، وبحلول الجولة الخامسة شعر ببعض الراحة، لكنه كان يتصبب عرقًا عندما عاد إلى الداخل.

وجد الهدوء يعم المكان باستثناء صوت طقطقة النار الخفيف. ورأى فولا جالسة على كرسي ذي ذراعين، وقد انشغلت في حياكة شيء أصفر اللون. وفجأة شعر بأن المشهد من حوله مثير للسخرية: هذا الهدوء بالإضافة لأشعة الشمس التي تكسو الكوخ ساعة الغروب كأنها تغسله في صمت، وكأن الأمور في العالم تمر بسلام، والكون في حالة استقرار.

لم تكن الأمور في هذ العالم تسير على ما يرام على الإطلاق - ها هو يوم آخر يمر وباكس وحيد في الغابة. وهناك ليلة أخرى تنتظره سيشعر فيها بالبرد. ربما يكون جائعًا وخائفًا أيضًا. وماذا لو لم يجد الماء؟

ظل يتأرجح عبر الغرفة، وفي منتصف الطريق، علق أحد عكازيه بالسجادة، فاضطر إلى الاستناد إلى الحائط بالعكاز الآخر حتى لا يصطدم بالمصباح.

قالت فولا: «حاول أن تخطو خطوات قصيرة، وسوف تتقن المشي باستخدامهما بعد فترة».

«بعد فترة؟ سيكون ثعلبي في عداد الأموات حينها». رمى العكازين، وجلس على كرسي طاولة المطبخ، وقال: «ما فائدة كل هذا على أي حال؟ كيف من المفترض أن ينجح هذا؟».

توقفت فولا عن الحياكة وسألته: «ماذا تظنني فاعلة، أتراني أملك عصا سحرية؟» بعدها خرجت إلى الشرفة، وعادت ومعها كيس من الثلج؛ ثم رفعت رجل بيتر إلى الكرسي، ووضعت عليها الثلج، وأردفت: «لا أملك إجابة لمثل هذه الأسئلة».

ذكره منظر رجله عديمة الفائدة بكل شيء لا يستطيع فعله الآن. أشاح بوجهه وقال: «لِمَ لا؟ أليس من المفترض أن تكوني شخصية حكيمة وواعية؟ إنك تعيشين هنا بمفردك مع... أقصد مع كل هذا» - أشار بإبهامه إلى مجموعة الملاحظات المثبتة على اللوح خلفه - «كل البطاقات الفلسفية هذه؟ من المفترض أن تكوني على قدر كبير من الحكمة أليس كذلك؟ أو ربما ساحرة، أو شيء من هذا القبيل».

لم يصدق بيتر نفسه وهو يتحدث معها بهذه الطريقة، فهذه ليست طبيعته، ومن ثم شعر بأنه فقد عقله، كما لو كانت ردود فعله تصدر منه على الفور دون أن تمر عبر مخه. ربما كل هذا لأنه لم يكن في المكان الذي ينبغي أن يكون فيه، ورجله مصابة وتؤلمه للغاية ما يحول دون وصوله إلى حيث يريد، هذا بالإضافة إلى أن باكس لا يزال في الغابة بمفرده.

أخرجت فولا دلوًا من الخزانة، ووضعتها في الحوض، وقد بدا عليها الشعور بالإهانة إلى حد ما: «بطاقات فلسفية؟ أحاول اكتشاف ذاتي والمغزى من حياتي. وليس لديَّ إجابات لأسئلتك».

«إذن، مَن لديه إجابات لها؟ ولا تقولي أبي، فهو سيتغيب قليلًا هذه الأيام»، فضلًا عن أنه هو من تسبب في كل هذا. ثم أطبق بيتر فكيه كي لا يتفوه بهذه الكلمات، وأجبر نفسه على التنفس ببطء. إنه لم يكن غاضبًا، بل محبط، - ما خطبه في الآونة الأخيرة؟ - أي شخص في موقفه سيشعر بذلك. اغرورقت عيناه بالدموع، فأغمضهما.

سارت فولا باتجاهه، ثم بدا أنها غيرت رأيها، فتراجعت لتتكئ على طاولة المطبخ، بعدها قالت: «أنت غاضب». تحدثت بهدوء وبساطة كما لو كانت تخبره مثلًا بأن شعره داكن اللون، أو أن الشمس تغرب.

«أنا لست غاضبًا»، لكنه أجبر نفسه على فتح قبضتيه، وبدأ يعد عشرة أنفاس بطيئة، وقاوم غضبه كما يفعل دائمًا. فهو يخشى أن يتصرف مثل والده عندما يواجه هذا النوع من الغضب الشديد الذي يتأجج بسرعة ويزداد حدة شيئًا فشيئًا حتى يدفعه للانفجار في أي لحظة وإيذاء كل من يقع في طريقه. وفي مثل هذه المواقف لا يُشفي الاعتذار بعد وقوع الضرر الجروح أبدًا.

أغمض عينيه ليتحدى الدموع التي لا تزال تملؤهما، وقال: «أنا لست غاضبًا. كل ما هنالك أنني لم أختر شيئًا من هذا؛ لم أختر وقوع الحرب، ولا انضمام والدي إليها. ولم أختر

مغادرة منزلي ولا الذهاب إلى منزل جدي. وبالتأكيد لم أختر التخلي عن حيوان اعتنيت به مدة خمس سنوات».

«أنت طفل، لا تملك حرية الاختيار. ولو أنني مكانك لشعرت بالغضب أيضًا. اللعنة أنت غاضب».

«قلت لكِ أنا لست غاضبًا». وحاول بيتر إخفاء بكائه بالضحك، بدا كأنه فقد عقله مرة أخرى، وأردف قائلًا: «أنت تحبين استخدام هذه الكلمة كثيرًا».

«أي كلمة تقصد يا فتى؟».

«اللعنة. ألا تلاحظين ذلك؟ أنت معجبة بها جدًا». ثم فقد صوابه من جديد وهو يقول: «لو كنا في الصف الثاني، لأخبرتك بأنك مغرمة بهذه الكلمة كثيرًا، ويجب أن تتزوجي بها».

صرخت بصوت عالٍ أشبه بنعيق الغراب: «أنت على حق؛ يجب أن

أجثو على ركبتي اللعينة، وأطلب من هذه الكلمة أن تتزوجني!».

بدا بيتر في حالة هستيرية، ووافقها الرأي قائلًا: «نعم يجب عليك ذلك، يجب عليك وضع خاتم لعين في إصبع تلك الكلمة». ومسح وجهه وشاهد فولا وهي تتقدم نحوه، وتجلس على المقعد المقابل له.

«اعتاد جدي التلفظ بهذه الكلمة وببعض الكلمات بلغته الأم. وهذا أصاب جدتي بالجنون؛ لأنها لم تكن تتحدث هذه اللغة. لكنها هي الأخرى كانت تغني بالإيطالية أثناء إعداد الطعام لذا...» رفعت فولا إصبعها لتلمس الريش الذي يزين رقبتها، وقالت بهدوء: «أحمل العديد من الصفات».

ثم التزمت الصمت بعض الوقت بينما كانت تحدق إليه. وفي خضم صمتهما، شعر بيتر بأنهما يتبادلان أطراف الحديث عن شيء مهم، شيء له علاقة بالنفق الطويل المظلم الذي

شعر بأنه يضيق من حوله.

نظر إلى رجله وقال: «كنت أعتقد أنني سأتمكن من العثور على باكس في غضون أسبوع، وربما عشرة أيام، لكن الآن...».

«باكس، أهذا هو اسمه؟ إنه يعني ’السلام‘، أتعرف ذلك؟».

كان بيتر على دراية بهذه المعلومة - أخبره بها الكثير من الناس. فأجابها: «لكن هذا ليس سبب تسميتي له بهذا الاسم. في اليوم الأول الذي أحضرته فيه إلى المنزل، تركته مدة دقيقة، دقيقة واحدة فحسب، حتى أتمكن من إحضار بعض الطعام له. وعندما عدت، لم أتمكن من العثور عليه، فقد زحف إلى حقيبة ظهري ونام فيها. كانت كلمة ’باكستون‘ مطبوعة على الملصق المثبت على الحقيبة. وكنت في السابعة من عمري حينها، ورأيت أن ’باكستون‘ هو اسم مناسب، فهذا الاسم يكتب بالإنجليزية *Paxton*، وثالث حرف فيه هو X مثله مثل كلمة ثعلب بالإنجليزية ‘Fox’، أفهمتِ قصدي؟ لكن الآن...».

«الآن ماذا؟».

«الآن هو وحيد بسبب الحرب، فقد تخليت عنه بسبب الحرب، الحرب وليس السلام. نطلق على هذا اسم مفارقة، أليس كذلك؟ أيًا كان الاسم نحن نتحدث عن شيء فظيع؛ من المحتمل أن يموت بسبب الحرب».

«ربما يموت، وربما لا. من الممكن أن ينجو. نحن في فصل الربيع الآن أعتقد أن الغابة مليئة بالطعام».

هز بيتر رأسه: «تعلم الثعالب صغارها الصيد وهي في عمر ثمانية أسابيع تقريبًا. لقد عثرت عليه قبل ذلك بوقت طويل، ربما كان عمره أسبوعين، حسب تقدير الطبيب البيطري. حتى إذ صادف أن رأى عشرات الفئران المتجمعة على الفتات، ولم يكن يتمكن من الإمساك بها. لم يكن يتناول سوى طعام الكلاب وبقايا الطعام التي أقدمها له».

«أي نوع من بقايا الطعام تقصد؟ شيء ما يمكنه العثور عليه هناك؟».

هز بيتر كتفيه وقال: «إنه مجنون بزبد الفول السوداني. ويحب النقانق والبيض. ولن يعثر على طعام يناسبه، وما لم يصادف شخصًا يتنزه في المكان، فسوف يموت جوعًا. أعتقد أنه سيجد الماء، وربما يمكنه البقاء أسبوعًا دون طعام، ولكن بعد ذلك...».

وضع رأسه بين كفيه، وأضاف: «أنا السبب في كل ذلك. صحيح أنني لم أختر التخلي عنه، لكنني لم أدافع عنه. ولا أعرف لماذا لم أحارب من أجله».

يظن أنه لا يعرف لماذا لم يدافع عنه، لكنه يعرف؛ عندما أصدر والده الأوامر الخاصة بباكس في المرة الأولى، استجمع بيتر شجاعته، وقال: «لا. لن أفعل ذلك». لكن عيني والده اشتعلتا بهذا الغضب الناري، ورفع قبضته متوقفًا في اللحظة الأخيرة فقط قبل أن يصفعه بكفه على خده، في حركة حملت تهديدًا كافيًا لدرجة أن باكس انتبه وزمجر متأهبًا.

رفع بيتر قبضتيه، وما شعر به من غضب تجاه والده أثار خوفه أكثر كثيرًا من التهديد نفسه.

ترددت كلمات جده في ذهنه الآن - جميع رجال العائلة يحملون الصفات الوراثية نفسها - وشعر بالألم والخوف من جديد. نظر إلى الطاولة البالية المصنوعة من خشب الصنوبر ليخفي التعبير المخزي الذي ظن أنه يرتسم الآن على وجهه.

اقتربت منه فولا، واحتضنت رأسه بيديها، فتجمد بيتر في مكانه، إذ إنه باستثناء تربيت والده كتفه لتشجيعه من حين لآخر، أو الوكز بالذراع كل فترة من أحد أصدقائه، لم يلمسه أحد منذ وفاة والدته. توقفت فولا، كما لو كانت تعلم أنه يحتاج إلى بعض الوقت، ثم ضغطت بقوة على رأسه.

بدا تصرفها هذا غريبًا، لكن بيتر لم يبتعد، ولم يحرك ساكنًا، ولم يلتقط أنفاسه قط. لأنه في تلك اللحظة كانت قبضتها القوية هي الشيء الوحيد الذي منعه من الانفجار غضبًا.

قالت: «حسنًا، حدث ما حدث، أليس كذلك؟».

بعدها نهضت وأضافت: «ربما لا أملك إجابة لأسئلتك يا فتى، لكنني على يقين بشيء واحد: أنت بحاجة إلى الطعام - الكثير من الطعام. أنت في الثانية عشرة من عمرك، وقد نمت في البرد، ولديك كسر بعظمك يحتاج إلى الشفاء. وسأقوم بتجبير تلك العظمة الآن، ثم أبدأ إعداد الطعام بعدها ستتناول طعامك، ولن يتوقف أي منا عما يفعله حتى تطلب أنت ذلك. فهمت؟».

فجأة شعر ببطنه الفارغ يتضور جوعًا. ومن ثم رد قائلًا: «نعم سيدتي، فهمت».

بحثت فولا تحت الحوض، وأخرجت كيسًا من الجبس. شاهدها بيتر وهي تنخل بعضًا منه في الدلو، ثم تضع عليه الماء، بعدها أحضرت الشيء الذي كانت تخيطه، وقالت: «ارفع رجلك».

وضعت وسادة تحت ركبته، وألبست ساقه كمًّا مبطنًا أشبه بجورب مفتوح الأصابع.

تعرف على الفور على الشيء ذي اللون الأصفر الذي قامت بحياكته. نظر إلى غرفة النوم ليتأكد، وسألها: «هل قطعت لحافك؟».

«يمكنني صنع واحد آخر بمنتهى السهولة. أنت بحاجة إلى بطانة تدعم رجلك». أخذت جزءًا آخر من اللحاف، ونزعت الحشو، ثم قطعت قماش الكاليكو الأصفر إلى شرائح وغمرتها في الجبس، وقالت: «ارفع رجلك بزاوية تسعين درجة». بعدها لفت هذه الشرائط حول رجله وكاحله حتى منتصف ساقه. وعندما شعرت بأن القماش الملفوف على ساقه أخذ شكل الحذاء السميك، دعمته بمزيد من الجبس محذرة إياه: «لا تتحرك، ولا تحرِّك أصابع رجلك أيضًا».

ما إن انتهت، حتى غادرت فولا إلى الشرفة وعادت وهي تحمل بين ذراعيها الكثير من الأشياء. وضعت مقلاتين حديديتين على الموقد، وألقت قطعة كبيرة من الزبد في كل

منهما، ثم أشعلت اللهب، بعد ذلك كسرت بيضتين في وعاء أصفر، وبدأت خفقهما مع الحليب، وأضافت دقيق الذرة.

شعر بيتر بالنسيم البارد المفعم برائحة التربة والزبد الساخن. نظر إلى الجبيرة القوية وهي تجف، ورجله التي صارت بأمان الآن داخلها، ملفوفة في لحاف فولا سابقًا. التفت إلى لوحة البطاقات الفلسفية وقال: «أنا آسف عما بدر مني من قبل».

قالت وهي تومئ برأسها: «تقصد حديثك عن بطاقاتي الفلسفية. لا عليك يا بيتر، هذه مجرد بطاقات مدونة بها بعض الحقائق عن العالم، قواعد عامة. أما البطاقات التي تهمني، فهي تلك التي تعرض الحقائق الخاصة بي. وهذه أحتفظ بها في مكان آخر، سري».

«كيف ذلك؟».

«كيف تمثل أهمية بالنسبة لي، أم كيف تعرض بعض الحقائق الخاصة بي؟».

هز بيتر كتفيه، وقال: «كلاهما». وانحنى إلى الوراء، في انتظار ردها.

نظرت إليه فولا وهي تقطع شريحة من اللحم وتضعها في إحدى المقلاتين، ثم سكبت ثلاث مغارف من العجين في المقلاة الأخرى، بعد ذلك وضعت الوعاء جانبًا، وقالت: «سأحكي لك قصة».

«عندما خرجت من الخدمة، لم أتذكر حقيقة واحدة عن نفسي. وهذا ما يفعله التدريب. نفقد شعورنا بأنفسنا بوصفنا أفرادًا، بل نصبح مجرد قطع يمكنهم تشكيلها لخدمة مصلحتهم».

«في أول يوم لي بوصفي مدنية شعرت بالضياع؛ الضياع التام. ذهبت إلى محل بقالة، وحدقت إلى كل السلع أمامي، وظللت أتساءل لمن من المفترض أن أشتري البقالة. ما الذي

يمكن أن يملأ بطن أي شخص جائع؟ الحساء أم فطيرة؟ الفول أم الخبز؟ وفي ممر الخضراوات والفواكه، انهرت لأنني لم أتذكر شيئًا واحدًا عن نفسي».

صمتت فولا بعد ذلك، وأغلقت عينيها.

بعد لحظة حثها بيتر على الحديث قائلًا: «ماذا حدث؟».

«ما قصدك بماذا حدث؟».

«في المتجر. ماذا حدث في المتجر؟».

عادت إلى الموقد، وقلبت الفطائر، وهي تقول: «أوه، زبد الفول السوداني».

«تذكرت زبد الفول السوداني؟».

لوحت فولا بيديها في الهواء، وقالت: «تذكرت زبد الفول السوداني. وكنت محظوظة بذلك. جلست على أرضية محل البقالة المغطاة بمشمع متسخ مرسومة عليه مربعات باللونين الأحمر والأبيض، لن أنساه أبدًا - وأخذت أبكي. وقررت ألا أنهض حتى أتذكر نوع الطعام الذي أحبه».

كدست فولا الفطائر على طبق أزرق اللون، ثم توقفت. ظن بيتر أنها ربما عادت بالذاكرة إلى الوراء لمشهد أرضية متجر البقالة هذا. وشعر بسعادة غامرة لأنه لم يرَ مشهدًا كهذا من قبل؛ امرأة ناضجة، تبكي على الأرضية المتسخة لمتجر البقالة؛ سيدة مجنونة، ذات رجل مبتورة. شعر فجأة بأنه مهتم بأمرها، وتمنى ألا يكون أحد ضحك عليها، وأن تكون قد خرجت من الموقف بخير. قال: «وماذا بعد؟».

«أوه. فعلتها أخيرًا؛ تذكرت جدتي وهي تخبرني بأنني عندما تذوقت شطائر زبد الفول السوداني لأول مرة أحببتها للغاية، وكنت أرغب في الحصول على واحدة كل يوم. لذلك نهضت من على الأرض، واشتريت لنفسي الكثير من زبد الفول السوداني والخبز. ملأت

عربتي بهما؛ لأنني قررت ألا أعود حتى أعرف على وجه اليقين شيئًا آخر أحب تناوله. وكنت أخشى أن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا».

أضافت قطع اللحم إلى الطبق، وسكبت عليها مغرفة من صوص التفاح، وقدمتها له مع إبريق أبيض مملوء بشراب القيقب، وقالت: «تناول طعامك».

غمر بيتر الطبق بالشراب، وأمسك بالشوكة وتذوق الفطائر اللذيذة المقرمشة؛ أما اللحم فكان طريًّا ومالحًا عكس الشراب الحلو الذي أضافه. إنها أفضل وجبة تناولها على الإطلاق.

سألها عندما فرغ من تناول نصف الطبق: «وهل هذا ما حدث؟ هل مضى وقت طويل قبل أن تتذكري شيئًا آخر؟».

ضغطت فولا بإصبعها على الجبيرة، فوجدتها على وشك أن تجف، فقالت له: «ستجف قريبًا، ابقَ ساكنًا فترة أطول». ثم اتجهت ثانية نحو الموقد، وأعدت المزيد من اللحم، وسكبت المزيد من الخليط في المقلاة ثم أجابته قائلة: «نعم، مر وقت طويل. الناس من حولي أطلقوا على ما تعرضت له اسم اضطراب ما بعد الصدمة الناتج عن الحرب. وكانوا على حق، فقد كنت مريضة، لكنني كنت أعلم أن ما يحدث معي ليس بسبب الحرب نفسها، المشكلة أنني سمحت لهذه الحرب بأن تُنسيني نفسي. وعلى وجه التحديد، كنت أعاني اضطراب نسيان الهوية بعد الصدمة.

كان جدي في دار رعاية المسنين في ذلك الوقت، وكان يحتضر، فذهبت إلى منزله - الذي هو منزلي القديم أيضًا، فقد تولى جدي وجدتي مهمة تربيتي بضع سنوات - لأنظف لهما المنزل.

ذهبت لمنزله هذا في نهاية فصل الصيف. وكانت الحديقة في حالة من الفوضى، وإن كان هناك بعض ثمار الخوخ المتدلية من الشجر. وكان هذا ثاني أفضل شيء حدث لي بعد زبد الفول السوداني؛ لأنني تذكرت فجأة أنني أحببت تلك الثمار كثيرًا. اعتدت أن أتسلل في

منتصف الليل لقطفها. وكنت أتمدد على العشب تحت تلك الأشجار واضعة كومة من هذه الثمار على بطني بينما يحيطني وميض اليراعات وغناء الجنادب من كل مكان، وكنت آكل ثمار الخوخ كلها حتى تسيل عصارتها إلى أذني».

«لقد تذكرت ذلك بوضوح. استطعت شم رائحة تلك الذكرى، وسماع أصوات الماضي، وتذكر طعم الثمار الجميل. لكنني لم أستطع أن أفهم كيف تحولت تلك الفتاة إلى الشخص الذي ارتدى زي الحرب، وأمسك بالسلاح، وفعل كل ما فعلته في الحرب. لذلك رفعت يدي، والتقطت واحدة من تلك الثمار، واستلقيت على العشب وقضمت قطعة منها، و... ونجحت للمرة الثانية؛ اكتشفت جزءًا من نفسي القديمة».

أحضرت المقلاة، ووضعت المزيد من الفطائر واللحم في طبقه الفارغ، ثم عادت إلى الموقد.

قال بيتر: «توقفي».

«أتوقف عن ماذا؟ هذه نهاية القصة على أية حال».

«لا، أعني أن هذا الطعام كافٍ، شكرًا لك». وتمنى بيتر مرة أخرى أن يكون باكس تحت الطاولة، وتساءل ثانية عما إذا كان جائعًا. وبعد ذلك رأى أنه ربما لا يشعر بالجوع تلك الليلة على الأقل، إذ لا يزال هناك بعض الطعام في بطنه. وسألها وهو يتناول طعامه: «ماذا حدث بعد ذلك، هل كنت بخير؟».

وضعت فولا المقلاة في الحوض، وعادت لتجلس قبالته إلى جانب الطاولة وقالت: «يا لها من تفاصيل دقيقة؛ أن يفكر الشخص فيما كان يحب أن يتناوله من طعام. لقد كنت ضائعة، وبحاجة لاكتشاف الكثير عن نفسي. بداية من التفاصيل البسيطة حتى أكبر الحقائق: تُرى ما الذي كنت أؤمن به في أعماق نفسي؟».

ظن بيتر أنه يفهم قصدها فسألها: «أتتحدثين عن الحرب؟ الآن أنت مناهضة للحرب، أليس كذلك؟».

لمست فولا ذقنها بأصابعها وقالت: «هذه مسألة معقدة. ما أعنيه هو إخبار الحقيقة بشأنها، أن يتحدث الناس بصدق عن تكلفة الحرب. لقد استغرقت وقتًا طويلًا لاكتشاف الثمن الذي ندفعه». ثم مالت إلى الخلف وأضافت: «هذه مجرد مشكلة من مشكلات عدة. كان عليَّ أيضًا أن أكتشف من جديد كل ما هو صواب أو خطأ بالنسبة لي. لكنني لم أستطع فعل ذلك، إذ كان العالم صاخبًا جدًّا لدرجة منعتني من التفكير. لذلك انتقلت إلى منزل جدي. وقررت البقاء هناك حتى أعيد اكتشاف ذاتي وأعرف من أنا».

نظر بيتر إلى الخوخ المحفوظ في علب على الرف فوقه، ثم تذكر الأشجار المزهرة في البستان بعدها قال: «وما زلت فيه حتى الآن، هذا هو منزل جدك، أليس كذلك؟».

15

اخترقت أشعة الشمس ضباب الفجر. مضى الثعلبان ساعات وساعات في رحلتهما، لكن جراي ظل يتحرك ببطء، وكثيرًا ما كان يأخذ قسطًا من الراحة؛ لذلك لم يبلغا حوض الوادي إلا متأخرًا. معظم الوقت، كان باكس يسير بجانب الثعلب الأكبر سنًّا باحترام، لكنه أحيانًا كان يبتعد سابقًا إياه بأقصى سرعة مدة دقائق ليعود بعدها أدراجه.

لم يسبق له الركض من قبل، ليس بهذه الطريقة، فقد كان يتحرك سريعًا في محيط حدود قفصه أو عبر حديقة المنزل، لكن الركض بمثل هذه السرعة بدا مختلفًا: ظلت أرجله البيضاوية الأنيقة، التي شفيت الآن، تنزلق على الأرض، وتحتك بها، بينما يعدو أسرع فأسرع على مساحات شاسعة من العشب.

نشَّطت وجبة أمس حواسه، وغذت عضلاته، لكن البيض اختفى الآن من معدته وجلبت روائح الوادي الدافئ شعورًا قويًّا مجددًا بالجوع. حيثما يوجد البشر، سيكون هناك طعام. سأل: هل أمامنا مسافة طويلة؟

رد جراي: أمامنا يومان. ووصف مكانًا يحده النهر، ويتميز بجدرانه الحجرية القديمة، حيث تفوح رائحة القطران والقنب الخفيفة من الأرض. وأضاف: سوف نصل إليه عند الغسق. أما

المستوطنات البشرية فسيستغرق الوصول لها يومًا آخر بعد ذلك.

لا يتذكر باكس أي مستوطنات بشرية. أو نهر بالقرب من منزله، بل كل ما يتذكره هو الباب القريب، وأشجار البلوط التي تحيط بالمنزل، وبقايا حديقة الزهور التي لم يُسمح له بدخولها مطلقًا، والأصوات على جنبات الطريق. لقد شعر بأن هناك بشرًا آخرين يعيشون على طول هذا الطريق، لكنه لم يلتقِ بهم قط. وكانت كل هذه الذكريات في طريقها إلى التلاشي، وكذلك ذكرى حبسه في قفص. حتى إنه لم يعد قادرًا على تذكر كيف بدت السماء عبر السلك السداسي لهذا القفص.

لكن ما لم يستطع نسيانه هو صديقه ذو العينين العسليتين والحدقتين الدائريتين الغريبتين، والطريقة التي كان يغلق بها بيتر هاتين العينين، ويدفع رأسه إلى الخلف، ويصيح بصوت أشبه بالنباح عندما يكون مسرورًا؛ وكذلك رقبته المالحة التي تفوح منها رائحة العرق تارة، والصابون تارة أخرى؛ بالإضافة إلى يديه اللتين تتحركان دائمًا، وتفوح منهما رائحة الشيكولاتة التي أحبها باكس؛ ورائحة جلد القفازات، التي كرهها.

على مدار الرحلة أخذ باكس يفكر في لغز رائحة أخرى تفوح دومًا من صديقه - رائحته الأساسية التي هي عبارة عن مزيج من الحزن والحنين، ومصدرها ألم عميق ناجم عن أمر لم يستطع باكس معرفته قط.

في بعض الأحيان، كانت رائحة الحزن هذه تفوح بقوة وتنتشر في غرفة بيتر الصغيرة لدرجة أنها تطغى على أي رائحة أخرى، ومع ذلك لم يكن الصبي يحرك ساكنًا للحصول على الشيء الذي يريده بشدة ويحزنه لهذه الدرجة. وكلما شم باكس تلك الرائحة، أسرع أينما كان للعثور على بيتر ليجده مستلقيًا على فراشه، ممسكًا بأغراضه التي اعتاد أن يخفيها في الدرج السفلي لمكتبه، ووجهه يبدو عليه الاستياء الشديد. وعلى الفور يبدأ باكس مداعبة كم قميصه، أو يخدش الستائر، ثم يتظاهر بفقدان توازنه والسقوط على الأرض - أي فعل من شأنه أن يحث صديقه على اللعب معه. ولكن للأسف متى كانت رائحة الحزن

والحنين هذه قوية، لم تكن تنجح أي من حيله. وفي تلك الأيام، كان بيتر يطرد باكس من الغرفة ويغلق الباب.

عندما تذكر باكس كل ذلك، شعر برغبة قوية في الركض مرة أخرى، ولكن ليس على سبيل الاستمتاع، بل لهدف آخر، سأل: هذه الحرب الآتية، هل أنت متأكد من أنها ستدمر كل شيء في طريقها؟ حتى الأطفال الصغار؟

كل شيء. سوف تدمر كل شيء.

مرر باكس أنفه على جسد جراي، باحترام واستعجال في الوقت ذاته، إذ يجب عليهما أن يسرعا. حدق الثعلب الأكبر سنًّا إلى الثعلب الصغير لحظة، ثم بدأ يتحرك بخطوات سريعة. ومن ثم عبرا الخط الرطب في الوادي، وتسلقا المنحدرات الصخرية كتفًا إلى كتف هذه المرة.

وعلى قمة الارتفاع توقف الثعلبان، وأخذ جراي يلهث بشدة؛ فأمامها وقفت أشجار الصنوبر شامخة، وواعدة بمساحات كبيرة من الظل والبرودة. لكن آثار الأرجل هنا كانت واضحة للغاية: الثعلب المتحدي يصطاد في هذه المنطقة، والتهديد الآتي من رائحته كان واضحًا لا لبس فيه. وعلى الفور اهتزت الأرض نتيجة وقع خطوات معينة تقترب منهما. بصعوبة استعد باكس وجراي عندما اندفع الثعلب البني من بين الشجيرات، وهو يزم شفتيه تعبيرًا عن الانزعاج، ويؤرجح ذيله.

تراجع باكس للخلف، لكن جراي تقدم بهدوء، مع خفض جسده بدرجة كافية ليعلن أنه لا ينوي الاعتداء، بعدها قال: سوف نمر من هنا فقط.

تجاهل المتحدي التحية السلمية، وانقض على هذا الثعلب العجوز، وضربه بقوة في خاصرته، وثبَّته أرضًا، ثم غرس أنيابه في رقبته الرقيقة.

عندما صرخ جراي من الألم، ارتفعت الشعيرات التي تغطي فرو باكس، وتسارعت نبضات قلبه. وانطلقت شحنة من الغضب الشديد في عضلاته؛ إنه شعور لم يعتره من قبل إلا مرة واحدة: في الأيام الأولى مع بيتر ووالده، رفع الأب يده نحو الصبي، فانطلق باكس عبر الغرفة دون تفكير، وحاول أن يمزق بأسنانه سروال الرجل بمنتهى القوة. الآن، كما كانت الحال آنذاك، تقوس ظهره، وصدر صوت زمجرة خفيض في أعماق حلقه.

استدار المتحدي على حين غرة، فانقض عليه باكس سريعًا، وظلا يتدحرجان على الأرض، وأسنان كل منهما تحاول تمزيق أذن الآخر، كما حاول كل واحد منهما غرس مخالبه في بطن الآخر. كان الثعلب البني أكثر مهارة، لكن قتال باكس كان مدفوعًا بغريزة الحماية. وعندما شقت أسنان باكس طريقها إلى حلق الثعلب المتحدي، عوى على الفور وتراجع وهو يتأوه.

قفز باكس، ووقف أمام جراي ليحميه، كما فعل لحماية صديقه منذ زمن طويل، استقام ورفع صدره، وزمجر محذرًا، على الفور انسحب المتحدي وفر بعيدًا.

نفض باكس الدم عن عشرات الخدوش السطحية في جسده، ثم هم لتنظيف جرح جراي العميق وحثه على العودة.

رفض جراي قائلًا في تصميم: لا، سأسافر معك.

شق الاثنان طريقهما بخطى ثابتة مدة ساعة عبر الغابات. ومع أن باكس كان يكبح جماح نفسه ليواكب سرعة جراي المريض، شعر بالارتياح لأنهما على الأقل ما زالا يسيران معًا، ويكملان طريقهما. ولكن عندما هبطت مجموعة من الغربان على أغصان شجرة البقان، مال جراي إلى الخلف، وجلس عند قاعدتها، رافعًا أذنيه باهتمام ليستمع إلى الضجة.

انتظر باكس بفارغ الصبر. وبعد لحظة صاح الثعلب العجوز قائلًا: الحرب تقترب.

كيف عرفت ذلك؟

الغربان، أنصت لها.

رفع باكس رأسه، وأبصر المزيد من الطيور الصارخة وهي تهبط إلى الفروع السفلية، ثم ترفرف مرة أخرى إلى الأعلى في شكل إعصار من الغضب. قال إنهما مستاءون.

قامت الغربان بحركات مفزعة ومضطربة، حيث رفعت رءوسها، وثبتت أجنحتها، وظلت تصرخ بصوت عال. إن هذا التشويش أثار أعصاب باكس وجعله يقول هناك اضطراب ما.

انتبه أكثر، ففهم، واستوعب شيئًا أصابه بالضيق. حاول أن يصف الصورة التي تكوَّنت في ذهنه: الهواء المشحون برائحة الموت والنار والدخان. والنهر الذي يجري بلون الدم، والأرض الملطخة بالدماء، إنها الفوضى التي تعم كل مكان. قال: حل الدمار بكل شيء، وترك بصمته على ألياف الأشجار، والغيوم، وحتى الهواء.

نعم. إنها الحرب. أين هي الآن؟

حاول باكس أن يتمالك نفسه مرة أخرى، قال: الغرب. لا تزال بعيدة، لكنها تقترب. والآن جاءت مجموعة صغيرة من المتعطشين للحرب من الجنوب للمواجهة.

من الجنوب.

بدأ باكس يتحرك متحكمًا في خطواته، أما جراي فقد كافح من أجل الوقوف، والارتكاز على أرجله. فطلب منه باكس مرة أخرى أن يعود أدراجه ليكمل هو الطريق بمفرده، لكن جراي رفض العودة إلى المنزل. انطلقا ثانية، ومرة أخرى لكن بوتيرة أبطأ مما أراد باكس. ولم يتوقفا سوى لتناول وجبات من اليرقات والتوت، ومتى فعلا ذلك، كان باكس يبحث في الهواء عن أي أثر لرائحة صديقه وصوته، لكنه للأسف لم يعثر له على أي أثر.

رفع أنفه، وأطلق عواءً عميقًا مؤلمًا.

لقد مر وقت طويل منذ أن رأى صديقه آخر مرة. فيما مضى، لم يفترقا قط أكثر من نصف يوم. غالبًا، كان بيتر يغادر في الصباح، ويمضي باكس الوقت في قفصه في الحديقة في حزن شديد حتى تحل فترة ما بعد الظهر، عندما يعود بيتر إلى المنزل، تفوح منه رائحة الأطفال الآخرين، والدخان الغريب للحافلة الصفراء الكبيرة التي أقلته. وفور عودته، يحاول باكس أن يهدأ، ويطمئن عليه من خلال فحصه بحثًا عن أي علامة إصابة أو جرح، وما إن يرى أنه على ما يرام يشعر بالاسترخاء ويبدأ اللعب.

وها هي فترة الظهيرة الآن، رفع باكس صوته مرة أخرى مناديًا، وهذه المرة رفع جراي صوته تعبيرًا عن حزنه وألمه. وما إن عاد باكس إلى الطريق لاستئناف الرحلة، تعثر جراي.

رأى باكس أن هذا الثعلب الجريح بحاجة إلى الراحة، فقاده إلى بقعة مظلمة مغطاة بالطحالب تحت شجرة صنوبر. وضع جراي خده على كفيه، وقبل أن ينتهي باكس من تنظيف جرحه مرة أخرى، وجده قد استغرق في نوم عميق.

وبينما كان باكس يراقب المكان، أخذ يفكر في الوقت الممتع الذي سيمضيه مع صديقه عندما يعثر عليه: سوف يتدحرجان معًا في الخارج، ويلعبان ألعاب الصيد، ويستكشفان الفناء العشبي وجزءًا من الغابة خلفه. واستغرق في التفكير في الطرق التي سيكافئه بها بيتر: تحيته بابتسامة عريضة؛ مداعبة رقبته؛ والتمسيد بأصابعه على جسده بقوة، كما تذكر ما كان يشعر به من سلام وهدوء عند الاستلقاء عند رجلي صديقه أمام المدفأة.

هدأت هذه الأفكار روع باكس، فغفا وهو يتذكر مفاصل يد بيتر وهي تضغط بقوة على بشرته بين عظم الكتف، بدا الشعور حقيقيًا وواقعيًا لدرجة أن فروه بدأ يتحرك. وفجأة جلب النسيم رائحة دعته إلى اليقظة والانتباه فورًا.

إنها رائحة لحم، لحم مشوي، وهو النوع الذي كان يطبخه أصدقاؤه البشر أحيانًا على النار في حديقة المنزل. وكان صديقه يطعمه قطعًا من هذا اللحم المليء بالدهون. بعدها يمضي

باكس عدة أيام في البحث بين الرماد عن أي بقايا تركت، فحتى العظام المتفحمة كانت بمثابة كنز بالنسبة له.

نهض باكس ووقف على رجليه ليتحقق من الشم، نعم إنه لحم مشوي. وعلى الفور نكز جراي، وقال: انهض، فالبشر قريبون.

تحرك جراي، بسهولة أكبر بعدما حظي بقسط من الراحة، وواصل الثعلبان مسيرتهما بخطى سريعة، ومع اقترابهما، تقدم باكس للأمام. جسده كان نحيفًا، حيث احترق مخزون الدهون لديه بسبب قلة الطعام على مدى أيام. أخذ يركض كما ينبغي للثعالب أن تركض - جسد هزيل ينطلق عبر الهواء بسرعة تجعل فروه يتمايل. فرحة الركض بسرعة جديدة، والخوف من قدوم الليل، والأمل في التئام شمله مع صديقه - هذه العوامل حولته إلى شيء أشبه بشعلة نار تنطلق بين الأشجار. شيء لا يمكن للجاذبية أن تلمسه. وشعر بأن بإمكانه الجري هكذا إلى الأبد.

ظل هكذا حتى خرج من الغابة، ورأى أمامه نهرًا واسعًا، يمتد من خلفه حقل واضح المعالم، بعض أجزائه مستوية، وبعضها الآخر مرتفع في شكل جدران حجرية ضخمة. في هذا الوقت حل الغسق، وعند الزاوية البعيدة بالقرب من الأنقاض الحجرية تجمع عشرات الرجال حول النار لتناول الطعام. وخلفهم كانت هناك مجموعة من الخيام والعديد من الحافلات الكبيرة.

تحول اتجاه الرياح إلى الشرق. وكان دخان اللحم المشوي لا يزال عالقًا بكثافة في الهواء، لكن باكس لم يشم سوى رائحة البشر العامة. ظل يقفز صعودًا وهبوطًا على حافة النهر، في إحباط شديد، لكنه لم يستطع من أي اتجاه تمييز روائح البشر بعضها من بعض.

لكنه على الأقل أدرك أن صديقه ليس هناك. ولم يكن أي من هؤلاء البشر يتمتع بهيئته الجسمانية النحيلة، أو يتحرك بالطاقة والسرعة نفسيهما، أو يقف مثله - مستقيمًا ورأسه يميل لأسفل. عندئذ شعر بارتياح لأن الروائح الأخرى الآتية من المعسكر - الدخان، والوقود،

والمعادن المحترقة، والأسلاك الكهربائية المحترقة - تبدو خطيرة، ولو أن بيتر كان هنا لرغب في أن يبعده عنها.

خرج جراي من الغابة يترنح، وسقط على ضفة النهر بجوار باكس. وأخذ الثعلبان يراقبان معًا الرجال الذين انتهوا من تناول الطعام، لكنهم ظلوا جالسين حول النار يتحدثون ويضحكون.

سأل باكس هل هؤلاء هم المتعطشون للحرب؟ حيث أراد أن يعرف هذه المعلومة.

عقد الثعلب العجوز ساقيه الأماميتين تحت صدره، ومال عليهما وهو يقول نعم، لكنهم سلميون الآن. أتذكر هذا السلام. كان البشر الذين عشت معهم يتجمعون في نهاية كل يوم مثل هؤلاء المجتمعين بجوار النهر.

وفجأة تذكر باكس: لقد رأى هو أيضًا مشهدًا مشابهًا. صحيح أنه لم يحدث كثيرًا منذ عدة سنوات، ولكن في بعض الأحيان في نهاية اليوم، كان صديقاه البشريان يجلسان معًا على فراش صديقه، حيث يضع الأب على حجره صندوقًا صلبًا، مسطحًا، ونحيلًا، ومصنوعًا من عدة طبقات من الورق، هذا الورق الذي يشبه فراش باكس، لكنه غير ممزق، وبه علامات كثيرة. كان الأب وابنه يحركان هذه الطبقات، واحدة تلو الأخرى، ويدرسانها. تذكر باكس كم كانا أكثر ارتباطًا في تلك الأمسيات، وبفضل انسجامهما في تلك الأوقات كان يستطيع أن يخفف من حذره.

شعر باكس بإحساس غريب، كما لو أن عظام صدره لم تعد كبيرة بما يكفي لاتساع قلبه.

التفت الثعلبان إلى الرجال، فوجدا بعضهم لا يزال جالسًا حول النار، بينما كان الآخرون يتنقلون بالمصابيح بين المعدات والخيام. ومع حلول الظلام الدامس، نهض الرجال الباقون الجالسون بجانب النار. وتخلصوا من أكواب القهوة، ونثروا التراب فوق ألسنة اللهب، بعدها اختبأوا في الخيام.

نهض جراي أيضًا، وتحرك ليحتمي بغصن شجرة الشوكران المائل. افترش الأرض المغطاة بورق الصنوبر، ولف جسده حتى صار أنفه مختبئًا أسفل ذيله.

تسببت رائحة اللحم في شعور باكس بالجوع الشديد، لدرجة أنه لم يستطع الجلوس ليحظى بقسط من الراحة، بل هرول إلى حافة النهر، فوجد تيار المياه هادئًا؛ لذا غمس رأسه وشرب، ثم قفز إلى صخرة زلقة بسبب الطحالب التي تغطيها وإن كان يمكنه الوقوف عليها بثبات. بعد ذلك ثبت نظره على وهج الجمر الذي يكاد ينطفئ، وقفز، فتناثر رذاذ الماء، ومرة أخرى فعل جسده ما لم يفعله من قبل، وكان يرغب في فعله طوال الوقت: أن يسبح. وبعد لحظة، تسلق ضفة النهر، ونفض الماء عن جسده.

لم يصدر أي صوت أو حركة من الخيام. فتسلل باكس بصمت إلى الحقل، وتسلق الصخور. وظل يدور حول حدود المعسكر، واقترب أكثر فأكثر من مكان النار.

كان الشعور بالخطر قويًا. وبدا الفرار أمرًا حتميًا. فهو أولًا وأخيرًا معتاد اثنين فقط من البشر - أحدهما يحبه، والآخر يتحمله. تسلل عدة مرات إلى حافة النار، وشم رائحة اللحم الممزوجة برائحة الخطر التي تفوح من المتعطشين للحرب، بعدها قفز بعيدًا.

لم يستطع باكس مقاومة العظم الملقى على الأرض إذ لا تزال رائحة الدهن تفوح منه؛ لذا اندفع نحو المعسكر. وبينما كان يتناول بقايا قطع اللحم المغطاة بالرمال لكنها ظلت دافئة، فزع من صوت القماش وهو يتحرك، وتجمد في مكانه.

خرج رجل من إحدى الخيام. وبينما كان ضوء المصباح يوضح هيئته، تمطى ليغطي ظله الطويل الثعلب المستغرق في المراقبة. ثم استدار هذا الرجل وقضى حاجته بالقرب من إحدى الشجيرات، فانتقلت رائحة بوله إلى باكس، الذي شعر على الفور باليقظة والانتباه:

يا إلهي إنه والد صديقه!

16

«**هذا** يكفي».

هذه العبارة بالإضافة إلى يد فولا التي ربتت كتفه، جعلته يتنفس الصعداء. فرجله كانت تخفق من شدة الألم، فضلًا عما شعر به من آلام قوية في كتفيه، والتهاب في إبطيه وصل لحد النزف. لقد أنهكه قضاء يومين في معسكر فولا - الاسم السري الذي أطلقه على جلسات التعذيب التي كان يضطر خلالها لتسلق المنحدر، وجر نفسه عبر الأرض الصخرية مستندًا إلى مرفقيه، ليرمي جبالًا من القش مع الحفاظ على توازنه وهو يقف على رجل واحدة. بعدها كان يلتفت ويواجه الكوخ، مدركًا فجأة أنه ليس على يقين بقدرته على تحمل كل هذا.

ذات يوم نظر إلى سقف الكوخ، وعلى طول المسافة الممتدة وراءه رأى التلال المغطاة بالسحب الممطرة، وأدرك أن الليل قد اقترب. عندها فكر في باكس، وخشي أن يكون مبتلًا، ويشعر بالبرد، لذا قال: «سوف أتحمل وأواصل ما بدأته».

«تمهل، فالعجلة قد تؤدي إلى نتائج عكسية».

أومأ بيتر برأسه، وخطا خطوة نحو الكوخ.

لكن فولا هزت رأسها، وقالت: «ليس بعد». ثم أشارت إلى الحظيرة، وأضافت: «الشرط الثالث».

بدت الحظيرة بعيدة جدًّا. نظر بيتر مرة أخرى إلى الكوخ. وفي تلك اللحظة، أراد أن يرتمي بجسده على تلك الأرجوحة، لكنه تجاهل ذلك الشعور، وغرس طرفي عكازيه في الأرض قائلًا: «ما هو؟».

«ليس بالمهمة الصعبة، سوف تصنع بعض الدمى من أجلي. الدمى المتحركة. هل ترى أنها مهمة صعبة للغاية؟».

«الدمى المتحركة؟ لم أقتنِ قط دمى متحركة».

«هل تعرف ما هي؟».

«بالتأكيد.» تخيل الدميتين اللتين رآهما عن قرب: بانش وجودي، ذواتي الذقن الطويل والأنف الحاد، وهما الدميتان اللتان رآهما في معرض في الشارع عندما كان طفلًا صغيرًا. وتذكر عيون الدميتين المتجمدة، وجسديهما الأشبه بالهيكل العظمي وكأنهما فئران جائعة. ظل محرك الدمى يدفعهما عبر المسرح في حركات مضطربة جعلته يعاني الكوابيس أسابيع. سألها: «لكن لماذا تريدينها؟».

نظرت إليه فولا لحظة قبل أن تجيب: «لقد تذكرت حقيقة أخرى من الماضي: كنت أصنع بعض الدمى المتحركة لبنات أخي الصغيرات وأنا في فترة المراهقة. تذكرت كم أحببت نحت الخشب».

أخرجت وشاحين من جيب في ملابسها وسلمتهما إليه وهي تتنهد قائلة: «قم بلفهما حول المقبضين، فأنت لا تزال تعتمد على العكازين. وحاول أن تحمل وزنك على راحتي يديك أيها الطفل. بعدها وزع ضغط جسدك على ذراعيك، حتى عندما تكون واقفًا هناك».

لطف فولا الذي يأتي فجأة يصيب بيتر بنوع من الدهشة. ففي لحظة معينة تصرخ فيه عدة مرات، أو تلوح بأصابعها في وجهه، وتحذره من الاقتراب أكثر من اللازم - وكانت طريقتها هذه مريحة، إذ جعلته يشعر بأنه عاد لمنزله ولتلقي الأوامر مرة ثانية - لكن في اللحظة التالية، يجدها تضع مرهمها على كتفيه المتألمتين، أو تزيل الخشب الصغير البارز من عكازيه، أو تترك مهماتها المنزلية لإعداد كوب من الشيكولاتة الساخنة له، وفي هذه اللحظة يدرك مدى اهتمامها به، والجهد الذي تبذله كي تمنحه القوة وتساعده على الحركة، فيشعر بالذنب.

ها هو الآن يشعر بالذنب، وهو يلف قطعتي القماش الناعمة حول المقبضين؛ لذا أخبرها بما اعتقد أنها تريد سماعه: «لا بد أن بنات أخيك كن سعيدات حقًّا بالحصول على مثل هذه الهدايا الرائعة». لكنه في أعماق نفسه كان يشك في ذلك، بل يظن أن بنات أخيها قمن على الأرجح بوضع هذه الدمى الأشبه بالهيكل العظمي وذات العيون المتجمدة في سلة المهملات في الليلة الأولى التي حصلن عليها فيها. وهذا أفضل بالطبع لتجنب الأحلام السيئة.

هزت فولا كتفيها، لكن بيتر شعر بأن كلماته قد أسعدتها، حتى إن كانت تخفي هذه السعادة، ومن ثم هدأ شعوره بالذنب. وزع ضغط وزنه على راحتي يديه المتألمتين وتبعها إلى الحظيرة. وعند المدخل، توقف مؤقتًا ليستنشق الهواء البارد المحمل برائحة الخشب، والقش، وزيت بذر الكتان، والورنيش. كل الروائح الطيبة التي استطاع بيتر تمييزها بسهولة. بعدها تحرك ودخل الحظيرة.

اتجهت فولا نحو الجدار المقابل، ذلك المغطى بالخيش. بينما تراجع بيتر عدة خطوات. لقد أثار هذا الجدار توتره من قبل. وما إن سحبت القماش جانبًا، حتى كاد يفقد توازنه، وكأن ما رآه صعقه بقوة. بدت الدمى - الدمى المتحركة، رأى الآن أنها مجرد دمى متحركة معلقة على الحائط - حقيقية بشكل مخيف، ومع ذلك لا تشبه أي شيء رآه من قبل.

اقترب أكثر، وأخذ يحدث نفسه.

«ما هذا الشيء في عيونها؟».

«مجوهرات جدتي. كانت تمتلك قلادات طويلة مصنوعة من الياقوت. وضعت تلك الخرزات في عيونها. إنها تومض في الضوء، وتجعل أصدقائي هؤلاء يبدون أحياء».

صمت بيتر مرة أخرى، ولم تزعجه فولا وهو يتفحص تلك الدمى المعلقة أمامه.

خمس من هذه الدمى كانت على هيئة بشر؛ ملك وملكة، وطفل، وقرصان أو بحار، وساحرة، والبقية كانت على شكل حيوانات. كانت رءوسها جميعًا مصنوعة من الخشب، بحجم رأس الإنسان تقريبًا، وعيونها كانت واسعة. أما أجسامها، فكانت مصنوعة من مواد مختلفة. من بين الحيوانات رأى سلحفاة مغطاة بثمرة القرع الأخضر والبرتقالي. وقد استخدمت فولا قشور الصنوبر كحراشف للدمية التي على شكل ثعبان. بالإضافة إلى أن جميع الدمى تقريبًا كانت ترتدي تشكيلة مختلفة من الريش، إما في هيئة شعر، أو تيجان للرأس، أو معاطف، أو سراويل. وبجوار كل دمية متحركة كانت هناك مجموعة من الألواح والعصي معلقة بشكل منظم على الأوتاد، وقد ربطت هذه الألواح معًا بحبل أسود رفيع.

في وسط الجدار عُلقت ما ظن بيتر أنها أكبر دمية، وكانت مغطاة بقطعة منفصلة من القماش. وما إن أزالت فولا الغطاء عنها حتى لهث بيتر.

كان جناحا الطائر الضخم رائعين، وعلى الأرجح يبلغ طولهما نحو متر ونصف المتر عند مدهما بشكل تام. مئات من الريش داكن اللون المتمازج معًا بشكل أنيق في صفوف متقنة، وأطرافهما مطلية باللون الأحمر، الأشبه بلهب النار. رفعته فولا من مكانه، وحملته إلى بيتر قائلة: «معظم الدمى لها رأس وكتف، أما هذا، فيحتاج إلى الطيران، لذا صنعت له مفصلًا عند جناحيه. وعندما يحلق، ستشعر على الأرجح بالرياح وهي تهب. هيا يمكنك لمسه».

اقترب بيتر ولمس بأطراف أصابعه جناح الطائر المزود بالريش، ثم منقاره الخشبي الحاد المطلي باللون الذهبي اللامع. ورأى كيف تلمع عيناه السوداوان. بعدها خفض يده وسألها:

«إذن، ما الذي يجب أن أفعله بهذا؟».

أشارت فولا إلى كومة القش، وقالت: «يمكنك الجلوس أولًا، بعدها سأخبرك بالقصة من البداية».

غرق بيتر وسط كومة من القش، ممتنًّا لأنه سيحظى بقسط من الراحة. وشاهد فولا وهي تعلق الطائر الضخم من جديد، بعد ذلك أخرجت كتابًا صغيرًا من فتحة في الجدار، ثم جاءت وجلست بجانبه محتضنة الكتاب بين يديها وهي تقول: «لقد قتلت شخصًا ما».

رفعت بصرها. ولم يتمكن بيتر من إخفاء الصدمة التي بدت على وجهه.

تنهدت بصعوبة تنهيدة مليئة بالمرارة, ثم قالت: «بغض النظر عن المحاضرات اللعينة التي يلقونها عليك بشأن تعلم الحرف وتحقيق أقصى استفادة من قدراتك الكامنة، فأنت هناك أداة للقتل. لتَقتل أو تُقتل، تلك هي القاعدة العامة في الحرب».

هذا الكلام ليس صحيحًا، ووالد بيتر خير مثال على ذلك. لقد ضغط بيتر على يده، وسأله ذات مرة: «أنت لن تقاتل، أليس كذلك؟»، ضحك والده وقال لا، وأخبره بأنه سيقوم بالمهمة التي يؤديها وهو مدني: مد الأسلاك.

ومع ذلك، لم يكلف بيتر نفسه عناء تصحيح معلومات فولا؛ لأن النظرة على وجهها كانت محبطة للغاية، قال: «أنتِ قتلت شخصًا ما».

«ربما قتلت الكثير من الناس، أو على الأقل أسهمت في وفاتهم. لكن هذا الشخص تحديدًا له وضع خاص... لقد تفحصت جسده، فقد جرى تدريبنا على البحث عن الأسلحة، أي شيء يمكننا استخدامه».

«جلست على ركبتي. وكان عليَّ أن أتحسس جسده، وأبحث عن تلك الأسلحة. أتذكر أنني صدمت من ملمسه - مع أنني طبيبة، لكنني توقعت أن يكون جسده أشبه بالبلاستيك،

وليس حقيقيًّا. تلك هي الطريقة التي علمونا أن نفكر بها في العدو أثناء تدريبنا، لكنه كان... كان دافئًا. وكان الجو باردًا من حولنا، أما جسده، فكان يشع دفئًا. وكأن حياته كانت تتبخر من جسده. أخذت ألمسه دون إذن منه. لقد قتلته، لكن ما أزعجني هو أنه فقد الحق في قبول أو رفض ما يحدث له. ربما تعتقد أن هذا جنون، أليس كذلك؟».

شعر بيتر بجفاف فمه، ولم يعرف ماذا يقول. وفجأة تذكر المعالجة ذات العينين المليئتين بالعطف والود، وأدرك ما عليه قوله: «لا بد أن هذا كان صعبًا عليك».

نظرت إليه فولا، وقد ارتسم على وجهها تعبير مفاجئ ينم عن الارتياح. أومأت برأسها وقالت: «فجأة، شعرت بلهفة لمعرفة من يكون. ومن أين أتى، وما اهتماماته، ومن يحب. كان فمه مفتوحًا، كما لو أنه يريد التحدث معي. وأدركت شيئًا حينها: على الرغم من أنه كان رجلًا، وينتمي لعرق مختلف، ونشأ في بلد مختلف، فإنه ربما يكون هناك الكثير من الأشياء المشتركة بيننا. أشياء مهمة، أهم من الجيش الذي قام بتجنيدنا. شعرت بأننا أشبه بروح واحدة في جسدين مختلفين. لكنني قتلته، ومن ثم لن أعرف أبدًا أي شيء عنه. لقد فتشت جثمانه، ليس بحثًا عن أسلحة، بل بحثًا عن أدلة على هويته». صمتت فولا، وكان وجهها يشع حزنًا وكآبة لدرجة أن بيتر أراد أن يشيح بنظره عنها.

«و ...».

رفعت فولا الكتاب وقالت: «لقد عثرت في جيبه على هذا الكتاب رحلات السندباد السبع، جزء من سلسلة ألف ليلة وليلة. لقد حمله معه إلى الحرب، لذا لا بد أنه كان يعني له شيئًا ما. إنها نسخة قديمة، لذا ربما كانت المفضلة لديه عندما كان صبيًّا. كان سندباد شجاعًا، لذا ربما كان يستمد شجاعته من قصصه. أو ربما أراد فقط أن يتذكر أنه ذات يوم كان طفلًا صغيرًا يقرأ الكتب ويشعر بالأمان. وقد وضعت إشارة مرجعية على صفحة: قصة هروب سندباد من عش الرخ العملاق. أظن أن هذه القصة ساعدته على اعتقاد أنه في يوم من الأيام سيهرب هو أيضًا ويعود إلى المنزل».

نهضت فولا. ورفعت الدمية المجنحة الضخمة عن الحائط مرة أخرى وقالت: «طائر الرخ، يمكن لهذا الطائر أن يخطف الأفيال بمخالبه. انظر إليه». حملت الطائر، واتجهت به نحو بيتر، وأدارت منقاره لمواجهته.

كانت نظرته شرسة للغاية لدرجة أن بيتر انكمش، وعاد للخلف، وسألها مرة أخرى: «ما الذي يجب عليَّ أن أفعله بهذا؟».

«هذا الكتاب كان مهمًا جدًا للجندي لدرجة أنه حمله معه إلى الحرب. منذ اللحظة التي أزهقت فيها روحه رأيت أنني مدينة له بشيء ما، ربما برواية القصة التي تعني له الكثير. لقد نحت كل هذه الدمى، وأخذت أروي قصة هروب السندباد من طائر الرخ هنا في حظيرتي مدة تقارب العشرين عامًا». وسلمت فولا أدوات التحكم بالدمي لبيتر، وأردفت: «والآن، أخيرًا، سأجلس وأشاهد العرض بنفسي».

17

شاهد باكس جراي وهو يركض على حافة النهر، ثم يتعثر ويعود أدراجه. قضى الثعلبان يومين للاستراحة بالقرب من معسكر المتعطشين للحرب، لكن الحالة الصحية لجراي لم تتحسن. وعندما وصل الثعلب العجوز إلى ظل غصن شجرة الشوكران، انهار. بدا عليه وعلى عينيه الغائرتين الشعور بالتعب والإرهاق لدرجة أنه بصعوبة تحرك أثناء تنظيف باكس رقبته مرة أخرى.

وجد باكس أن الجرح صار ملتهبًا للغاية، فقال اختبئ هنا، واحصل على قسط من الراحة.

ترك جراي وتسلق النهر بعكس اتجاه التيار إلى مكان اكتشفه، حيث يضيق النهر عند وادٍ عميق. وكانت الشجيرات المحيطة بالمكان كثيفة بما يكفي ليتمكن من التحرك دون أن يراه البشر. لكن لم يحالفه الحظ في الصيد، إذ كانت المنطقة تعج بالفئران والأرانب، لكنها هربت جميعًا من محاولاته الخرقاء للإمساك بها. وبالإضافة إلى الخنافس والتوت غير الناضج، تمكن من صيد عدد قليل من جراد البحر، لكن جراي رفض تناوله.

قضى باكس نصف ساعة في المحاولة، حيث طارد فئران الحقل السريعة، وطيور النمنمة القافزة، بل طارد ضفدعًا يتشمس. لكن في كل مرة يقفز فيها، يجد أنه يطبق فكيه على

الهواء. أخذ شعوره بالجوع يزداد مع كل محاولة فاشلة. لقد كان يريد اللحم لنفسه ولرفيقه الضعيف. وقد عذبته الروائح الشهية الآتية من المعسكر.

قفز في الماء. وواجه التيار السريع، ولكن في منتصف الطريق، استقرت ثلاث صخور بعضها فوق بعض لتشكل موقعًا آمنًا، جلس عليها ومن هناك أصبحت لديه رؤية واضحة للبشر على الجانب الآخر.

لقد زاد عددهم، كان هناك عدد قليل من النساء بينهم، أما الأغلبية العظمى منهم فكانت من الرجال. حدق باكس إليهم جميعًا بحثًا عن صديقه، خاصة أن والده لا يزال هناك، ولأنه شعر بأن المنزل ليس بعيدًا، لكنه لم يرَ سوى مجموعة من البشر البالغين.

كان الكثير منهم في الحقل الآن. والبعض على مقربة من ضفة النهر يمدون الأسلاك بالقرب من جراي، ما أثار قلق باكس، لكن الجنود لم يبدوا مهتمين بأي شيء سوى عملهم.

لقد حفظ باكس روتينهم، ففي كل صباح، يدخل اثنان منهم إلى الخيمة التي تخبره حواسه بأنها مليئة بالطعام، ثم يبدأ هذان الاثنان إعداد الطعام على النار، ثم يجتمع الجنود الآخرون ليتناولوه. بعدها ينشغل الجميع في العمل - سواء في الحقل، أو على المركبات، أو في تفريغ المزيد والمزيد من المعدات - وما من أحد منهم يقترب من خيمة الطعام ثانية حتى الغسق، عندما يقوم الشخصان نفسيهما بطهي طعام المساء، ودعوة الجميع للتجمع.

التوقيت الآن منتصف الظهيرة، ظل باكس يراقبهم فترة أطول للتأكد من انشغالهم جميعًا، ثم عبر إلى الجانب الآخر عن طريق جذع شجرة مائل. ولصق بطنه بالأرض، وشق طريقه عبر التل إلى بقعة قريبة من المصنع القديم.

هناك توقف مؤقتًا لمراقبة المشهد، رأى ثلاثة رجال متمركزين في المعسكر أسفله مباشرة، لقد تجمعوا حول المعدات الجديدة على الحافة الجنوبية للمصنع، حيث يلتقي جداران سميكان.

وكانت بقية البشر في الحقل، بعضهم مشغول بمد بكرات من الأسلاك على الحفر التي حفروها بالقرب من ضفة النهر، والبعض الآخر مشغول بإنزال صناديق في تلك الحفر، ثم ردمها بالتراب.

عبر اثنان منهم النهر، لحفر بعض الحفر على الضفة البعيدة، وبعضها أسفل شجرة الشوكران مباشرة حيث يستريح جراي. عرف باكس أن البشر لن يشموا رائحة جراي، وأن جراي نفسه لن يغامر بالخروج وهم على مقربة منه. ومع ذلك، ظل يشعر بالقلق، وقرر أن ينقل الثعلب الجريح إلى مكان أكثر أمانًا الليلة.

اندفع باكس نحو الحافة الشمالية لأطلال المصنع بالقرب من الخيام والمركبات. وهناك، رأى شجرة بتولا مائلة على الجدار الحجري.

توقف باكس برهة.

لقد كان هنا من قبل. هذا المكان؛ الشجرة ذات اللحاء الأبيض المتقشر، والجدران، والحقل أدناه الذي تفوح منه رائحة البصل البري وعشب التيموثي، والقليل من رائحة القطران - تعرف على كل هذا. لقد أتى إلى هنا مع صديقه منذ فترة طويلة، في صغره.

تذكر المشهد بكل تفاصيله، وتذكر أيضًا العصي. كان بيتر وثلاثة صبية آخرين يركضون بين هذه الجدران الحجرية، ويهتفون ويلوحون بالعصي. كانوا يضحكون ويمرحون، لكن التلويح بالعصي جعل باكس يشعر بعدم الارتياح. وظل يتبع بيتر، ويصيح في وجه الأولاد الآخرين عندما يقتربون منه كثيرًا، حتى اضطر بيتر لربطه بهذه الشجرة تحديدًا. وظل باكس يتذمر ويعض الحبل بقية فترة ما بعد الظهر.

لقد زار بيتر هذا المكان في الماضي. وظل باكس يشم الشجرة وقاعدة الجدار جيدًا، لكنه لم يتمكن الآن من العثور على أي أثر لصديقه. أما المتعطشون للحرب، فكانت رائحتهم تملأ المكان؛ رائحة قوية وخطيرة أدت لشعور باكس باضطراب في معدته.

راقب الخيام حتى تأكد من عدم وجود أي حركة حولها. ثم اندفع نحو خيمة الطعام. وعند أحد أركانها توقف مؤقتًا، ليتأكد مرة أخرى من عدم وجود أحد، ثم انزلق من تحت أحد جوانبها.

وفي الداخل، رأى اللحوم معلقة فوق طاولات مليئة بالبصل والبطاطس - يا لها من غنيمة. قفز باكس وأمسك بقطعة من اللحم، وانتزعها من خطافها، وانطلق خارج الخيمة والجائزة الثقيلة في فمه.

ركض بقوة وصعد التل خلف الجدران، ثم شق طريقه وسط الأشجار الكثيفة. وعند النهر، أسقط قطعة اللحم من فمه واستمتع بتناول وجبة من اللحم المملح. بعدها قسم الجزء المتبقي إلى قطعتين كبيرتين، ودفنهما في التربة الرملية على حافة النهر، ثم وضع علامات معينة على المخبأ.

التقط بعض العظام المتبقية المليئة باللحم والدهون من شأنها أن تغذي جراي عدة أيام، وحملها فوق الجذع المتداعي. توقف لحظة عند كومة الصخور لتفقد المعسكر مرة أخرى.

لقد اكتشف أن البشر اختفوا. وشم في الهواء رائحة جديدة، خفيفة لكن خطيرة. وعلى الفور تعرف عليها؛ عندما كان عمره سنة، أحضر الأب مروحة إلى غرفة ابنه. كان باكس يكره الرائحة الكهربائية البشعة المنبعثة من السلك الموجود بين المروحة والجدار. وفي إحدى الليالي، صارت الرائحة خطيرة للغاية، ما جعل باكس ينقض على السلك ويمضغه كما لو كان يقتل ثعبانًا.

كانت غريزة باكس تحثه على الهروب من الرائحة الخطيرة، لكنه لن يغادر دون جراي. وفي تلك اللحظة رأى الثعلب العجوز يترنح خارجًا من تحت غصن شجرة الشوكران، عائدًا إلى النهر.

تعثر جراي. وعلى الفور، انبعثت رائحة الهواء المحترق من المكان كصاعقة برق، وفي اللحظة نفسها انفجرت ضفة النهر. وتطايرت التربة والصخور، ومياه النهر، والعشب في غضب، ثم سقطت مرة أخرى على الأرض المليئة بالحفر كأنها زخَّات مطر أسود.

أسقط باكس اللحم من فمه، وصاح مناديًا جراي. فسمع صدى عوائه في ظل الهدوء المرعب من حوله.

تدفق المتعطشون للحرب من خلف الجدران. ومن صرخاتهم، عرف باكس أنهم يشعرون بالحماس. ركضوا عبر الحقل، واتجهوا نحو النهر، وانتشروا على الضفة المغطاة بالدخان. وبعد عدة دقائق من البحث، عادوا إلى المخيم.

ما إن اختفى آخر واحد منهم عن الأنظار، انطلق باكس نحو الوادي العميق الضيق.

وجد غصن شوكران كبيرًا واقعًا على صدر جراي، بعدما انفصل عن الشجرة. وتحسس باكس خد صديقه المغطى بالطين، وربَّت بكفه جنبه، واقترب من أنفه، فشعر بأنه ما زال يتنفس، ولكن بصعوبة شديدة.

استلقى باكس بجوار الثعلب العجوز، وضغط على جسده بقوة ليشعره بوجوده. لم يكن بوسعه تقديم أي شيء آخر سوى الدعم، وفي الوقت نفسه لم يُطلب منه شيء آخر سواه.

شاركه جراي بعض ذكرياته الجميلة، حيث سمع أغنية طائر القطب الشمالي بدلًا من صيحات البشر. وبدلًا من رؤية الضباب الرمادي الذي كان يخيم عليهما، رأى مع صديقه سماء زرقاء واسعة. وبدلًا من الاستلقاء على الأرض المليئة بالحصى، تدحرج مع جراي وأخيه الصغير عبر السهول الثلجية المرصعة بأزهار زرقاء. وسمع صوته بينما كانت أمه تلعق جسده بلسانها الخشن، وتذوَّق حليبها الدافئ، وشعر بثقل ذقنها يستقر على جمجمة جراي حين كان حديث الولادة، ليأتي بعدها الشعور بالسلام.

ظل الثعلب العجوز ساكنًا دون حراك.

نهض باكس وضغط بجبهته على خد صديقه. ثم مال بجسده للوراء وصاح، غير مبالٍ بما إذا كان المتعطشون للحرب قد سمعوه أم لا. وبعدها ركض مسرعًا.

لم يكن مستمتعًا بالركض هذه المرة، لكنه شعر بارتياح لأن جسده ساعده على الجري. ظل يركض ويركض متجهًا إلى الشمال مع حلول الغسق حتى قدوم الليل.

ومع بزوغ الفجر، دخل منطقة الثعلب المتحدي، ومع ذلك ظل يركض. اندفع الثعلب البني لمواجهته، لكنه تراجع عندما رأى عزم باكس وتصميمه على إكمال مسيرته وتركه يمر. اندفع باكس عبر الجرف، وشق طريقه خلال قاع الوادي، وأرهق كثيرًا عند صعود التل الأخير المؤدي إلى المرج. وفي منتصف الطريق، توقف ورفع رأسه.

شاهدته ثلاثة ثعالب وهو يقترب، كان قد تعرف عليها: زوجة جراي، التي لا يزال بطنها كبيرًا بسبب الجراء في أحشائها؛ وبالقرب منها، رانت الذي بدا في نصف حجمها.

أما بريسل فلم تكن تقف معهما. وكان فروها اللامع يتألق عند قاعدة شجرة الصنوبر الكبيرة التي تطل على المرج، تلك الشجرة التي توفيت شقيقتها تحتها.

كانت رائحة موت جراي تفوح من فرو باكس، لكن الثعالب أدركت حقيقة موته قبل شم هذه الرائحة.

تقدم باكس ببطء حتى اقترب من جحر جراي، عندئذ رفع رأسه وعوى في حزن شديد، بعدها عوت الثعالب الثلاثة في حسرة وألم مثله تمامًا.

اقتربت زوجة جراي. وشمت أنف باكس ثم كتفه، فعلمت ما جرى من القتال الذي لم يودِ بحياة رفيقها، وبالانفجار البشري الذي أدى إلى وفاته. وأدركت أيضًا أن باكس قام بحماية جراي، وأطعمه، ونظف جرحه، ولهذا شعرت بالامتنان له. وأخيرًا علمت الأخبار التي مات جراي وهو يحاول الحصول عليها. قالت:

هل الوضع غير آمن بالنسبة لنا في الجنوب؟

نعم إنه غير آمن.

ابتعدت زوجة جراي، وبطنها يتأرجح.

وما إن أبلغ الرسالة، سقط باكس على العشب منهكًا. تقدم رانت ليجلس في المساحة المجاورة له، وسعد باكس بالسماح للثعلب الصغير بأن يعتني به. وقد شاهدتهما بريسل من موقعها عند جذع شجرة الصنوبر التي تظللهم.

نام باكس نومًا متقطعًا خلال فترة ما بعد الظهر، مؤرقًا بالأحلام التي رأى فيها صديقه يتعثر في أسلاك مشتعلة. وأخيرًا، عندما شق القمر عتمة السماء الزرقاء، استيقظ ووقف على براثن أرجله الأربع.

استنشق رائحة الثعالب التي تشير لحزنها على فقدان مَن كان يحميها ويرعاها. وشاركها الحزن نفسه، وأدرك أنه مُرحب بوجوده في هذا الوادي إذا اختار البقاء. لكن أحلامه حثته على العودة إلى معسكر المتعطشين للحرب.

وبينما كان على وشك المغادرة، شعر بـ بريسل وهي تنزلق أسفل التل وتقترب منه، فانتظر.

قالت إلى أين أنت ذاهب؟

شاركها باكس الصورة التي فهمها أخيرًا؛ انفجار الأرض يعني الحرب، والأسلاك تتسبب في الموت. شاركها أيضًا خوفه من تعرض بيتر للخطر إذا انضم إلى والده، وتصميمه على حمايته.

سألته هل يمكن لهذه الانفجارات أن تقتل البشر؟

نعم.

نهضت لمواجهته وقالت إذن عليك الهرب، دعهم يلقوا مصيرهم.

تجاهلها باكس، وجمع شتات نفسه، وقفز في الهواء، وما إن وطئ الأرض بأرجله حتى بدأ يركض ويركض.

18

قفز بيتر من فوق العارضة عندما رأى فولا وهي تعرج تحت المطر باتجاه الحظيرة، وحاول أن يخفي إحساسه بالذنب. انتاب فولا بعض الشك في أنه ربما يؤدي تمارين أكثر من تلك التي طلبتها منه - بالفعل كان يقوم بذلك، عادة ما كان يضاعف هذه التمارين - وهي لم تكن سعيدة بذلك. حذرته عدة مرات قائلة: «يحتاج الشخص البالغ الذي يتمتع بصحة جيدة إلى أربعة أسابيع للقيام بما تحاول القيام به في أسبوع واحد. وبهذه الطريقة سوف تؤذي نفسك»؛ لدرجة أن تحذيراتها صارت موضوعًا متكررًا ومعتادًا بينهما على مدار الأيام القليلة الماضية.

لقد شاهدها وهي تنفض الماء عن نفسها عند مدخل الباب، فتذكر باكس، وطريقته الشبيهة بطريقة الكلاب في نفض الماء عن نفسها. ترى هل تمطر السماء حيث يوجد الآن؟ وهل ينفض الماء عن نفسه، ووهل هناك مكان دافئ وجاف ليحتمي به؟ ارتجف بيتر وحاول حك ذراعيه.

قالت فولا: «ما الخطب؟ تبدو كأنك تتألم؛ هل ذراعاك تؤلمانك؟».

«لا». بالطبع كانتا تؤلمانه. لكن هذا الألم يعتبر مؤشرًا جيدًا يعني أنه عما قريب سيصبح قويًا بما يكفي ليرحل. استلقى على الأرض، وأدى ثلاثة تمارين ضغط، وكانت جبيرته

مستندة إلى كاحله الأيسر. قال: «أترين؟ أنا بخير. هل يمكنني القيام بتدريب مضمار العقبات الآن؟ إن الأمطار في الخارج ليست غزيرة».

«لا، لا، سوف تبتل الجبيرة. سأكتشف طريقة ما لجعلها مقاومة للماء قبل أن تغادر، لكن اليوم عليك البقاء هنا. فهل أديت جميع تمارينك بالفعل؟».

«نعم، تمارين الشد، والسحب، وتجاوز الحواجز. كل هذه التمارين الأساسية التي علمتني إياها».

أومأت فولا برأسها مشيرة إلى جدار الدمى المتحركة. «لماذا لا تتدرب على العرض إذن؟».

أراد بيتر أن يقول لأن تلك الدمى لا تقربني دقيقة واحدة من ثعلبي. لكن بدلًا من ذلك تنهد بعمق وأدار عينيه بسرعة.

لم تتأثر فولا وسألته: «كيف الحال في التعامل مع هذه الدمى؟».

«بخير. أعني الأمور على ما يرام». لقد تدرب عدة مرات. وتحسن مستواه قليلًا، إذ لم تتشابك الخيوط. ومع ذلك، في بعض الأحيان، كانت الدمى تتحرك بطريقة عكس التي توقعها تمامًا، حيث تبدو مضطربة، كأنها تتعرض للصعق بالكهرباء. ما كان يؤدي لنفاد صبره.

أردف قائلًا: «دعينا نقم بالعرض. سأغادر قريبًا يا فولا». رفع عكازيه اللذين صارا يتحركان كما لو كانا امتدادًا لذراعيه الآن، وأضاف: «لقد ذهبت حتى التلال ورجعت مرتين أمس، وتمرنت باستخدام العكازين مدة ست ساعات تقريبًا. كنت سأتمرن ثماني ساعات لولا أنك أخذت العكازين مني، أتذكرين؟ أنا مستعد للذهاب».

وضعت فولا حفنة من المسامير في جيب بدلة العمل، وثبتت مطرقة في حلقة حزامها. ثم نظرت له قائلة: «أرني كيف ستؤدي دور سندباد».

أطلق بيتر تنهيدة ثانية - تجاهلتها فولا هي الأخرى - ثم التقط الدمية التي على شكل سندباد من على الحائط وحركها فوق حزمة من القش، وأسقطها على البيضة الخشبية في وعاء الصفيح الكبير الذي قامت فولا بطلائه ليبدو كالعش. أدرك كم يبدو الأمر أخرق، لكنه رمقها بنظرة مليئة بالأمل.

سألته: «حقًّا؟ هذا هو البطل اليائس الذي يخاطر بحياته للحصول على فرصة للهروب من طائر الرخ العظيم؟».

أخذت فولا أداة التحكم في الدمية من يده، وعلى الفور بدت الدمية كأنها أصبحت من لحم ودم. وقالت كما لو أن بيتر قد طلب منها أن تعطيه درسًا: «فكر فيما يريده: الهروب. اخفض ذراعيه واستخدمهما للتحكم في حركته، هكذا، كما ترى، تحرك على مستوى منخفض وبمكر. اجعله يغص في العش حتى يختبئ خلف البيضة. وبمجرد أن يستقر في هذا المكان، اتركه وحلق بطائر الرخ فوق العش من الجانب الآخر - من اليمين، وانتبه حتى لا تتشابك خيوط دمية السندباد. وبهدوء وبطء دع الطائر يهبط مباشرة على البيضة، حتى تلتقط المغناطيسات الموجودة في مخالبه تلك الموجودة في يدي سندباد».

«لا تسر الأمور معي بهذه السلاسة. فلماذا لا تضعين مرآة وتشاهدين نفسك وأنت تقومين بالعرض؟».

تأملته قائلة: «إنه الشرط الثالث، وهو ليس اختياريًّا. تقدم هنا». ووضعت الدمية على طاولة عملها.

أردفت قائلة: «إنه يريد أن يتحرك. جميع الدمى تريد التحرك لأنني صنعتها لهذا الغرض. وعليك فقط أن تساعدها. تخيل أن عضلاتك اتحدت مع عضلاتها، وصارت كيانًا واحدًا».

أزالت ثياب سندباد، وصُدم بيتر عندما رآها تفك أسلاكه. بعدها مدت يدها، وأمسكت مفك براغي، وفككت الدمية حتى صارت عبارة عن كومة من الأجزاء المتناثرة. ثم وجهت المفك نحو بيتر.

ثبت العكازين تحت إبطيه وبسط راحة يده.

قالت: «لقد شاهدت ما فعلته، أليس كذلك؟».

«نعم، ولكن...».

«لقد أتيت فقط لأخذ بعض الأدوات. وسأعود في غضون ساعة. عليك تجميع هذه الدمية مرة أخرى، ولن تواجه أي مشكلات بعد ذلك». وضعت المفك في يده بعنف وغادرت دون التلفظ بكلمة أخرى.

لم يكن الأمر صعبًا بالفعل، فركبتا ومرفقا الدمية كانت على شكل مفصل بسيط أحادي الاتجاه، أما الكتفان والفخذان، فأخذت شكل مفصل دائري خشبي منحوت، ورأى بيتر أن ذلك يسمح بسهولة الحركة. وبالنسبة لليدين والرجلين، فكانت مثبتة بأشرطة جلدية.

كانت عملية تثبيت الخيوط هي المهمة الأكثر تعقيدًا. ولكن بمجرد أن أدرك أن اليدين يجب أن تتحركا بطريقة أشبه بحركة اليعسوب، تمكن من فهم كيفية تثبيت هذه الخيوط.

وكانت فولا على حق: بعد أن أعاد تجميع أجزاء الدمية، أصبح بإمكانه تحريكها بسلاسة أكبر. لقد قالت فولا: «تخيل أن عضلاتك اتحدت مع عضلاتها»، وبالفعل استطاع بيتر محاكاة الحركات التي اقترحتها بجسده، ثم نقلها إلى جسد سندباد.

لكن فكرة «تخيل أن عضلاتك اتحدت مع عضلاتها» لم تنجح مع طائر الرخ؛ حرك بيتر كتفيه، وحلق بذراعيه، لكن الطائر مال وتحرك بضع حركات، ثم سقط كأنه أصيب بطلق ناري. وبدت النظرة اللامعة في عينيه كتوبيخ لبيتر.

قال: «أنا آسف أيها الطائر، لكنني لا أعرف ما المفترض أن تفعله. هل تحاول التهام الرجل؟ أم أنك تحمي بيضتك؟».

فجأة، أراد بيتر أن يعرف قصة طائر الرخ، وأراد أن يفهمها بشكل صحيح. وجد المكان الذي احتفظت فيه فولا بكتاب السندباد، وما إن أخرج الكتاب من فتحة الجدار، سمع صوتًا هادئًا. لقد كان هناك شيء ما في الجزء الخلفي من هذه الفتحة.

أخرج هذا الشيء، فوجده عبارة عن علبة مربعة، لونها أصفر باهت، ومزينة بكلمتين أوشكتا على التلاشي: **بسكويت صان شين**. ثبت العلبة على كفه، وتذكر علبة البسكويت البالية التي وجدها عند جده، تلك التي بها كومة من الجنود يحرسون الصورة التي أثارت دهشته.

رفع غطاء العلبة، فوجد داخلها كومة من بطاقات الفهرسة مكتوبة بخط يعرفه بالفعل. أدرك على الفور أنه يحمل في يده بعض الحقائق الشخصية عن فولا، تلك التي أخفتها. قام بإغلاق الغطاء، لعدم رغبته في انتهاك خصوصيتها. ولكن كان الأوان قد فات، فقد قرأ ما هو مكتوب على البطاقة الأولى:

كنت سأصبح معلمة ممتازة.

إنها ليست بحقيقة فظيعة، ولا تبدو شخصية كذلك إلى هذا الحد. ومع ذلك، تمنى لو أنه لم يرها. أعاد العلبة إلى مكانها في الجدار، ووضع الكتاب بعدها، وفي هذه اللحظة عادت فولا.

أشار إلى الدمى المتحركة، وقال: «لقد فهمت كيف أتعامل معها، دعينا نمثل المشهد الآن».

لكن فولا مشت نحو طاولة عملها، وسكبت الزيت على حجر الشحذ وقالت: «ليس الآن، نحن بحاجة إلى بناء مسرح أولًا. سأقوم بتجميع المواد اللازمة عندما يتوافر لديَّ وقت فراغ».

«مسرح؟ لم تخبريني من قبل بشأن هذا المسرح».

استدارت، ورفعت كفها لوقف احتجاج بيتر، ثم قالت: «إن الدمى المتحركة لا تتأرجح في الهواء فوق أكوام القش، اسمع يا فتى، سوف أعرض قصة ذلك الجندي كما ينبغي أن تُرى. ويتعين عليك احترام مدى أهمية ذلك بالنسبة لي حتى لو كنت غير مقتنع. فمن غير المفترض أن تفهم كل شيء. أنت تحمل هذا السوار الخاص بوالدتك - إنها الفكرة نفسها؛ أنت تروي قصتها من أجلها».

«لكن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا...».

«وما المشكلة ليس هناك داعٍ للعجلة، فستبقى هنا أسبوعًا آخر على أي حال». عادت إلى طاولة العمل، وجلست ثم بدأت اختيار الأدوات. وهكذا انتهت المناقشة.

ألقى بيتر بنفسه على كومة من القش. أسبوع آخر في هذه الأجواء وسيصاب بالجنون.

كلماتها أثرت فيه وأدهشته. ولم يعد يعتبر فولا مجنونة. ثم استند إلى مرفقيه، وأخذ يتأملها وهي تلمع أدواتها، ولاحظ مدى حرصها وهي ترفع كل واحدة منها وتنظفها بعناية.

وكيف وضعتها في مكانها بالضبط عندما انتهت. لقد أعجب كثيرًا بحركاتها الهادئة والمنظمة والتي بدت متوقعة ومألوفة بالنسبة له.

دخل فرانسوا وتثاءب. صعد إلى العارضة فوق طاولة العمل، وبدأ ينظف نفسه قبل أن يغفو. ثم نظر إليه بيتر، ورأى أنه أصبح مثله؛ يشعر بالارتياح برفقة فولا.

رفع بيتر رأسه ليرى ما تفعله. إنها تصنع مقبضًا. لقد أحضرت مجرفة مكسورة لتصنع لها مقبضًا جديدًا. إنه أمر بسيط، ومع ذلك فقد بدا له كأنه نوع من السحر. بالضبط مثل عكازيه، فقبل أن يحصل عليهما، كان عاجزًا عن الحركة، لكن فولا بمهارتها ثبتت لوحين معًا، وها هو الآن قادر على قطع أميال من الأراضي الوعرة، بسرعة وثبات. بالطبع هذا سحر.

سحب العكازين، ووضعهما تحت ذراعيه، مستشعرًا الراحة الناجمة عن قوتهما، ثم اقترب من طاولة العمل، وقال: «أريد أن أصنع شيئًا ما. فهل من الممكن أن تعلميني؟».

مالت فولا إلى الوراء لتحدق إليه، وبعد نحو دقيقة أومأت برأسها قائلة: «من فضلك لا تسرح بخيالك. هل تعرف أي شيء على الإطلاق عن العمل بالخشب؟».

«أعرف أنني أثناء العمل يجب أن ’أتوخى الحذر كي لا أجرح نفسي‘».

«إجابة لا بأس بها، لكنني لم أقصد هذا». اختارت فولا قطعة خشب من صندوق الأخشاب الخاص بها، ووضعتها وسط طاولة العمل، وقالت: «من السيد هنا؟».

«معذرة؟».

«من السيد هنا: أنا أم الخشب؟».

فهم بيتر أن هذا اختبار. فنظر إلى قطعة الخشب، ثابتة في مكانها كأنها تنتظر حدثًا ما. ثم نظر إلى مجموعة الأدوات اللامعة، المتلهفة جدًّا لقطع الأخشاب، حتى إنها بدت كأنها

ترتعش، وقال: «أنت، أنت السيد».

أومأت فولا. واختارت مطرقة وإزميلًا ذا طرف على شكل ملعقة، ثم حدقت إلى قطعة الخشب بالضبط كما حدقت إلى بيتر قبل بضع دقائق - كما لو كانت تحاول قراءة بعض الرسائل السرية تحت سطحها. وعلى الفور دقت عليها بالإزميل، فقسمتها إلى نصفين، نصف منهما انقلب على سطح طاولة العمل.

التفتت إلى بيتر وسألته: «والآن، من السيد؟».

لم يعطه التعبير المرسوم على وجه فولا أي إشارة. لكن قطعة الخشب التي انقسمت إلى نصفين أمامه الآن أوحت له بالإجابة، فقال متيقنًا: «الخشب».

وافقت فولا: «صحيح، من الآن فصاعدًا، الخشب هو السيد. إن النحات خادم للخشب. وجميع الحرفيين خدم لحرفهم. إذ بمجرد أن تقرر ما تريد صنعه، يصبح مشروعك سيدك. فهل تعرف ما تريد صنعه؟».

جاء الجواب على الفور: «كيف يمكنني نحت ثعلب؟».

بمجرد أن خرجت الكلمات من فمه، استعد بيتر للإجابة التي توقعها مقدمًا - إن عليه اكتشاف الأمر بنفسه؛ لكن فولا فاجأته بردها.

قالت: «سئل مايكل أنجلو ذات مرة كيف صنع أحد تماثيله، فأجاب: ’لقد رأيت الملاك في الرخام فنحت حتى أطلقت سراحه‘. قد تكون هذه طريقة التفكير المثلى التي عليك تبنيها. بالطبع، إذا كنت ستحاول العثور على الثعلب في الغابة، فسيتعين عليك البدء بنحته على الخشب».

طلبت من بيتر أن يتبعها إلى صندوق الخشب: «أنواع مختلفة من الأخشاب، ذات مميزات مختلفة. فخشب الزيزفون سهل النحت، ويُظهر التفاصيل الدقيقة، كما أنه خفيف الوزن. أنا

عن نفسي أستخدمه لنحت رءوس الدمى المتحركة. وبالنسبة لخشب الصنوبر...».

قاطعها بيتر: «الخشب الأبيض الرمادي مناسب لصنع مضارب البيسبول، فهو قوي للغاية».

مررت فولا قطعة خشب الصنوبر من يد إلى أخرى في صمت لحظة، ثم التفتت إلى بيتر وسألته: «بالمناسبة، هل حقًّا لا تملك مضرب بيسبول؟ هل تحب لعبة البيسبول، لكنك لا تمتلك مضربًا؟».

«أنا لاعب دفاع».

«ماذا؟ هل تنتظر أن يضرب شخص ما الكرة، ثم تذهب وتلتقطها؟ هذا مجرد رد فعل. ألا تريد أن تضرب الكرة بنفسك؟».

«الأمر ليس كذلك، دعيني أوضح لك، بمجرد أن أحصل على الكرة، أمتلك زمام الأمور، إن دوري ليس مجرد رد فعل، بل إنني أتخذ قرارات وأضرب الكرة. باقي أفراد الفريق يمتلكون مضارب. ومن الواضح أنك لا تعرفين شيئًا عن لعبة البيسبول».

ألقت قطعة الخشب في الصندوق مرة أخرى وهي تهز كتفيها قائلة: «ربما لا أعرف لعبة البيسبول، لكنني بدأت أعرفك. وأعتقد أنك بحاجة إلى مضرب».

توجه بيتر نحو الصندوق، ومرر يده عبر قطع الخشب بينما تبادرت إلى ذهنه صورة الزجاج الأزرق، وهو يتحطم ويتناثر فوق الورد الأبيض؛ هذا المشهد الذي كان من الممكن تجنبه لو أنه ركز جيدًا على حركات الرامي أثناء وقوفه عند القاعدة الرئيسية في وسط الملعب وبيده عصا الفريق.

لو امتلك مضربًا خاصًّا به مرة أخرى، ففي كل مرة يلتقطه، سيرى ذلك الزجاج الأزرق المكسور فوق هذا الورد الأبيض. وهذا من شأنه أن يحطم نفسيته.

التقط قطعة من الخشب ذهبية اللون، بحجم باكس عندما عثر عليه، وسأل في توتر: «ماذا عن هذه القطعة؟ أرى أن بها بعض التموجات مثل الفرو».

بدت فولا كأنها تعض شفتيها لتفادي المزيد من الحديث عن مضرب البيسبول. وقالت أخيرًا: «خشب الجوز الأرمد، إنه المفضل لديَّ، فهو لين بما فيه الكفاية. افحصها جيدًا فترة من الوقت. وسوف نبدأ النحت غدًا».

في وقت متأخر من تلك الليلة، بينما كان على وشك الصعود إلى أرجوحته الشبكية، وهو مرهق للغاية، رأى بيتر قطعة الخشب التي وضعها على حافة النافذة في وقت سابق. وأدرك أنه لم يفكر في باكس طوال اليوم تقريبًا. لقد سيطر عليه الشعور بالذنب، إذ فقد ثعلبه وصار وحيدًا - في الحقيقة لم يمر بمثل هذا الموقف منذ أن كان في السابعة من عمره.

لقد استغرق الأمر وقتًا أطول؛ عامًا وستة عشر يومًا على وجه الدقة، وفقًا لحساباته، حتى مر يوم كامل لم يفكر فيه في والدته. وفي ذلك اليوم، ذهب مع عائلة أحد الأصدقاء في رحلة تخييم، حيث ركبوا الزوارق في الصباح، واصطادوا الأسماك، وسبحوا، ونصبوا الخيام، وشووا النقانق. وعندما صعد إلى كيس النوم تحت النجوم، باغته الشعور بالذنب والقلق من أنه يستحق أن يكون بلا أم.

أخرج صورتها من حقيبته، فتذكر ذكرى ميلادها، والطائرة الورقية، إنها واحدة من أحب الذكريات إلى قلبه، حينها لم تطر الطائرة الورقية، كان عمره ست سنوات، ولم تبدُ الطائرة بالنسبة له أكثر من مجرد صورة لتنين ملصقة على بعض أعواد الآيس كريم. حتى في تلك السن، أدرك أن والده لو كان حاضرًا، لتسبب فشل طيران تلك الطائرة في إفساد بقية النهار. لكنه لم يكن هناك، أما والدته فضحكت من الأمر، وبسطت بطانية على التل ليستمتعا بتناول طوفي الفول السوداني وعصير العنب، وبسرد القصص واحدة تلو أخرى عن ذلك

التنين الورقي الذي يتمتع بما يكفي من الحكمة ليرفض الطيران في الهواء؛ لأن هناك العديد من المغامرات الأخرى في انتظاره على الأرض.

وضع بيتر الصورة على عتبة النافذة بجانب قطعة الخشب، وأغمض عينيه. لقد كان بحاجة لاسترجاع بعض ذكرياته مع باكس أيضًا.

اعتاد باكس الانتظار عند باب قفصه كلما عاد بيتر إلى المنزل؛ لأنه كان يعرف جيدًا صوت مكابح حافلة المدرسة. فقد كان ينتظره ليبحث في حقيبة ظهره عن بقايا تفاح أو يلهو معه، فيطل برأسه من جيب سترته. لقد تسلل به بيتر إلى المدرسة ذات مرة، في الصف الثاني - لم يفكر في عواقب ذلك على الحيوان الصغير، فكل ما أراده هو أن ينعم بصحبته. يومها كان هناك تدريب على إطفاء الحرائق، وقد أفزعت صفارة الإنذار باكس. عوقب بيتر، وأُرسل إلى المنزل، واستشاط والده غضبًا، لكن هذه لم تكن العقوبة بالنسبة له، فعقوبته الحقيقية كانت منظر باكس وهو يرتجف وصوت أنَّاته.

أفضل ذكرياته معه كانت هادئة للغاية: تحديدًا في الشتاء قبل الماضي، الذي كان قارس البرودة، حيث شعر بيتر على مدار فترات طويلة بعدم الرغبة في القيام من أمام المدفأة لأداء واجباته المدرسية. كان الجو باردًا جدًّا لدرجة أن والده رضخ وسمح لباكس بالدخول مبكرًا للتمدد بالقرب من النار. وكان باكس يغفو مع ارتفاع درجة حرارة أنفه وكفيه الأماميين لدرجة أن بيتر كان يمضي الوقت في مراقبته وتفقد حاله. تذكر بيتر مفاصل حيوانه الأليف وهي تتحرك إلى الأسفل أثناء قراءته كتاب التاريخ، وتمسيده على فروه فيما بين كتفيه، يا له من شعور يبعث على الهدوء والسلام.

فتح عينيه ورفع قطعة خشب الجوز، وفي ضوء القمر الخافت، تخيل أنه يرى الثعلب في الغابة.

19

ركضت بريسل هي الأخرى متتبعة باكس، لكن سرعته فاقت سرعتها كثيرًا، هكذا ظل يركض بقوة طوال الليل، حتى حل الصباح. مضت ساعات دون أن يشعر بوجودها، وعندما وصل إلى النهر أمام المصنع بعد الظهر. تسلل بهدوء واقترب من مجموعة من أعواد القصب الأخضر، أسفل مجرى النهر، حيث يرقد جسد جراي. لقد غمس رأسه في مياه النهر ليشرب، وما إن روى عطشه، حتى دفع القصب جانبًا.

نظر من حوله، فرأى الحقل فارغًا، لقد اختفت المركبات، ولم يكن هناك أي أثر للبشر، ولكن رائحتهم ما زالت موجودة بقوة، وأكثر حدة من ذي قبل. ما يعني أنهم على مقربة، بل يشعرون بالقلق. ومن ثم شق باكس طريقه بمحاذاة مجرى النهر وعبره عند المضيق، ثم تحرك بخطى سريعة على طول سلسلة الأشجار لمراقبة الموقع من الأعلى.

رأى حفرًا جديدة عبر التلال خلف أنقاض المصنع. انسحب الجنود إلى خنادقهم مثل مجموعة من الثعالب تتجه إلى جحورها، لكن بعضهم ظل يحفر، وآخرون يعملون على المعدات، ويتحدث غيرهم معًا بخصوص الخرائط. واستقرت المركبات خلف الجدران أيضًا.

عاد باكس أدراجه على طول سلسلة الأشجار، ثم عبر النهر، وسار بمحاذاة مجراه. ومرة أخرى انزلق وتعثر في أعواد القصب، ونظر من هناك، فلم يرَ أي بشر هذه المرة أيضًا. وكانت هناك رائحة عالقة بشدة في الهواء، رائحة أشبه بتلك الناجمة عن الأسلاك الكهربائية المشتعلة.

هبت الرياح حاملة رائحة الدخان من الغرب. لقد شمها مرتين في طريقه، لكنها الآن أصبحت أكثر قوة وخطورة وقربًا.

لم يستطع باكس انتظار عتمة الليل الآمنة.

غاص في الماء، سبح تاركًا رأسه الأملس فقط فوق السطح، وما إن عبر النهر، حتى تسلق ضفته ونفض الماء عن فروه. وظل منخفضًا، ليتجه بعدها نحو أقرب مخبأ - شجرة بلوط محاطة بفروع كثيفة عند قاعدتها، على بعد عدة قفزات.

ومن هناك، رأى المشهد الذي كان يرغب بشدة في رؤيته: في منتصف الطريق أسفل جدران المصنع، حيث السطح المستوي للحقل، برزت صخرة من الجرانيت الأرجواني عن الأرض. وكانت هناك حزمة من الأسلاك تتدلى فوقها، ثم تمتد وسط الأعشاب.

تسلل باكس، لكنه شعر بتهديد آتٍ من أعماق الأرض: حيث دُفنت المزيد من الصناديق بالقرب من ضفة النهر، وهناك المزيد من الأسلاك الممتدة عبر الحقل. قفز بعيدًا عن الأسلاك، وانزلق على العشب بسرعة كبيرة، فلم يصطدم إطلاقًا بهذه الأسلاك.

وعند قاعدة صخرة الجرانيت، اعتدل في جلسته، ورفع أذنيه نحو أعلى التل. ومن خلال الإيقاعات الثابتة لأصوات الجنود وأدواتهم، عرف أنهم لم يتحركوا من الخنادق. كان النسيم لا يزال يهب باتجاه المنحدر، ومن ثم سينبهه إذا اقتربوا.

سحب سلكًا وبدأ قضمه، لكن قبل أن يمضغ الغلاف، إذا بهجوم عنيف يأتيه من الخلف، وبسببه اصطدم في الصخرة بقوة، وفقد القدرة على التنفس. تدحرج ورأى بريسل تقفز

فوقه من أعلى الصخرة.

من هذا الارتفاع، كانت في موضع قوة، فحدثته قائلة: تقول الغربان إن المتعطشين للحرب يقتربون. اترك لهم هذه الأرض المتفجرة، وتلك الأسلاك الخطيرة ليعثروا عليها.

كان باكس أكبر حجمًا من بريسل، لكن عزيمتها كانت أقوى منه؛ لذا كلما حاول العودة لقضم السلك مرة أخرى، كانت تسرع لإبعاده بفكيها. دار حول النتوء الصخري، وتقدم حتى اقترب من المصنع أكثر مما يريد، ليصل إليها من الأعلى. ولكن قبل أن يتمكن من الانقضاض، لفتت انتباهه حركة أسفل النهر.

لاحظت بريسل قلقه، لكنها أبقت نظرها مسلطًا عليه. وسألته: هل وصل البشر؟

شعر باكس بحماس ولهفة من وراء السؤال، أجابها قائلًا: لا، إنه ثعلب آخر، على ما أعتقد.

تصدت بريسل لمحاولته تشتيت انتباهها، وقالت: لا يمكن لأي ثعلب من وادينا أن يخاطر ويتجاوز حدود الإقليم.

للحصول على رؤية أوضح، نهض باكس معتمدًا على رجليه الخلفيتين. فرآه مرة أخرى - إنه ثعلب ذو فرو نحاسي تتخلله خطوط بيضاء اللون، ظل يظهر ثم يختفي، ويظهر ويختفي، ويجري بجانب ضفة النهر على طول المسار الذي اتبعه باكس سابقًا، وهو المسار نفسه الذي لا بد أن بريسل قد سلكته للعثور عليه.

عند أعواد القصب، لمحه مرة أخرى، إنه ثعلب صغير في الماء. وعلى الفور تعرف باكس عليه.

وصرخ محذرًا.

في هذه اللحظة التفتت بريسل لتنظر، فرأت رانت يكافح للخروج من الماء بجانب شجرة البلوط. فقفزت سريعًا، وبدا حجمها كأنه تضاعف. وفي قفزة واحدة تخطت حافة الصخرة،

وانطلقت، وانزلقت على المنحدر.

قالت: لا تقترب، عد الى البيت فورًا. واندفعت عبر العشب. بدا أن الذعر في صوتها قد حفز رانت على التقدم، وارتكز على رجليه الخلفيتين ليتمكن من رؤيتها وتحديد مكانها، ثم قفز نحوها ببهجة.

قفز باكس نحو الأسلاك، لكن للأسف بعد فوات الأوان.

في اللحظة التي قضم فيها غلاف السلك، هبت رائحة دخان من الأرض. وشعر كأن هناك تيارًا كهربائيًّا حطم إحدى أسنانه الخلفية وأحرق شفته السفلية، وحرق حلقه، ثم انتشر عبر عموده الفقري.

بعد ذلك وقع انفجار في جزء من الحقل عصف بكل شيء، فسقط باكس من فوق الحافة، وعندما اصطدم بالأرض الصلبة مرة أخرى، وعلق بالشجيرات التي اقتلعت من الأرض، أطبق الصمت على المكان. اصطدمت جمجمته بالأرض في صمت، وشاهد مصدومًا عاصفة من التراب الساخن، والصخور، وفروع الأشجار، والأعشاب تنهمر نحوه لينتشر الغبار في المكان من حوله.

ترنح وهو يحاول النهوض واستنشق الهواء المحترق حتى ملأ رئتيه، ومضت دقائق قبل أن يستعيد انتباهه. بعدها وقف على رجليه الخلفيتين ليشم رائحة رانت وبريسل. حاول البحث عنهما في كل الاتجاهات، لكن أنفه لم يساعده، إذ إن الأعصاب الدقيقة المسئولة عن الشم قد تخدرت بفعل الرماد والسخام. صاح مناديًا عليهما، لكنه لم يسمع أي إجابة، لم يسمع سوى ذلك الطنين في أذنيه.

شق باكس طريقه للخروج من بين مجموعة الأشجار المتشابكة، ونفض جسده ليزيل الحطام عنه. وقد تدفق الجنود نحو أسفل التل عبر الحقل الذي يتصاعد منه الدخان، ثم

اتجهوا نحو النهر وعبروه. تبعهم باكس على الفور. ومع كل حركة قام بها شعر بهزة قوية تخترق عظامه.

وحينما وصل إلى المكان الذي رآهما فيه آخر مرة، نادى مرة أخرى على بريسل ورانت. لكن للأسف ما من جواب، فلم يسمع سوى صدى صوته بنبرة خافتة في البداية، كما لو كان الصوت آتٍ من مسافة بعيدة. بعد ذلك سمع صوت الرياح، وصوت تكسير سيقان الأعشاب المحترقة أثناء اصطدامه بها، وكذلك الصيحات القوية التي أطلقها المتعطشون للحرب أثناء عودتهم إلى الخنادق. ومن بين الأشجار سمع غرابًا ينعق ساخطًا على العالم المدمر من حوله. حينئذ أدرك باكس أنه استعاد حاسة السمع.

ظل يتجول في الحقل مدة ساعة، وأخذ ينادي على الثعلبين المفقودين. حل الغسق، وأخيرًا سمع أنينًا خافتًا: صرخة بريسل الضعيفة ردًّا على ندائه. أخذ ينادي عليهما حتى وصل إلى حافة النهر. وهناك، رأى أن شجرة البلوط قد اقتلعت من جذورها واحترقت، والدخان يتصاعد منها فوق الضفة، وأغصانها السوداء منغمسة في الماء.

عثر باكس على بريسل مختبئة وسط كرة ترابية تتجمع حولها جذور الشجرة المائلة. وكان رأسها مرفوعًا، وعيناها منتبهتين، مع أن أنفها كان ملطخًا بالدماء. لقد احترق فرو ذيلها الجميل، وتحول إلى قشرة سوداء. تحسس باكس وجهها بأنفه، فأدرك على الفور أن الدم على خديها ليس دمها.

مالت برأسها، فلمح جسد رانت الساكن ملتفًا تحتها.

قرَّب باكس رأسه من صدر الثعلب الصغير الذي نهض على الفور، ثم سقط مرة أخرى، عندئذ شعر باكس بالارتياح.

بعدها تحركت بريسل، ففزع باكس من هول ما رأى؛ بدلًا من رؤيته ساق رانت الخلفية، تلك الساق الجميلة ذات الفرو الأسود والبرثن الأبيض السريع، رأى مجرد أشلاء حمراء اللون

متفرقة على أوراق الشجر المغطاة بالدماء!!

20

فرك بيتر مقبض الإزميل بقطعة من الصوف الخشن المغطى بالزيت، في محاولة منه لمقاومة الرغبة في رميه عبر الحظيرة.

كان الصباح مشرقًا، فظل يتجول بعكازيه عبر الحقول والغابات، فوق الطين والحصى، صعودًا وهبوطًا على التلال والصخور، مرورًا بالجدران الحجرية والحواجز العالية. تحرك بقوة دون كلل أو ملل، وبسرعة شديدة، كما لو كان يطأ الأرض بكلتا رجليه. عند الظهر، أخبر فولا بأنه على استعداد للذهاب الآن، وهو بالفعل كان كذلك؛ لكنها تجاهلته كالعادة وأمرته بالدخول إلى الحظيرة للراحة، وأخذت عكازيه للاطمئنان. قالت له: «ارفع رجلك لأعلى يجب تلميع بعض الأدوات، اشعر بملمسها بين يديك».

نظر إلى طاولة العمل، حيث دمية الثعلب التي أوشك على الانتهاء من نحتها، ملمسها كان خشنًا لكنها بدت ثعلبًا حقيقيًا ينبض بالحياة، فشعر بأن هذه علامة على أنه سيجد باكس سالمًا. ومع أنه لم يرد أن يعطي نفسه أملًا كاذبًا. أطلق العنان لخياله وتصور هذا المشهد، سينادي على باكس في المكان الذي تركه فيه، ليأتي إليه مسرعًا من الغابة، وربما يطرحه أرضًا من شدة سعادته. بعدها سيعودان معًا إلى المنزل.

«سوف تلمع هذا المقبض على الفور، يا فتى».

قفز بيتر قائلًا: «لم أسمعكِ وأنت تدخلين».

جلست فولا على برميل بجانبه، والتقطت مبرد الخشب وقطعة قماش مليئة بالزيت، وقالت: «لا يمكنك أن تسرح في أفكارك أثناء العمل باستخدام تلك الأدوات».

«كنت أفكر في باكس». وضع الإزميل اللامع، وأمسك بالمنحوت، وسلمه لـفولا.

«يبدو أنه يريد القفز من يدي. هل أنت قلق عليه؟».

أومأ بيتر برأسه قائلًا: «لكن معظم الوقت أشعر بأنه سيكون على ما يرام. إن الثعالب ذكية، ذكية حقًّا. أتعرفين كان علينا غلق باب المطبخ لأن باكس يمكنه فتح أي خزانة. وذات مرة، قضم سلك مروحة كنا قد وضعناها من فورنا في غرفتي، حينها استشاط والدي غضبًا، ولكن بعد ذلك، عندما حاول إصلاحها، اكتشف أن بها مشكلة تقنية، وكان من الممكن أن تشتعل فيها النيران. أعتقد أن باكس علم ذلك بطريقة ما، وأنه كان يحاول حمايتي. أعتقد أنه ذكي بما يكفي لتعلم الصيد، فهل تعتقدين أنه سينجو؟».

أجابته فولا: «نعم، سينجو».

أخذ بيتر المنحوت، ونظر إلى وجه الثعلب، وقال: «هناك شيء آخر، وهو... أنني سأعرف إذا مات». ثم أخبر فولا بما لم يخبر به أي شخص آخر من قبل - أخبرها بالاندماج الذي كان يشعر به أحيانًا مع باكس، وكيف أنه في بعض الأحيان لم يكن يعرف شعور ثعلبه فحسب، بل كان يشعر بأحاسيسه نفسها. حبس أنفاسه، وشعر بكم كان الأمر يبدو جنونيًّا.

وبدلًا من الضحك، أخبرته فولا بأنه محظوظ، حيث قالت: «لقد عشت تجربة ’اثنين لكن ليس اثنين‘».

«هذ العبارة مكتوبة على بطاقاتك المثبتة على الحائط - ’اثنين لكن ليس اثنين‘. لكنني لا أعرف معناها».

«إنه مفهوم فلسفي يعني اللاثنائية، وهو يشير إلى الوحدة، ولفكرة أن الأشياء التي تبدو منفصلة يرتبط في الحقيقة بعضها ببعض، ولا توجد فواصل بينها». التقطت فولا منحوت الثعلب مرة أخرى، وقالت: «هذه ليست مجرد قطعة من الخشب. إنها السحب التي جلبت المطر الذي سقى الشجرة، والطيور التي عششت عليها، والسناجب التي تغذت على جوزها. وهي أيضًا الطعام الذي أطعمني إياه أجدادي، والذي جعلني قوية بما يكفي لقطع جذع الشجرة، وهي فولاذ الفأس الذي استخدمته. وتلك هي الطريقة التي تعرف بها ثعلبك وتفهمه، ما سمح لك بنحته أمس. وهذه هي القصة التي ستروليها لأطفالك عندما تعطيهم هذا المنحوت. كل هذه الأشياء تبدو منفصلة، لكنها في الحقيقة كيان واحد لا ينفصل. فهل فهمت ما أعنيه؟».

«اثنين لكن ليس اثنين. تعني أننا لسنا منفصلين؛ لذا... منذ ليلتين، كنت على يقين بأن باكس قد تناول بعض الطعام. شعرت به، والليلة الماضية، رأيت القمر، وعلمت أن باكس ينظر إليه في ذلك الوقت أيضًا. هل تعتقدين أنني إذا شعرت بأن باكس حي، فهو على قيد الحياة؟».

«نعم».

تضاعفت آمال بيتر عندما سمع كلماتها، فهي لا تنطق إلا بالحقيقة، فكما قالت له مئات المرات: «القاعدة المتبعة هنا هي قول الحقيقة».

أدرك فجأة أنها ميزة عظيمة أن يكون لديك شخص تثق بصدقه. كم مرة في حياته أراد إجابة صادقة؟ وكم عدد الأسئلة التي احتاج إلى إجابة صادقة عليها، لكنه لم يلقَ من والده سوى الصمت؟

بعد ذلك، قبل أن يتراجع ويغير رأيه، طرح السؤال الذي حيره دائمًا.

«هل تعتقدين... هل تظنين أن الجانب المتوحش في أي مخلوق يمكن ترويضه؟ خاصة إذا كان متأصلًا فيه، أي كان شيئًا وراثيًا؟».

نظرت إليه بحدة، فأدرك أنها فهمت أنه يتحدث عن باكس، ولم ينكر ذلك. التقط الإزميل مرة أخرى، ونظر إلى منحوت باكس في حجره، وضغط بأصابعه بيضاء اللون على ساقه، بينما كان ينتظر الإجابة.

أجابته: «هل تتصرف دائمًا بهذه الطريقة؟ تطلب من الآخرين الإجابة عن أسئلتك نيابةً عنك؟ أجبني؟ هذه الطريقة لن تجدي نفعًا».

أخذ بيتر نفسًا عميقًا. وبعد أن طرح السؤال، أدرك أنه لا يريد سماع الإجابة. ربما لن يكون مستعدًّا أبدًا لسماع الإجابة عن هذا السؤال.

ربتت فولا جيب بدلة العمل، وقطبت جبينها قائلة: «يا إلهي لقد نسيت»، وعلى الفور أخرجت كعكة مافن ملفوفة بمنديل، وأعطت بيتر إياها. لقد تناول أربعًا منها في وجبة الفطور، لكنها كانت مقتنعة بأنه لم يأكل ما يكفي.

فتح المنديل، فوجد الكعكة مفتتة إلى حد ما، ولكن مثل باقي الكعكات، كان الجوز متناثرًا بشكل مثالي على طبقة السكر البني. لقد سهرت حتى وقت متأخر في الليلة الماضية لكي تخبزها، وسمعها بيتر وهي تغني أغنية سعيدة بلغة لا يعرفها. سألها: «فولا، لماذا لا تزالين تعيشين هنا بمفردك؟».

«أخبرتك من قبل».

«لكن هل يحتاج الأمر إلى عشرين عامًا لإعادة اكتشاف ذاتك؟ أعني، أهي مسألة صعبة لهذه الدرجة؟».

«إنها مسألة صعبة جدًا. يصعب جدًا رؤية الحقيقة خاصة عندما يتعلق الأمر بنفسك. وإذا كنت لا تريد معرفة الحقيقة، فستفعل أي شيء لإخفائها».

شعر بيتر بأنها تتهرب من سؤاله؛ لذا وضع الكعكة جانبًا، وقال: «لكنك لا تتجاهلين الحقيقة، بل تعرفين نفسك جيدًا. فلماذا لا تذهبين للعيش في مكان ما بين الناس؟ من فضلك أخبريني بالحقيقة، إن هذه هي القاعدة هنا، أليس كذلك؟».

نظرت من نافذة الحظيرة مدة دقيقة، بعدها هزت كتفيها، وعندما التفتت إليه، بدت حزينة بعض الشيء وهي تقول: «معك حق، سأخبرك بالحقيقة يا بيتر. ربما أنا هنا بمفردي لأنني أعرف نفسي جيدًا، إذ أعلم أنني لا أنتمي لهؤلاء البشر. وربما أكون مجرد قنبلة يدوية».

«ماذا تقصدين بقنبلة يدوية؟».

«ماذا تسمي إنسانة تحولت من فتاة رقيقة تشاهد الفراشات إلى امرأة تقتل رجلًا؟ ماذا تسميها؟ تلك الفتاة التي كانت على استعداد لقطع ذراعها قبل أن تؤذي إحدى تلك الفراشات، قتلت بعد سنوات قليلة شخصًا غريبًا عنها تمامًا. فمن وجهة نظري امرأة كهذه تشبه السلاح. نعم أنا سلاح فتاك يصعب التنبؤ بما سيفعل. ومن الأفضل أن أبقى مختبئة هنا حتى لا يصاب أحد بأذى بسببي، ولو عن طريق المصادفة». لوحت بأصابعها في وجهه، وقالت: «بوم» ولكن طريقتها هذه المرة عكست مدى حزنها، ولم تحمل أي تهديد على الإطلاق.

أجاب بيتر: «أنت لا تؤذينني».

«كيف تعرف أنني لن أفعل؟».

ربَّت صدره، وقال: «أدرك ذلك بأعماق قلبي».

ضربت فولا طاولة العمل بكفيها، ودفعت نفسها بعيدًا. تمتمت وهي تشيح بوجهها وتغادر: «رتب تلك الأدوات بشكل صحيح».

من النافذة، شاهدها بيتر وهي تخطو على الطريق. بدت كأنها تتحرك بشكل مختلف. كما لو أن ساقها الخشبية أصبحت أكثر ثقلًا.

نظف بيتر الأدوات، ووضعها في أجربتها، ثم لف قطعة القماش. بعدها شعر بقلقه القديم يصحو من غفوته. لقد أمضى في هذا المكان قرابة أسبوع، ولولا الشرط الثالث، لغادر منذ وقت طويل. لقد وعد فولا، وهو مدين لها، ولكن عندما سألها أثناء الفطور عن بناء المسرح، اكتفت بهز كتفيها قائلة: «سوف أنظر في الأمر».

وفجأة طرأ الحل في ذهنه، وكان بسيطًا للغاية لدرجة أنه ضحك بصوت عالٍ.

من دون عكازيه، أخذ يتحرك بغرابة وبطء مرة ثانية، لكنه تمكن من القفز إلى الخارج، حيث تحتفظ فولا بكومة من الشجيرات، فاختار من بينها اثنتي عشرة شجيرة طويلة مستقيمة، كل منها في سُمك ذراعه. ألقاها واحدة تلو الأخرى نحو مدخل الحظيرة، بعدها تحرك ليدفعها داخل الحظيرة. وعلى الطاولة قطع أغصانها، ثم شرع في العمل.

بعد مرور ساعتين، انتهى من بناء خشبة المسرح. لم يكن هناك الكثير من التفاصيل للنظر إليها - زوايا من الخشب الخشن مربوطة بحبال، قطع من الألواح المتباينة المثبتة بمسامير على الإطار لتصميم الجدران والأرضية - ولكن عندما علَّق قطعة من الخيش فوق الجزء العلوي، ابتسم قائلًا: «يا لها من مهمة سهلة»، قال لـفرانسوا الذي دخل وتوقف ليشم الإطار بإعجاب واضح: «إنها مهمة سهلة حقًّا».

«لقد بنيت المسرح. إنه في الحظيرة».

تركت فولا الدجاجة التي كانت تنتف ريشها، ورفعت بصرها، ونظرت إلى الغصن الذي يتكئ عليه بيتر، ثم أشارت إلى عكازيه المسندين إلى طاولة المطبخ.

مد بيتر يده والتقط العكازين، ووضعهما تحت ذراعيه، واستشعر الراحة الفورية الناجمة عن استخدامهما، بعدها قال: «يمكنني أن أقوم بعرض الدمى الآن؛ لنذهب إلى الحظيرة».

«لديَّ عمل يجب أن أنتهي منه الآن، لكن حسنًا، سنذهب الليلة».

«وبعد ذلك أستطيع أن أغادر، لقد صرت مستعدًّا تمامًا».

وضعت فولا الدجاجة على الطاولة، وتنهدت قائلة: «أنت غير مستعد. تذكر أنك تنام في منزل، جافًّا ودافئًا. ولديك مياه نظيفة، وهناك من يُعد الطعام من أجلك. لكن حسنًا، غدًا سأجري لك اختبار مسافة 16 كيلومترًا، وعليك أن تقطع مسافة 8 كيلومترات وتريني أنك يمكنك نصب خيمة معتمدًا على ساق واحدة، ثم تعود مسافة 8 كيلومترات... بعدها سنتحدث».

راقبها بيتر وهي تجمع ريش الدجاجة وتضعه في كيس. وفجأة تصارعت الأفكار في ذهنه: لن يتغير شيء بعد رحيله، ستظل فولا تحتفظ بالريش، وتصنع الدمى بمفردها في الغابة، المزيد والمزيد من الدمى، ولن تروي قصة ذلك الجندي لأحد.

21

راقب باكس رانت طوال الليل حتى اليوم التالي من خلف شجيرة قريبة. لم يتركه وحده إلا ليبرد شفته المحروقة في طمي النهر البارد، وليتناول وجبة من الأسماك الصغيرة التي وجدها ملقاة على الضفة. عادت حاسة الشم لديه، وكلما استفاق من نومه المتقطع، كان يستنشق رائحة بريسل ورانت ليطمئن أنهما لا يزالان على قيد الحياة.

سحبت بريسل شجيرة صغيرة ووضعتها بالقرب من الشجرة الساقطة لحماية شقيقها، ولفت جسدها فوق جسده لتبقيه دافئًا. تركته فترة قصيرة عدة مرات، وفي هذه الأثناء تولي باكس مهمتها، وجلس بهدوء بجوار جسد رانت الساكن. وكان هناك عندما استيقظ رانت أخيرًا وهو يئن من الألم.

حك باكس أنفه بكتف رانت لتهدئته، فرفع رانت رأسه. وكانت عيناه مليئتين بالألم والخوف. صرخ مرة أخرى، فعادت بريسل، التي كانت تصطاد بالقرب منهما، على الفور.

تراجع باكس بهدوء ليفسح لها الطريق، فتقدمت، ووقفت بجوار شقيقها، ولمست جسده بخدها. انحنى باكس نحو جرح رانت ولعقه بحذر، خوفًا من رد فعل بريسل، التي ظلت تراقبه من كثب دون أن تعترض.

بدأ باكس في تنظيف الجرح بعناية، وشاهده رانت بنظرة مليئة بالثقة لدرجة أنه لم يتحرك من مكانه. وعندما انتهى باكس من تنظيف الجرح نظف وجه رانت وأذنيه أيضًا. وسمحت بريسل له بذلك.

استغرق رانت في النوم مرة أخرى، وبقي باكس وبريسل بجانبه، أمضى الاثنان الوقت في مراقبة المعسكر وما يحدث به.

وعلى الرغم من أن البشر لم يعودوا إلى الجزء المدمر من الحقل، فإن الروائح المنبعثة كانت توحي بالخطر. عندما هبت الريح آتية من الغرب، حملت معها رائحة الأرض المحترقة، وتوتر الرجال، حيث وصل المزيد منهم إلى المعسكر ومعهم المزيد من الآلات. عند سماع الصوت المفاجئ للمحرك، قفزت بريسل. ومالت برأسها مرة ثانية فوق رأس أخيها، وقالت لا بد من نقله إلى مكان آخر قريبًا.

البشر لا يستطيعون شم رائحتنا، وما دمنا مختبئين بعيدًا عن الأنظار، فنحن آمنون.

أشاحت بريسل بوجهها عنه، ونظرت نحو الرجال قائلة: ما دام هناك بشري واحد بالقرب منا، فنحن لسنا آمنين.

بدت بريسل أقل قوة، كما لو أن جزءًا مهمًّا من شخصيتها قد اختفى. أدرك باكس أن البشر هم السبب بطريقة ما في اختفائه. فرد عليها قائلًا: صديقي لا يؤذي أحدًا، فهو ليس مثلهم. إنه ليس متعطشًا للحرب.

المتعطشون للحرب هم رجال بالغون، أما هو فمجرد طفل صغير.

صدقيني هناك فارق كبير. وبدا باكس متأكدًا من كلامه، لكنه كان متحيرًا بعض الشيء، فعلى مدار العام الماضي، صار بيتر أطول وأقوى، وتغيرت نبرة صوته. وما هو أهم من ذلك أن رائحته قد تغيرت - لم تعد رائحة طفل. وعليه أردف قائلًا إنه ليس طفلًا. لكنه ليس

متعطشًا للحرب. وفي آخر يوم رأيته فيه، كان يهتم بي، على الرغم من معاناته هو نفسه الألم. فعيناه انهمر منهما الكثير من الماء.

هل جرحت عيناه؟

فكر باكس لحظة في سر البكاء، وقال لا، عندما يصاب بجرح في مكان ما من جسده تذرف عيناه الكثير من الماء الذي ينساب على وجهه. أعتقد أن ألمه يهدأ قليلًا عند تدفق هذه المياه. لكن هناك تغييرًا ما يطرأ على أنفاسه - يستنشق الهواء بسرعة وصعوبة، كما لو أن هذا الماء المنهمر على وجهه سيغرقه.

انحنت الثعلبة لتلعق المزيد من الدم الجاف العالق بفخذ أخيها النائم. وبعدها رفعت بصرها لتنظر إلى باكس، وفي عينيها رأى باكس كل الفظائع التي ارتكبها البشر بحق عائلتها.

على الفور فهم باكس شيئًا ما. لقد ألقى بيتر الدمية في الغابة في ذلك اليوم. حينها كان ماء الشعور بالألم يتدفق من عينيه، لكنه ألقى الدمية، ولم يتبعه.

صديقي ليس متعطشًا للحرب، لكنه تغير، لم يعد يتصرف بصدق.

22

أضاء بيتر المصابيح الأربعة الكبيرة المعلقة من سقف الحظيرة. وفجأة توهج كل ما في المكان بداية من الأدوات، وعجلة الشحذ، حتى الجدار المليء بالدمى - كلها صارت تشع دفئًا وبهجة في ظل الضوء العنبري. حتى القش أشرق وتألق كأنه تحول إلى ذهب. بدت الحظيرة كأنها بُنيت من جديد، لكنها ما زالت مألوفة بالنسبة له! فقد صار يعرف كل ركن فيها كأنها أصبحت منزله.

منزله، لقد اشتاق له. وبمجرد أن يبدأ عرض الدمى هذا، بعد ساعة من الآن، سيحصل أخيرًا على حريته كي يمضي في طريقه من جديد.

أشعل المصباحين الصغيرين بالقرب من المسرح، ورفع دمية سندباد عن الحائط قائلًا: «حان وقت العرض». بدت عينا الدمية كأنهما تنظران إليه في دهشة. وفحص بيتر مفاصلها مذهولًا من فكرة أن فولا فككتها من قبل حتى تعلمه كل تفاصيلها وأسرارها. وفجأة طرأت في ذهنه تلك الكلمات التي دونتها فولا على بطاقتها السرية: «كنت سأصبح معلمة ممتازة».

كانت محقة في هذا الشأن. تذكر كيف كانت تقترح عليه الكثير من التقنيات بمنتهى السهولة والسلاسة، ولم تجعل الأمر يبدو صعبًا. كيف كانت تحثه على مراقبتها وهي

تنحت، ثم تتركه ليجرب بنفسه. وكيف طرحت عليه الكثير من الأسئلة دون أن تقدم أي إجابات.

لكنها كانت مخطئة تمامًا في اعتقادها أن قربها من الناس يمثل خطرًا عليهم. إن أي شخص يعرفها سيخبرها بذلك.

وهنا تكمن المشكلة، إذ إنه ما من أحد يعرفها.

باستثناء بيتر.

علق الدمية الخشبية مرة أخرى على الحائط، وقال: «أعتقد يا سندباد أنني سأعطيك راحة الليلة».

خرج من الحظيرة، ومن بين كومة الشجيرات التقط غصنًا سميكًا. وعاد إلى الداخل، وقطع طرفيه، وثبت قاعدة على أحدهما، وأعلى هذه القاعدة وضع عش طائر الرخ المصنوع من علبة من الصفيح، ثم ثبَّت الغصن على المسرح. بعد ذلك، رفع دمية الساحرة من مكانها، وفك مسامير ساقها اليسرى.

نادت فولا: «هل أنت مستعد؟».

تسلق بيتر كومة القش التي وضعها خلف المسرح، والتقط أداة التحكم في دمية الساحرة، مندهشًا من عدم ارتجاف يديه، إذ شعر فجأة بأن كل ما كان على يقين به قبل ساعة مضت يبدو الآن فكرة فظيعة.

دخلت فولا الحظيرة مرتدية تنورة أرجوانية طويلة بدلًا من بدلة العمل، لقد مشطت شعرها، وهو أمر لم يره بيتر من قبل. وقد أدهشها مدى روعة المسرح الذي بناه، وكانت

دهشتها حقيقية وليست مصطنعة. قالت: «أنت نجار موهوب، وإذا ما احتجت إلى متدرب في أحد الأيام، فسيقع اختياري عليك».

ترى هل ستظل تنظر له النظرة نفسها بعد دقائق قليلة؟ ومع ذلك، فات أوان التخمين. ومن ثم كذب قائلًا: «نعم، مستعد».

خفضت فولا إضاءة المصابيح الأربعة المعلقة، ثم سمعها بيتر وهي تسحب كرسيًّا إلى منتصف الحظيرة.

قال: «سأروي الآن قصة فتاة».

سمع فولا تأخذ نفسًا سريعًا، وبعدها لم يقدر على سماع أي صوت.

عم الهدوء عندما سحب الستار، وأخرج الساحرة من الصندوق الخشبي، وكذلك عندما سقطت بذور الذرة التي نثرها على بطنها، وكأنها ثمار الخوخ، وعندما لفها بقميصه المموه، وغطى شعرها بخوذة مصنوعة من الطين، ووضع العصا في يدها كأنها بندقية، وعندما جعلها تطلق النار من البندقية، وفك مسامير ساقها، وقربها من العش.

توقع أن يسمع صوت احتجاج عندما أشعل النار في العش، لكن فولا بقيت صامتة، ولم تصدر أي صوت. وبالضبط كما تدرب، كانت النار مجرد وهج لحظي ظهر عندما اشتعلت حفنة من نشارة الخشب الموجودة في الوعاء. استمر هذا الوهج ما يكفي من الوقت ليخلع الزي العسكري عن الدمية.

رفعها من العش، ووضعها بلطف على المسرح، حيث وضع دمية الطفل بجانب المنحوت. وجعلها تنحني تجاه الطفل، ثم تلتفت وتداعب الثعلب. وبعد ذلك أغلق الستارة.

علق بيتر أدوات التحكم في الدمى، وانتظر ليرى أي رد فعل، ولكن ظل الصمت يخيم على المكان، فمد عنقه لينظر إلى فولا من فوق المسرح.

وجدها تنظر أمامها مباشرة، أمعنت النظر فيه بوجه خالٍ من أي تعبير كأنه منحوت من الخشب. وكانت الدموع المنهمرة على خديها تلمع في ظل الضوء الخافت. وبطريقة ما أضفت عليها ملامح سيدة من النبلاء.

«أنا آسف. أردت فقط أن أخبرك بأنك... أنت لست قنبلة يدوية. أراك سيدة طيبة القلب عطوفًا، لقد استقبلتني في منزلك، وتحاولين تدريبي حتى أتمكن من العثور على باكس».

قالت بصوت خفيض تشوبه مسحة من التوتر: «اتركني وشأني يا فتى».

«انتظري. أعتقد أنه من الغباء إضاعة حياتك هنا على سبيل العقاب. أعني، ربما لم يكن هذا الرجل يهتم بهذا الكتاب من الأساس. وربما فاز به في لعبة ما في الليلة السابقة لوفاته. ربما كل ما كان يهمه هو... لا أعرف» - حاول بيتر الحفاظ على رباطة جأشه - «ربما كونه معلمًا أو شيئًا من هذا القبيل».

عندما تلفظ بكلمة «معلم»، رمقته فولا بنظرة تنم عن الغضب، لكنه لم يتوقف، وواصل حديثه قائلًا: «نعم، ربما أراد أن يصبح معلمًا؛ لذا ربما عليك أن تؤدي هذه المهمة من أجله. لكنك لن تتمكني أبدًا من القيام بذلك وأنت حبيسة هذا المكان، لذلك أعتقد أنه يجب عليك الخروج وعيش حياتك. أود أن أخبرك بأنه بغض النظر عما مررت به من أحداث مؤسفة دمرتك، يمكنك دومًا البدء من جديد مثل طائر العنقاء و...».

«أفهم ما تقوله. أنت لست مخطئًا، لكن اخرج من هنا الآن. واتركني وشأني».

هم بيتر بمجادلتها، لكن كلماته تلاشت عندما رآها جالسة في هدوء رافعة رأسها والدموع تنهمر على رقبتها. ثم لف أداة التحكم بدمية الساحرة، ثم نزل من فوق كومة القش، والتقط عكازيه. وقد خيم الهدوء التام على الحظيرة. ولكسر حاجز الصمت قال: «حسنًا».

استغرق المشي إلى الكوخ في الظلام وقتًا طويلًا. وفي الداخل، كان هناك طبق مغطى على مائدة المطبخ. انهار بيتر مستندًا إلى إطار الباب، وغمره الشعور بالذنب. لقد أعدت له فولا

وجبة العشاء. وتذكرها وهي تقول: «عليك تناول هذه الدجاجة كاملة الليلة، هل تسمعني؟».

انتابته موجة جديدة من الشعور بالذنب. لقد ذبحت فولا هذه الدجاجة، وهو أمر لم تكن تفعله كثيرًا، فقط لأنها أرادت أن يحصل على المزيد من البروتين.

اندفع بيتر بعيدًا عن إطار الباب، والتقط علبة أعواد الثقاب من جانب الموقد. ولم تكن لديه أي فكرة عن المدة التي ستقضيها فولا في الحظيرة، ولكن عندما تعود يجب ألا تجد الكوخ باردًا ومظلمًا. وهذا هو أقل شيء يمكنه أن يفعله من أجلها. أشعل جميع المصابيح، ثم أوقد نار المدفأة بالطريقة التي رآها تفعلها كل ليلة.

جلس أمام المدفأة يراقب النيران وهي تتأجج وتشتعل، وتذكر مرة ثانية المشهد الذي حدث بينهما في الحال، وتذكر كل ما قاله لفولا. إنه لم يقل سوى الحقيقة، باستثناء ذلك الجزء المتعلق برغبة ذلك الجندي في أن يصبح معلمًا، لكن من يدري، ربما أراد ذلك بالفعل. أدرك أنه لم يتلفظ بكلمة واحدة دون قصد، ولم يتفوه بشيء يندم عليه.

هبت عاصفة فوق المدخنة فكادت نيران المدفأة الضعيفة تنطفئ. مد يده ليأخذ مجموعة أخرى من الصحف، وبينما كان يجعدها ليلقي بها وسط النيران، لفت انتباهه عنوان رئيسي: **القوات تستعد للاشتباك. المنطقة التي سيتم إخلاؤها.**

بسط الصحيفة، وقرأ الخبر، وأمعن النظر في الخريطة، وانتابته حالة من الذهول.

ثم أمسك بعكازيه، وخرج إلى الشرفة بسرعة كبيرة لدرجة أن فرانسوا قفز من عشه، وانطلق في عتمة الليل. جمع بيتر ملابسه في حقيبته، ثم نظر حوله، فلم يرَ سوى سوار العنقاء، وصورة والدته، وقفازه وكرته. وضع السوار على الأرجوحة الشبكية حيث يمكن أن تجده فولا، ووضع باقي الأغراض في الحقيبة، ثم توجه إلى المطبخ.

أدرك أن فولا عادت من فورها. وقد علقت قبعتها على الشماعة، ونظرت إلى المدفأة، ثم التفتت إليه؛ وللحقيبة التي يحملها.

أعطاها الصحيفة.

على الفور أمعنت النظر فيها، ثم نظرت له بحثًا عن تفسير.

أشار إلى الخريطة، وقال متألمًا: «هل ترين هذه المنطقة التي سيغلقونها؟ إنها على بعد 8 كيلومترات فقط من المكان الذي تركت فيه باكس».

«هل أنت متأكد؟ إنها منطقة كبيرة...».

«أنا متأكد! هل ترين هذه المساحة الفارغة؟ إنه مصنع حبال مهجور مبني من جدران حجرية عالية، ويطل على النهر بالقرب من المكان الوحيد الذي يمكنك عبوره منه - المساحة المتبقية عبارة عن وادٍ عميق ضيق - سوف يتقاتلون هناك من أجل الماء. لقد كنت أنا وأصدقائي نلعب لعبة الحرب عند هذا المصنع؛ لأننا رأينا أنه أفضل مكان للكمين. لقد تركت باكس على الطريق المؤدي إليه، معتقدًا أنه سيكون في...»، وقد علقت كلمة «أمان» في حلقه. تحرك بسرعة نحو الشماعة المعلقة على الباب ليلتقط سترته.

«توقف، إنهم يستعدون للقتال هناك، فلا تكن مجنونًا».

«هذا ليس جنونًا، بل هو عين الصواب. أنا متأكد من ذلك. أتذكرين الجبن؟ سألتني ما هو النوع الذي أحبه ولم أعرف؟ والدي يحب الجبن الشيدر؛ لذا لا نشتري غيره. ربما أكون أحب نوعًا آخر. يبدو الأمر كما قلت، إنني أعاني اضطراب الهوية. ولم أميز الصواب من الخطأ عندما تركت باكس وحيدًا في الغابة. لكنني الآن أميز جيدًا الفارق بينهما. والآن أعلم أنني بحاجة للذهاب إلى هناك. أنا على يقين بذلك».

جلست فولا، وبيدها الخريطة، ثم قالت: «حسنًا. ربما تكون على صواب، لكنك ما زلت تقف على رجل واحدة يا فتى. ومستحيل أن تتمكن من الذهاب إلى هناك، انظر إلى هذه المسافة».

«لا! لقد أهدرت ما يكفي من الوقت. ولن أنصت لك بعد الآن».

رفعت فولا الصحيفة، وقالت: «انتظر، تعالَ إلى هنا. هناك شيء يجب أن تراه».

عبس بيتر، لكنه عاد إليها.

«أتذكر روبرت جونسون؟ صديقي سائق الحافلة الذي حدثتك عنه، مَن كان يرسل رسائلك بالبريد؟ هل ترى هذا المكان هنا؟» نقرت على الزاوية العلوية اليسرى من الخريطة الملحقة بالمقالة، وأردفت: «تلك المدينة هي المحطة الأخيرة في طريقه. إنه يمر من هنا في الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق يومي الثلاثاء والسبت، وهذا هو المكان الذي يتوقف عنده في نهاية الليل. فماذا لو ساعدتك على استقلال تلك الحافلة غدًا؟ يبدو أن هذا سيوفر عليك ما لا يقل عن 400 كيلومتر، ليتبقى لك نحو 60 كيلومترًا لتقطعها بنفسك. أفهمت قصدي الآن؟».

ألقى بيتر عكازيه، وجلس على الكرسي، وقد غمره الشعور بالارتياح، قال: «هل ستفعلين ذلك من أجلي؟ لكن 400 كيلومتر ليست مسافة كبيرة».

«لا. قطع مسافة 400 كيلومتر عبر الغابات والتلال على عكازين أمر صعب. فستمضي ثلاثة أيام على الأقل، على ما أعتقد، بعدها ستشعر بالإرهاق. ولكن الذهاب بالحافلة سيساعدك كثيرًا. إذن هل ستبقى الليلة هنا؟ اتفقنا؟».

أمسك بيتر بيدها، ونظر إليها قائلًا: «اتفقنا». عندما أمعن النظر إلى وجهها رأى آثار الدموع التي ذرفتها في الحظيرة، فأدرك أنه لا يستطيع تركها بهذه الحالة دون إصلاح الموقف، لكنه في الوقت ذاته لا يملك الوقت الكافي لذلك، كرر ثانية: «اتفقنا، لكن لديَّ ثلاثة شروط».

23

بزغ القمر بين الأشجار بلون أصفر كريمي أشبه بلون البيض الذي تناوله باكس قبل أسبوع. وأخذت معدته تتلوى من الجوع وهو يسير على حافة النهر.

منذ أن تركه البشر منذ قرابة أسبوع ونصف الأسبوع، لم يتناول وجبة مشبعة إلا ثلاث مرات، وآخر وجبة تناولها - مجموعة من الأسماك المتعفنة على ضفة النهر - تقيأ بعد دقائق من هذا. وأحضر قطعة اللحم التي كان قد خبأها من قبل، وشاهد بفخر بريسل ورانت وهما يأكلان منها، لكنه لم يشاركهما. وما زال لم يحالفه الحظ في الصيد. لقد اختفى مخزون الدهون بجسده، وبدأ يفقد عضلات جسمه لدرجة أن فروه بدأ يتدلى.

وجَّه باكس أنفه نحو معسكر البشر، الذي. كان دائمًا، يعذبه برائحة الطعام الشهية المنبعثة منه. وعلى مدار اليومين الماضيين، وصل المزيد من المتعطشين للحرب، وكان المئات منهم يتجمعون باتجاه الجنوب. اهتزت الأرض تحت أرجل باكس بسببها، لكنه لم يكترث لذلك بسبب جوعه.

التفت إلى المكان الذي تجلس فيه بريسل لحراسة رانت النائم، وأشار إليها ليخبرها بأنه سيغادر.

وعلى الرغم من أنه كان يستطيع رؤية المعسكر أمامه مباشرة، اختار الذهاب إليه عبر الطريق القديم - الوادى الضيق والسلسلة الجبلية - لأن الحراس على جدران المصنع كانوا في مواجهة النهر.

عبر الصخور في الماء، ولم يترك خلفه أي أثر. وبعيدًا عن صمت الحقل الذي حل به الخراب والدمار، رفع أذنيه ليسمع أصوات الليل التي يمكنه تمييزها الآن والتي تطمئنه. صوت الخفافيش الرقيق، وصوت حركة حيوانات الظربان، واصطدام بعضها ببعض، وضجيج فئران الحقل تحت الأرض، ونداءات البوم البعيدة - كل هذه الأصوات أخبرته بأنه لا يصطاد بمفرده.

لم يصدر باكس نفسه أي ضجيج، فقد تعلم أسرار التخفي من جراي وبريسل. ومثل الظل، انزلق عبر السلسلة الجبلية حتى وصل إلى أسفل التل، ودخل خيمة الطعام.

لم يكن هناك لحم معلق يسهل الوصول إليه هذه الليلة، لكن الطاولات كانت مليئة بالخضار والخبز. دفع قطعة الجبن من على الطاولة إلى الأرض. كان مذاقها قويًّا وغريبًا، ومع ذلك ظل يأكل سريعًا حتى امتلأ بطنه. وأثناء خروجه حاملًا قطعة كبيرة من أجل بريسل، أوقفته رائحة مألوفة فجأة؛ إنها رائحة زبد الفول السوداني.

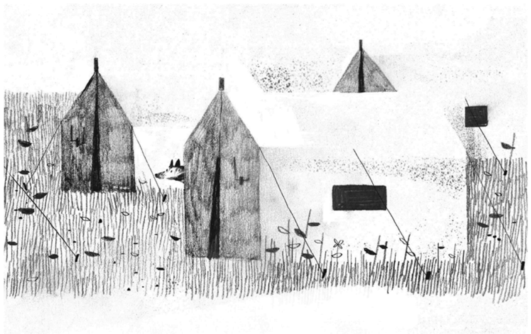

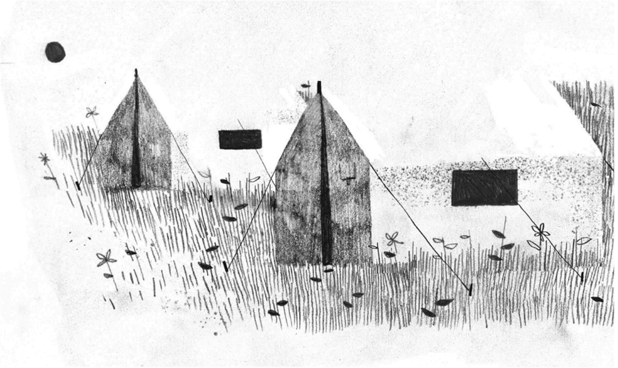

كانت الرائحة تنبعث من سلة معدنية كبيرة. ومن ثم ألقى باكس قطعة الجبن، ووقف ليشم أطراف تلك السلة التي تشبه سلة المهملات في منزل صديقه، كانت الرائحة المنبعثة منها

تعد بمجموعة متنوعة من بقايا الطعام. ولكن من بين مزيج الروائح تصاعدت الرائحة التي كان يشتهيها أكثر من أي شيء آخر. اهتزت شواربه من الفرحة. ودفع الغطاء جانبًا بضع سنتيمترات.

وجد الجرة الشفافة ملقاة فوق الكومة، وكانت جوانبها لا تزال ملطخة بالكثير من الكريمة الغنية.

وضع أنفه تحت الغطاء وعض الجزء العلوي من حافة الجرة بحذر، عرف من خلال تجربته السابقة أن هذه هي الطريقة الصحيحة للإمساك بها حتى لا تغطي أنفه. وبسرعة اندفع بعيدًا عن سلة المهملات.

وقع الغطاء على الأرض الصخرية، مصدرًا صوتًا أشبه بناقوس الخطر في الليل الهادئ.

انحنى باكس تحت الطاولة، وتجمد في مكانه، وتسارعت نبضات قلبه.

رُفع ستار إحدى الخيام، وخرج شخص ما، وأضاء شعاعًا من الضوء. حتى وسط رائحة زبد الفول السوداني، تعرف باكس على رائحة هذا الشخص: إنه والد بيتر.

رفع باكس كفه، مستعدًا للاندفاع في أي اتجاه يبدو أكثر أمانًا. وظل الرجل يوجه الضوء حول الخيمة.

وعندما تسلط الضوء على عيني باكس، جفل لكنه لم يتحرك من مكانه. وضاقت حدقتا عينيه، ورأى الرجل ينحني ليحدق إلى وجهه. وظل باكس متجمدًا في مكانه، رافعًا كفه لأعلى، والجرة لا تزال مثبتة بين فكيه، أخذ كل واحد منهما يحدق إلى الآخر، ويفحص ملامحه من كثب.

حك الرجل ذقنه، وصاح بعدها، ثم أطلق ضحكة عالية. خفض باكس كفه بضعة سنتيمترات مع الاستمرار في التحديق إليه وفحص ملامحه. ضحك والد صديقه مرة أخرى، ثم نهض

ورفع ستارة الخيمة، وقبل أن يدخلها ركل بحذائه.

فهم باكس معنى هذه الحركة، فقد استخدمها هذا الرجل معه كثيرًا عند باب المنزل، وعند باب قفصه، إنها تعني: يمكنك المرور بسلام. اذهب الآن، ولن أؤذيك. إنه اتفاق موثوق. وبناء عليه اندفع باكس سريعًا بعيدًا نحو مكان آمن في ظل عتمة الليل.

لم يبطئ سرعته حتى وصل إلى الجزء العلوي من التل، بعدها دفن الجرة، ثم جثم ليراقب الحركة في المعسكر في ضوء الفجر. وعلى الرغم من أنه كان متأكدًا من عدم تتبع البشر له، فإنه انطلق شرقًا، وأخذ يتحرك ببطء وهدوء مدة نصف ساعة قبل أن يعود أدراجه مرة أخرى وينحدر نحو النهر.

عندما عاد باكس، وجد رانت مستيقظًا، ولأول مرة منذ الانفجار، كان يكافح من أجل النهوض، لكن بريسل حثته على الراحة والاستلقاء.

لاحظ باكس أن شفتيه متشققتان، وعينيه غائرتان، فقال على الفور: إنه يحتاج إلى الماء.

نظرت بريسل إلى حافة النهر البعيدة التي يصعب على أي ثعلب يتمتع بكامل صحته الوصول إليها، فهل سيقدر رانت على ذلك؟

ثبت الثعلب الصغير رجليه الأماميتين على الأرض، ثم شد عضلات فخذيه للنهوض، بعدها نظر إلى الوراء في دهشة؛ لقد اختفت تلك الساق التي كانت جزءًا منه طوال حياته، كانت جزءًا من تكوينه مثلها مثل رائحته. انحنى وشم الجرح. بعدها نظر إلى باكس ثم بريسل، كأنه يبحث عن تفسير.

مرة أخرى بذل الكثير من الجهد للنهوض، واستند إلى ساقه الخلفية المتبقية، فتدحرج على فخذه المصابة، وصرخ من الألم.

قفز باكس ليقف بجانبه، بالقرب من ساقه المصابة.

استند رانت إلى رجليه الأماميتين مرة أخرى، ثم استقام معتمدًا على الساق الخلفية المتبقية. ومرة أخرى لم يقدر على الوقوف، وتدحرج، ولكن هذه المرة، سقط بجوار باكس، الثعلب الأقوى والأكبر حجمًا، ولم يصرخ. تمايل رانت في محاولة لتعلم كيفية الحفاظ على توازنه في ظل الوضع الجديد.

وعندما نجح وتمكن من النهوض، اتخذ باكس خطوة واحدة نحو الماء وانتظر.

تحرك رانت، في البداية استند إلى رجليه الأماميتين، ثم قفز محاولًا الاعتماد على ساقه الخلفية الوحيدة؛ لكنه سرعان ما سقط وارتطم بجسد باكس.

مرة أخرى، أخذ باكس خطوة واحدة، وحاول الثعلب الصغير محاكاته. هكذا استمرت الحال مرة تلو أخرى حتى استجمع رانت شجاعته، وسار يتحرك من دون تردد.

ركضت بريسل نحو ضفة النهر. وخطوة خطوة على الرغم جرحه، قطع رانت المسافة حتى اقترب من الضفة، ومد عنقه ليرتوي من الماء البارد.

وبمجرد أن روى ظمأه مال برأسه، وأغمض عينيه. ولكن بريسل وخزته ليفيق، فسرعان ما سيبزغ ضوء النهار، ويصبح من السهل اكتشاف مكانهم. ركضت إلى أعلى النهر بالقرب من عيدان نبات القصب.

تبعها رانت بخطوات متثاقلة، فهو لا يزال غير قادر على الحركة بسهولة، وظل يرتجف ويتحرك ببطء، لكنه لم يسقط ولو مرة واحدة. تبعهما باكس من كثب، وعندما وصلوا إلى حزمة القصب، فزع عند سماعه صوت تكسير أعواد القصب أسفل النهر. التفتت بريسل لتنظر نحو مصدر الصوت رافعة أذنيها لأعلى، فشعرت بأن هناك شيئًا ما ضخمًا قادمًا نحوهم.

خفض رانت رأسه ليشم حلزونًا على الأرض.

تحرك باكس وبريسل للوراء للاختباء وسط عيدان القصب، ونادت بريسل على شقيقها، لكنه لم يلتفت.

قفز غزال من بين النباتات، ولوح بقرنيه في الهواء، ثم غمرهما في النهر.

صرخت بريسل منادية على شقيقها مرة أخرى، لكنه تجاهلها للمرة الثانية.

تحرك الغزال سريعًا نحو الضفة الأخرى محدثًا ضجيجًا، متجهًا نحو العشب النضر في المنطقة التي لم تحترق من الحقل، وعند الحافة رفع حافره، وما إن أعاده ليلامس الأرض ثانية، اهتزت التربة وتطاير العشب. قفز الغزال بشكل مفاجئ وقوي وجرى بأقصى سرعة لديه، وجسده يتمايل بعنف.

صرخ رانت في فزع عندما لاحظ اهتزاز الأرض. دفعته بريسل وباكس نحو ظل أعواد القصب، وقاما بتهدئته حتى أدرك أنه لم يصب بأذى.

شاهد الثعالب الثلاثة الجنود وهم يركضون نحو أسفل التل، ويمررون ضوء مصابيحهم في كل اتجاه عبر الحقل، بعدها عادوا أدراجهم. عندما أشرقت الشمس بلونها الوردي فوق أشجار الصنوبر، كانت مساحات واسعة من العشب قد احترقت وتحولت إلى رماد. هرولت فئران الحقل باتجاه الأمان الممتد على ضفة النهر. وكانت في حالة من الذهول والارتباك، ما يجعلها فريسة سهلة، لكن بريسل سمحت لها بالمرور، كأنها تطيع أوامر معينة صدرت لحماية تلك الفئران المذعورة.

وقفت بريسل ونظرت إلى الحقل وما ينبعث منه من دخان، وقالت: علينا أن نغادر هذا المكان، الآن.

أدرك باكس أنها على صواب، فتبعها وخرج من بين أعواد القصب. نادت بريسل على رانت، الذي كان يراقب فأرًا ضل طريقه، حتى إنه لم يلتفت لشقيقته أو يحرك أذنيه.

عندئذ أدرك باكس الحقيقة المؤلمة: رانت لا يستطيع السمع!!

24

دخل بيتر المطبخ، فوجد فولا تشرب القهوة، لم تستطع النوم مثله تمامًا - لدرجة أنه سمعها تغادر إلى الحظيرة في منتصف الليل، ولم تعد حتى الفجر تقريبًا. رفعت قدحها وقالت: «أتود تناول الفطور قبل أن تذهب؟».

هز رأسه.

أومأت فولا، وأخذت حقيبته منه، ووضعت فيها كيسًا من الورق البني، وأضافت: «تناول شطائر اللحم أولًا، فهي تفسد سريعًا. وضعت لك أيضًا جرة من المرهم - استخدمه مرتين في اليوم. لقد ملأت زجاجتك بالماء، ولكن عليك أن تنتبه، وتبحث عن الينابيع لإعادة ملئها. واحرص على إبقاء الجبيرة جافة. وقم بربط كيس قمامة حولها إذا هطل المطر».

وضعت الحقيبة جانبًا، ولاحظ بيتر شيئًا مختلفًا فيها - رجلها، ما هذا إنها ترتدي حذاء بكلتا رجليها، صاح قائلًا: «يا إلهي أنت ترتدينه».

رفعت طرف سروالها وقالت: «ها قد نفذت شرطك الأول».

بعد دقيقة رد بيتر: «رائع، يا إلهي أين الساق الخشبية اللعينة؟».

التفتت فولا نحو الكرسي: «لا أعرف ماذا أفعل بها. ما رأيك في تركيبها لخيال المآتة؟».

أجاب بيتر على الفور بمنتهى الثقة: «لا أظنه اقتراحًا مناسبًا». ثم أشار إلى المدفأة قائلًا: «طائر العنقاء، أتذكرين؟ كل أغراضه تحترق في العش».

تنهدت فولا، لكنها وافقته الرأي. وقد حرك بيتر الجمر، وأضاف بعض الحطب. أحضرت فولا الساق الخشبية التي بدت أصغر حجمًا بطريقة ما. ذكرته الأشرطة الجلدية الملفوفة حولها بتلك التي تربط أرجل وأيدي الدمى المتحركة.

سألها: «هل أنت بخير؟».

أجابته: «نعم، أنا بخير». وألقت الساق الخشبية وسط اللهب، وراقبتها حتى اشتعلت فيها النيران.

ابتعدت فولا أولًا.

لاحظ بيتر كيف أصبحت حركتها سهلة وسلسلة باستخدام الطرف الاصطناعي، فمن يراها لا يمكنه أبدًا تخيل أن لها طرف اصطناعي. سحب غطاء المدفأة لمنع ألسنة النيران من الخروج. عندما تعود فولا إلى المنزل اليوم، لن يكون هناك سوى كومة من الرماد. سألها وهو يتبعها إلى المطبخ: «هل وافقت على الشرطين الآخرين؟».

«سنكتشف ذلك في المكتبة. لكنني قمت بتحميل المحراث بالفعل».

«أي محراث؟».

«في رأيك كيف سننقل عشرين دمية إلى المدينة؟».

«هل سنذهب إلى المكتبة بالمحراث؟».

«نعم، سنذهب إلى المكتبة بالمحراث. إلا إذا كانت لديك سجادة سحرية لم تخبرني بها. علينا أن نغادر حالًا كي نلحق بتلك الحافلة، لذا... هل أنت مستعد؟».

«نعم. لديَّ كل ما أحتاج إليه».

«لا أظن ذلك». مدت يدها خلف الباب، وأخرجت شيئًا فاجأ بيتر كثيرًا لدرجة أنه لم يستطع النطق بكلمة واحدة.

«أنت تعرف ما هو، أليس كذلك؟».

إنه مضرب بيسبول ناعم تمامًا، وذو ثقل لدرجة أن العالم بدا كأنه يتحرك ببطء عندما رفعه. وقال لها: «لقد صنعته بنفسك، لكنني لا أحتاج....».

«أعتقد أنك تحتاج إليه. وستعرف السبب عندما تصل إلى المكان الذي تقصده».

أراد بيتر أن يعيد المضرب لفولا مرة أخرى، لكنه لم يقدر على ذلك، فقد بدت فخورة جدًّا بنفسها، لأنها ظلت مستيقظة طوال الليلة الماضية كي تنحته له. ربما حان الوقت ليمتلك مضربًا من جديد. استند إلى عكازيه، وحاول أن يحافظ على توازنه وهو يحاول تسديد رمية.

عند هذه اللحظة باغتته ذكرى سيئة أخرى.

ذلك الغضب الذي شعر به وهو في السابعة من عمره؛ نوبة الغضب العارمة التي لم يستطع السيطرة عليها. إنه الرعب الناجم عن هذا الغضب. كرة والدته الزجاجية الزرقاء التي دفعها، فسقطت وتحطمت إلى ملايين الشظايا. دموع والدته وهي تقول: «عليك أن تروض هذا الغضب. لا تكن مثله». وكذلك أصابعها الملطخة بالدماء وهي تلتقط الشظايا الزرقاء من بين مجموعة الورد البيضاء. والخجل الذي شعر به عندما شاهدها وهي تبتعد.

وضع المضرب في حقيبته، كأنه كان له مكان دائمًا فيها، يا له من مضرب ماكر.

رفع الحقيبة على ظهره، وكانت تحتها قصاصة من الصحيفة، فالتقطها، وقعت عيناه على التاريخ.

فجأة انهار على الكرسي، مصدومًا مذهولًا.

سألته فولا: «ما الخطب؟».

دفع القصاصة عبر الطاولة، وقال: «إنه يعرف، والدي يعلم ذلك. هذا الخبر منشور في الصحيفة منذ اثني عشر يومًا. ما يعني أن والدي كان على علم به عندما تركنا باكس وحده في الغابة». تنفس بصعوبة وألم، وكأنه يتلقى طعنات نافذة في رئتيه، ثم أضاف: «عندما طلبت منه ترك باكس على طريق المصنع القديم، لأنه سيكون آمنًا، كان يعلم».

شعر بيتر بألم في يديه، فنظر لهما ليجد أنه أحكم قبضتيهما. فأجبر نفسه على فتحهما، وهو يقول: «كيف فعل ذلك؟».

اقتربت منه فولا، وحدقت إليه قائلة: «يؤسفني سماع ذلك، إنه تصرف فظيع».

قبض عضلات فكيه بقوة - هل يمكن أن تتحطم أسنانه من شدة الضغط عليها؟ أجبر نفسه على الحديث قائلًا: «كيف يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك؟».

«أعلم أنك غاضب...».

قبض يديه بقوة مرة ثانية، وأخذت أظافره تصنع حفرًا في راحتيه المتألمتين. بعدها ضم يديه، ووضعهما بين ركبتيه قائلًا: «لست غاضبًا، أخبرتك بأنني لا أغضب. أنا لست مثله، لن أكون مثله».

جلست فولا في مقابله، وقالت: «أوه. أفهم موقفك تمامًا. لكنني لا أعتقد أن ذلك سينجح، أنت بشر، والبشر يشعرون بالغضب».

«بالنسبة لي من الخطر أن أشعر بالغضب».

مالت فولا برأسها إلى الخلف، وأطلقت ضحكتها المروعة قائلة: «أوه، دعني أخبرك بأن المشاعر كلها خطيرة. الحب والأمل، ... هل سمعتني؟ الأمل. أنت تتحدث عن الخطر، أليس كذلك؟ اعلم أنه لا يمكنك تجنب أي من هذه المشاعر. ويكمن داخلنا جميعًا وحش يسمى الغضب. وهذا الوحش يمكن أن يخدمنا - الخير يأتي نتيجة الغضب في وجه الشر؛ ومواجهة الشر منع للظلم وإقامة للعدل - لكن علينا أن نتعلم أولًا كيف نروضه».

شعر بيتر بأن أعصابه على وشك الانهيار، لذا قال: «ألا يمكنك، ولو مرة واحدة فقط، التوقف عن مطالبتي بإيجاد حل لمشكلة ما بمفردي؟ وهل من الصعب عليك تقديم الحل ولو مرة واحدة؟ سوف أغادر الآن. لديك كل هذه...» - لوح بيده إلى اللوحة المثبت عليها البطاقات - «...هذه الحكم. فهل من الممكن أن تسدي لي بعض النصائح؟».

«ماذا، هل تريد مني أن أعطيك واحدة من النصائح المدونة بالبطاقات الفلسفية من أجل رحلتك؟ مثل: عندما تشم رائحة العسل في الغابة، اركض لأن ذلك يعني أن الدب قريب جدًّا».

«نعم. ولكنني أريد نصيحة فعالة».

«نصيحة فعالة، في الواقع، ليست لديَّ نصائح سحرية أقدمها لك. إنها رحلتك، وليست رحلتي. ولكن بما أنك أثرت الموضوع، فلديَّ بطاقة لك». سحبت بطاقة من اللوحة وسلمته إياها.

صاح مندهشًا: «إنها فارغة».

«إنها كذلك الآن. لكن على مدار رحلة كتلك التي ستقوم بها، سوف تجد ما تدونه بها. ربما حقيقة خاصة بك، تكتشفها بنفسك».

عندئذ شعر بيتر بالإرهاق فجأة، وكأنه مضى سنوات في محاولة السيطرة على مشاعره وقمعها، وكأنه عاش وحيدًا فترة طويلة.

حدقت إليه قائلة: «الشعور بالاتحاد والتواصل الروحي مع كل ما حولك ينمو ويزداد يا بني. أتذكر مفهوم ’اثنين ولكن ليس اثنين‘. إنه يحيطنا من جميع الجوانب يهمس في آذاننا، ويتعمق داخلنا، وللأسف لا أستطيع أن أكون جزءًا منه - هذا هو الثمن الذي أدفعه مقابل الابتعاد والعزلة. أما أنت، فيمكنك الاستفادة منه والتناغم معه. وقد تكون بمفردك، لكنك لن تكون وحيدًا».

«ماذا لو ضللت طريقي؟».

«لن يحدث ذلك».

«أعتقد أن هذا ما حدث بالفعل».

اقتربت فولا من الطاولة، ووضعت يدها على رأسه، وأخذت تمسد شعره قائلة: «لا، لقد عُثِر عليك». ثم نهضت، وشعر بيتر بقبلتها تلامس شعره، وهي تمر من جانبه.

في الواقع، لم تكن تجربة ركوب المحراث سيئة، بل كانت مريحة إلى حد ما، لكنه كان يتحرك ببطء وصعوبة محدثًا صوتًا صاخبًا؛ لذا لم يتمكنا من التحدث بسهولة، مع أنهما كانا يجلسان متجاورين. ولم يكترث بيتر لهذا الأمر؛ لأنه كان لديه الكثير ليفكر فيه، حتى بعد أن انعطفا إلى جانب الطريق السريع الأكثر سلاسة، بقيت فولا هادئة، ورأى بيتر أنها هي الأخرى غارقة في بحر من الأفكار. ولكن عندما أشارت إلى صقر يُحلق في السماء، تذكر شيئًا أراد دائمًا أن يسأل عنه.

«ما خطبك أنت والطيور؟ ماذا عن الريش؟».

لمست فولا الريش الذي يزين قلادتها المصنوعة من الجلد، وابتسمت قائلة: «تي بول. عندما ولدت، ذكرت والدي بالطيور، ذلك لأن شعري كان منتصبًا كالريش، ورقبتي كانت نحيلة، وطوال الوقت كنت أصرخ طلبًا للطعام. أنا عبارة عن خليط من الأعراق والثقافات، فجزء مني إيطالي، وجزء كريولي، وجزء ينتمي للعديد من الأصول الأخرى. وقد لاحظ

والداي أن جميع الشعوب تحترم الطيور في ثقافاتها. لذلك أطلقوا عليَّ اسم فولا - وهو يعني ’الطيران‘ باللغة الإيطالية. لكنهم كانوا ينادونني بـ تي بول أي ’الدجاجة الصغيرة‘.

«أحصل على الريش من دجاجاتي، وأرتديه لأتذكر أنني عندما ولدت، رآني أحدهم كطائر. وهذا كل ما في الأمر، قصة بسيطة للغاية».

رأى بيتر أنها قصة رائعة على الرغم من بساطتها. وهذا يفسر النظرة التي كانت ترتسم على وجهها دائمًا عندما ترفع طائر الرخ. أدرك الآن كم من الصعب عليها أن تتخلى عنه.

نظر خلفه نحو الصناديق المصنوعة من الصنوبر التي تحتوي على الدمى المتحركة، وتمنى ألا تذكر فولا بالتوابيت. ورأى أن هذه الدمى ستخرج للحياة الآن، ستعيش حياة حقيقية في العالم الحقيقي، ولن تكون مجرد أداة تستخدم كشكل من أشكال التكفير عن الذنب.

ربما ستخرج فولا أيضًا من شرنقتها لتعيش الحياة. ولكنه لن يثقل عليها بمناقشة هذه الفكرة الآن. كانت هذه الأفكار لا تزال تدور في ذهنه عندما توقف المحراث في ساحة انتظار المكتبة، محتلًّا مساحة كبيرة.

ترجلت فولا، ورفعت أحد الصناديق. تبعها بيتر، لكنه توقف عند درجات السلم الخرسانية العريضة، وربت كتفها، وهمس قائلًا: «بالطبع تعلمين أن عليك أن تكوني حذرة بعض الشيء هنا...».

«حذرة؟».

«أقصد عند انتقاء مفرداتك ...هل تفهمين قصدي؟».

حدقت إليه بذهول، ففهم أنه بحاجة لتوضيح ما يقصده، لذا قال: «ليس من المناسب استخدام كلمة اللعين أو اللعينة هنا كثيرًا».

قالت بنبرة تحمل قدرًا من السخرية: «مهلًا، أعتقد أنني أعرف ذلك يا فتى». وفي الوقت نفسه الذي ابتسمت له فيه فتح الباب وسمح لها بالدخول.

بدت أمينة المكتبة كأنها مجموعة من الأحجار الكريمة المتناثرة، حيث كانت ترتدي وشاحًا أحمر لامعًا، وبلوزة حريرية ذهبية اللون، وتنورة ذات لون أزرق داكن. ابتسمت عندما دخلت فولا، ووضعت صندوقها على الطاولة، وما إن رُفع الغطاء، ارتسم على وجه أمينة المكتبة تعبير ينم عن الدهشة، فتذكر بيتر على الفور أنه هو أيضًا وقف عاجزًا عن الكلام عندما رأى تلك الدمى للمرة الأولى، ثم تراجع بضع خطوات، وخرج من الباب ليمنح فولا بعض الخصوصية.

كانت غيوم الصباح قد انقشعت، وبدت السماء مشرقة للغاية لدرجة أن نورها آلم عينيه. كما بدت الأصوات من حوله أقوى من المعتاد، أو ربما كان ذلك فقط بسبب الهدوء الذي عاش فيه خلال الأسبوع الماضي. سمع صوت كلب ينبح، وامرأتين تتجاذبان أطراف الحديث، وصرير مكابح إحدى الدراجات، وصراخ أطفال في ساحة لعب بجوار موقف السيارات - لقد اشتاق لسماع هذه الأصوات، وشعر بأنه غاب عن العالم مدة طويلة، وتساءل عما إذا كانت فولا تشعر بالإحساس نفسه طوال الوقت.

توجه نحو الأطفال الصغار ليمضي بضع دقائق في مشاهدتهم وهم يلعبون. وكان معظمهم منهمكًا في اللعب، والجري، والقفز على المقاعد وركوب الأرجوحة. لكن كانت هناك فتاة واحدة - ذات شعر بني مجدول على هيئة ذيل حصان - عابسة وهي تحفر في صندوق الرمل، وتنقل الرمال بمجرفة مرة تلو أخرى من مكان إلى آخر. وعند ركن بالقرب من صندوق الرمل، جلس صبي صغير يرتدي قميصًا أحمر باهت اللون، ويبدو عليه الملل، وهو يسند رأسه على قفاز البيسبول.

إنه لاعب مركز الدفاع الذي رآه خلال تدريبات فريق البيسبول.

اقترب منه بيتر قائلًا: «مرحبًا».

رفع الصبي بصره، ثم وقف، كما لو كان يستعد للقتال. أشار إلى عكازي بيتر وقال: «لقد تساءلت لماذا اختفيت ولم تظهر».

«كيف حالك؟».

سخر لاعب الدفاع، وقال: «كأنك لا تعلم أنك كذبت علينا». وأخذ مجرفة الفتاة الصغيرة وأعطاها سترة وردية اللون، وأردف قائلًا: «هلم، لنذهب إلى المنزل».

«انتظر». شعر بيتر بفزع متزايد غريب، ربما لأنه أمضى أسبوعًا في مكان معزول بعيد عن البشر. لكن الصبي أخرج شقيقته من صندوق الرمل، وكانا على وشك المغادرة، غير أن بيتر لم يكن ليسمح بذلك، لذا أردف قائلًا: «انتظر. هل تعرف معنى الوقوف في الملعب والقيام بما ينبغي لك فعله، ومعنى أن تكون مستعدًّا؟ عندما تكون المباراة على وشك البدء، ويتحول القفاز إلى جزء من يدك، وتعرف أنك تقف في المكان المناسب تمامًا؟ أتعرف ذلك الشعور؟ هل تعتقد أن هذا هو الشعور بالسلام؟».

عبس الصبي في وجه بيتر، وهز رأسه كما لو كان يريد إنهاء هذا اللقاء كله، ثم مضى في طريقه بعيدًا، وجذب شقيقته من يدها. ولم يسع بيتر سوى مشاهدتهما وهما يغادران ساحة اللعب، وشعر حينها بأن شيئًا ثمينًا ضاع من بين يديه.

ولكن عند البوابة، التفت لاعب الدفاع. وكان بعيدًا جدًّا، ولكن بدا واضحًا أنه لم يعد عابسًا الآن. رفع يده، ثم رفع إصبعين بإشارة السلام، فبادله بيتر الإشارة نفسها.

في الداخل، كانت أمينة المكتبة تُفرغ الصندوق الأخير، وقد تجمع حولها ستة أطفال، وجميعهم كانوا يبتسمون ابتسامة عريضة مع خروج كل دمية من الصندوق. وقفت فولا جانبًا تراقب المشهد. وعندما التفتت وهمت بالمغادرة رأت بيتر.

لكنه دق الأرض بعكازه لمنعها من الحركة قائلًا: «ماذا عن الشرط رقم ثلاثة؟» طرح سؤاله هذا وهو ينظر خلسة إلى أمينة المكتبة.

رمقته فولا بنظرة عبارة عن مزيج من الشعور بالغضب والاستياء، بعدها التفتت إلى أمينة المكتبة وقالت: «نسيت أن أخبرك يا بيا بأنني سأمر عليكم مرة أسبوعيًا لتعليم الأطفال كيفية استخدام هذه الدمى».

ابتسمت بيا بوكر - ابتسامة خفيفة لطيفة، ذكرت بيتر بجمال وروعة الكراميل المذاب - وقالت: «هذا سيكون لطيفًا جدًا».

انطلقت فولا نحو الباب، لكن بيتر اعترض طريقها مرة أخرى.

رفعت فولا كفيها لأعلى قائلة: «ماذا الآن؟».

رفع إصبعين من أصابعه.

«ماذا؟ أوه... حسنًا». وعادت إلى الطاولة، وحدثت بيا قائلة: «بيا، مرتين في الأسبوع. سآتي مرتين في الأسبوع لتعليم الأطفال».

ابتسمت أمينة المكتبة ابتسامة عريضة قائلة: «رائع، الأطفال سيحبون ذلك، وأنا أيضًا يسعدني رؤيتك مرات أكثر يا فولا. ربما يمكننا الذهاب لتناول القهوة بعد ذلك».

اقتربت فتاة صغيرة ذات جدائل منسدلة على ظهرها ومزينة بالخرز، وأشارت إلى الفيل وسألتها: «كيف تجعلينه يرقص؟».

حبس بيتر أنفاسه خوفًا من رد فعل فولا، ولكنها بدلًا من إلقاء محاضرة على الفتاة بخصوص اكتشاف الأمور بنفسها، جلست وحدقت إلى الفيل. ولاحظ بيتر أن حركتها صارت أكثر سلاسة مع استخدام الطرف الاصطناعي. وأصبح لديها الآن مفصل عند الكاحل - شيء بسيط للغاية جعلها قادرة على التحرك بمرونة. لقد فاتها الكثير بعدم استخدامها إياه طوال الفترة الماضية.

سألتها فولا: «لماذا تعتقدين أنه يريد الرقص؟».

حركت الفتاة الصغيرة أصابع رجليها في صندلها، وقالت: «أظافر رجله حمراء مثل أظافري». ثم رفعت يدها، ولمست الريش الموجود على رقبة فولا.

فوجئت فولا بلمسة يد الفتاة، وحبس بيتر أنفاسه مرة أخرى، لكن فولا لم تفعل شيئًا سوى لمس قلادة الفتاة المصنوعة من الخرز الأصفر.

ثم أشارت إلى الساعة الموجودة فوق المكتب، والتي كانت تشير إلى الحادية عشرة تقريبًا، وقالت: «لديَّ شيء مهم عليَّ إنجازه الآن، لكنني سأعود بعد نصف ساعة. وإذا كنتِ لا تزالين هنا، فسنكتشف طريقة لجعله يرقص».

بحلول الوقت الذي حملا فيه حقيبة بيتر وعبرا الطريق، كانت الحافلة متوقفة بالفعل في المحطة. ذهبت فولا إلى شباك التذاكر، وشق بيتر طريقه نحو المجموعة التي تنتظر الصعود. سرت رعشة قوية عبر عموده الفقري تشبه تمامًا تلك التي كان يشعر بها في كل مرة ينادي عليه فيها الحكم قائلًا: «اضرب الكرة».

أعطته فولا التذكرة، التي بدت في راحة يده صغيرة جدًّا في الحجم مقارنة بالقوة التي تحملها. نظر لها بيتر قائلًا: «سأذهب إلى هناك، وسأعثر عليه، شكرًا لك».

فُتح باب الحافلة، ومالت فولا برأسها، ونظرت للسائق وحذرته قائلة: «روبرت، هذا الصبي من أفراد عائلتي، كان في زيارة لي وهو الآن عائد إلى المنزل. تأكد من وصوله إلى هناك بأمان».

ابتعدت عن الباب، وبدأ زوجان مسنان ركوب الحافلة. وعدل بيتر من وضع حقيبته وعكازيه، واتخذ خطوة نحو الحافلة، ثم التفت لها، وقال: «أنا فرد من عائلتك؟».

«نعم أنت كذلك بالنسبة لي. والآن اركب تلك الحافلة».

كانت الدرجات التي عليه صعودها عالية، لكنه تمكن من رفع نفسه بسهولة. ثم جلس في المقدمة، وعبر الزجاج المتسخ أشار إلى فولا رافعًا إبهامه، لقد صار قويًّا الآن ومستعدًّا. ولكن عندما سمع صوت انطلاق الحافلة، أمسك بمسند الكرسي، وشعر بأنه من المؤلم حقًّا مشاهدتها وهى تبتعد شيئًا فشيئًا.

عندما بدأت الحافلة التحرك، أشارت إليه فولا كي يفتح النافذة وصاحت وهو يبتعد قائلة: «يا فتى، سوف أترك باب الشرفة مفتوحًا».

25

ظل باكس يحفر في الأرض.

منذ أن نقلا رانت إلى الوادي العميق الضيق، تناوب باكس وبريسل على حراسته - عهد الحماية الذي يقتضي أن يكونا مثل ساقيه الخلفيتين القويتين، وأذنيه. كان رانت في أمان ينعم بنوم هانئ داخل الجحر المهجور لجرذ الأرض، بعد أن وسعته بريسل من أجله. ومع ذلك، ظل باكس يشعر بالقلق، فهناك شيء ما آتٍ؛ لذا أخذ يحفر في الأرض بينما كان يراقب المكان أمام الجحر. تأثر باطن براثنه بالحفر، لكنه لم ينزف.

عندما عادت بريسل من الصيد، وضعت سنجابًا أمامه، لكنه أعرض عنه، مع أنه لم يتناول طعامًا منذ ليلتين، منذ تناوله الجبن. لكنه قرر ألا يأخذ طعامًا من بريسل أو رانت.

دفنت بريسل السنجاب، ثم استلقت بجانب الجحر لتتولى الحراسة.

انطلق باكس ليتجول في المنطقة المفتوحة مرة أخرى. كان الموقع جيدًا، فعلى الرغم من قربه من المعسكر، كان مرتفعًا بما يكفي للشعور بالأمان بعيدًا عن موضع الانفجار القريب من النهر. كما أن شجيرات العرعر التي تطوقهم من جميع الاتجاهات ستوفر لهم حماية

كافية. والأهم من ذلك أنها ستساعد على إخفاء رائحة الثعالب، فضلًا عن أنه على مسافة قصيرة، هناك ينبوع من المياه الصافية التي تتدفق من صخرة مشقوقة، والعشب من حولهم مليء بالفرائس.

ولكن هناك خطبًا ما، فثمة شيء ما آتٍ. قفز باكس عبر المسافة القصيرة بين الأشجار إلى خط القمة القريب من المعسكر.

جعله لقاؤه بوالد صديقه حذرًا جدًّا من محاولة الهجوم مرة أخرى، ولكنه في الوقت نفسه يشعر بانجذاب شديد نحو المعسكر. حركة والد بيتر - تلك الركلة القوية بحذائه عبر مدخل الخيمة وما تحمله من رسائل متضاربة؛ مزيج من النية الحسنة والتهديد - ذكرته بأنه بحاجة إلى حماية صديقه. وإذا كان والده يعيش في المعسكر، فمن المؤكد أن الفتى نفسه سيجد طريقه إلى هناك قريبًا.

بحلول منتصف الظهيرة، شاهد باكس المتعطشين للحرب وهم ينتشرون على طول ضفة النهر، ويمدون المزيد من الأسلاك، ويحفرون المزيد من الشقوق، ويدفنون المزيد من الصناديق السوداء تحت أشعة الشمس الحارقة. انبعثت منهم رائحة عرق مشبعة بنوع جديد من العدوانية.

لكن الخطر الذي شعر به بدا كان أكثر قربًا، ووحشية. ومن ثم ركض إلى الوراء، وتجول في المكان مرة أخرى.

عندما رأى رانت يخرج من الجحر، سارع لفحصه، فوجد أن الجرح كانت رائحته نظيفة وما من دماء تنزف منه. تجاهل رانت الوجبة التي أحضرتها له بريسل، فأدرك باكس أنه عطشان، لذا قال: سوف آخذه إلى ينبوع المياه.

تبعتهما بريسل، لكنها توقفت فجأة، واكتفت بمشاهدتهما باهتمام شديد، وهما يغادران.

عندما عادا، اندفع رانت مرة أخرى نحو الجحر، واستقر باكس أمامه - بدا مدخل جحر جرذ الأرض كبيرًا للغاية، وشعر باكس بتحسن عندما جلس أمامه للحراسة - لكن بريسل نادته قائلة: هلم معي، انظر.

شقت طريقها بحذر وسط العشب، وظلت تتحرك في صمت خطوة تلو أخرى، ورأسها منخفض ومائل نحو الأرض. تبعها باكس بحذر. وبعدما قطعت نصف المسافة، توقفت فجأة، وأذناها مائلتان إلى الأمام، ثم رمقته بنظرة سريعة.

سمع باكس الصوت، إنه صوت يتحرك تحت شبكة العشب التي تغطى الأرض. تعقبت بريسل ذلك الصوت كما لو كانت قادرة على رؤيته، ثم قفزت في الهواء، واندفعت بسرعة لتدفن رأسها في الأرض، ثم أخرجته من بين العشب حاملة بين فكيها فأرًا صغيرًا.

تناولته في بضع قضمات، ثم عادت إلى الخلف بضع خطوات، وظلت تبحث مرة أخرى. وفجأة توقفت، ومالت برأسها إلى اليسار قائلة: الآن حان دورك.

أنصت باكس جيدًا إلى أن تأكد من أنه حدد موقع حفيف تحت الأرض. قفز عاليًا، ثم غاص برأسه في الأرض بالضبط كما فعلت بريسل، وبالفعل هبط بقوة، لكنه لم يعثر على أي شيء، وعلى الفور ابتعد عن بريسل لينفض الأوساخ عن وجهه.

ابتعدت بريسل، واستأنفت رحلة البحث، تبعها باكس وهو يميل برأسه نحو الأرض، حتى رفعت أذنيها في إشارة لسماع صوت خافت آخر.

تراجعت مرة أخرى بينما حاول باكس القفز، ومرة أخرى لم يجد فأرًا.

حدقت إليه بريسل وهو يزيل التراب عن خديه، وقالت: اتبعني.

سار باكس خلفها حتى توقفت فجأة، ومالت برأسها نحو ثقب في العشب يشع دفئًا ومشبعًا برائحة العديد من الفئران. حذرته بريسل وطلبت منه البقاء في مكانه قائلة: لا تتحرك،

راقب ما سيحدث.

تقدمت بريسل ببطء إلى الأمام، وأمام الثقب مالت بجسدها ووضعت رأسها بين رجليها. أغمضت عينيها قليلًا، واسترخت كأنها في سبات عميق.

فوجئ باكس لأنه كان يعتقد أنها لا تزال تعلمه الصيد. وقف فرفعت ذيلها المحروق لتحذره قائلة: ابقَ مكانك، وعلى الفور استقر باكس مكانه مرة أخرى.

وللحظات عديدة، لم يحدث أي شيء. وفجأة لاحظ حركة خفيفة جدًّا عند فتحة الثقب. وإذا بأنف مرتعش يطل ليشم الهواء، ثم يتراجع. مرت لحظة طويلة أخرى، وظهر الفأر مرة ثانية. كانت حركاته خفيفة للغاية، وحذرة جدًّا، لدرجة أن باكس أدرك أنه على وشك الهروب. ولم تتحرك بريسل، باستثناء رعشة جفنها عندما رمقت باكس بنظرة تحذيرية.

ظهر الفأر، وتراجع مرتين أخريين، ثم بعد التأكد من أن الثعلب نائم، خرج وهرع للاختباء. إلا أن مخلب بريسل السريع انقض عليه، فأمسكت به ووضعته بين فكيها.

ها قد فهم باكس الدرس.

انسحبت بريسل من المكان لتحرس رانت، وتحرك باكس متلهفًا للعثور على الثقب الذي من شأنه أن يسمح له بمحاكاة تلك التجربة. وجد واحدًا بجانب جذع شجرة متعفن، واستنشق الرائحة القوية لمستعمرة فئران الحقل. استقر بجوار الثقب على مسافة تساوي طول إحدى سيقانه.

لقد جعلت حماسته من الصعب عليه البقاء ساكنًا تمامًا، ولكن أخيرًا ظهر فأر وأطل برأسه من الثقب ليشم الهواء. ومثلما فعلت فريسة بريسل، عاد الفأر للثقب مرة أخرى عند رؤية الثعلب. ومرة أخرى عاود الظهور حتى اقتنع بأن باكس نائم عندئذ خرج بسرعة ليهرب بعيدًا.

لم يكن باكس سريعًا مثل بريسل. لكنه تمكن من إسقاط الفأر الذي حاول القفز والهرب، لكن باكس أحكم قبضته عليه. وهكذا تمكن من اصطياد فريسته الأولى.

لقد كانت وجبة صغيرة، ولكن كل قضمة منها أرسلت تيارًا ساخنًا عبر جسده. لقد امتزجت حياة هذا الفأر بحياته، وعلى الفور نبضت عضلاته بالطاقة.

نهض باكس، وظل يقفز في سعادة غامرة، ويجري في المنطقة المفتوحة مارًّا ببريسل وفروه المائل للحمرة يلمع كاللهب. أما بريسل، فوقفت لتراقب ما يفعله. مر بجوارها مسرعًا مرة أخرى، لدرجة أنه بالكاد كان يلمس الأرض بأرجله، لكن كل هذا لم يكن كافيًا للتعبير عن احتفاله.

في منتصف المنطقة المفتوحة كانت هناك شجرة صمغ قديمة تمتد أغصانها السفلية فوق حفرة، وفروعها العلوية تتلألأ باللون الأزرق نظرًا لتزاحم طيور القيق عليها.

طار باكس نحو الجذع. وصعد بسهولة إلى أول فرع منخفض ووقف ليحافظ على توازنه، ثم بدأ يخطو خطوة خطوة بحذر شديد على طول هذا الفرع.

تحركت أوراق الشجرة من حوله ترحيبًا به كأنها نجوم خضراء عطرة. وعبر هذه الأوراق، نظر إلى الأسفل في دهشة، بدا المشهد مختلفًا تمامًا من أعلى. ومن هذا المكان يمكنه أن يرى عبر مجموعة الأشجار المعسكر والنهر القريب منه. وقد بدت أعشاب المرج الأخضر، التي كانت تلامس كتفيه منذ لحظة واحدة، ممتدة على شكل بساط أخضر عريض.
وهبطت طيور القيق من أعلى لتعنفه.

تذكر باكس اللحظة التي طار فيها رانت. وبسرعة ثنى جسده، ثم قفز، وحلق بعيدًا شاعرًا بالهواء وهو يداعب فرو بطنه. ليهبط بعدها بخفة مائلًا برأسه للخلف، وهو يصيح في سعادة.

هذا العالم الجديد كله صار ملكه الآن، يمكنه التجول فيه كيفما يشاء، والتغذي من خيراته متى شاء. لقد صار جزءًا من كل ذلك، وهو حر الآن، لكنه ليس وحيدًا.

أسرع باكس إلى المكان الذي دفن فيه جرة زبد الفول السوداني واستخرجها. حملها معه، وأسقطها أمام بريسل ورانت، اللذين كانا نائمين عند مدخل الجحر تحت الأشعة الأخيرة لشمس الظهيرة.

انتبه كلاهما على الفور للرائحة الغريبة. وبسرعة وقفت بريسل على أرجلها.

دفعت الجرة بأنفها، وقفزت إلى الخلف عندما رأتها تتدحرج أمامها فجأة. أخذت تشمها من كل جانب، ولعقتها بلسانها. وكان تذوقها قدرًا ضئيلًا مما فيها كافيًا. وعلى الفور أمسكت الجرة بين رجليها الأماميتين وبدأت تلتهم ما فيها بشراهة، حتى نظفت تمامًا النصف العلوي في ثوانٍ. بعدها دست أنفها بشكل أعمق فيها.

لقد فعل باكس الشيء نفسه من قبل؛ لذا حذرها قائلًا: انتبهي قد يعلق رأسك في الداخل.

لكن للأسف فات الأوان، قفزت بريسل، وأخذت تضرب رأسها من جانب إلى آخر، لكن الجرة كانت مثبتة بإحكام. قفزت مرتكزة على ساقيها الخلفيتين، وحاولت بكلتا رجليها الأماميتين التخلص منها، فسقطت مرارًا وتكرارًا.

شاهدها رانت في ذهول. فلم تفقد شقيقته رباطة جأشها من قبل.

اقترب باكس وعرض المساعدة. لكن بريسل اندفعت بعيدًا. وقالت إنها سوف تفعل هذا بمفردها. أخيرًا، استلقت على ظهرها، ونزعت الجرة من وجهها برجليها الخلفيتين. بعدها نهضت وهزت جسدها، وتراجعت بضع خطوات للوراء رافعة رأسها وذيلها لأعلى. جلست بجانب باكس وقد بدأت تنظف نفسها.

لم تجلس هكذا على مقربة منه من قبل، يتلامس جانباها في ارتياح. ولم تكن رائحتها بهذه الودية من قبل. لفت انتباهه خط من اللون البني على خدها الأبيض. ودون أن يفكر في العواقب، اقترب منها ولعقه.

وسمحت له بريسل بذلك.

نظف باكس أذنيها ورقبتها وأنفها. وبعد لحظة، بادلته العناية والاهتمام، إذ قامت بتنظيف أذنيه ورقبته وأثناء قيامها بذلك توقفت لتشم باكس بعمق قائلة: لم تعد رائحة البشر تفوح منك.

لم يبدِ باكس أي رد فعل، بل نهض ليشم الهواء. فهناك شيء خطير قدم إلى المكان مع حلول الغسق. إنها رائحة حيوان لا يعرفها، لكنه يخشاها. اختفت الرائحة بالسرعة التي ظهرت بها، لكن باكس صاح في وجه رانت قائلًا:

ادخل الجحر، الآن.

26

صاح شخص ما: «يا فتى».

التفت بيتر بسرعة شديدة، لدرجة أنه كاد يسقط. لقد كان على يقين بأن محطة الحراسة فارغة، حيث راقب المكان مدة عشر دقائق كاملة للتأكد من ذلك قبل أن يغادر مخبأه.

لكن فجأة خرج جندي من خلف إحدى الشاحنات. رفع عقب بندقيته، وأشار إلى اللافتة المربوطة فوق الحاجز قائلًا: «ممنوع الدخول».

استقام بيتر قدر الإمكان على عكازيه. لقد مر يومان على آخر مرة تحدث فيها إلى شخص ما، وقتها قال له سائق الحافلة: «لا أعرف ما الذي تنوي فعله حقًّا يا بني، لكنني لا أظن أنها فكرة جيدة. إذا كنت تريد يمكنني أن أقلك بالحافلة الليلة. ولا حرج في ذلك». أجاب بيتر: «لا شكرًا لك». حيث شعر بأنه سيكون عار عليه العودة وترك باكس، بعدها قال سائق الحافلة: «حسنًا، حظًّا سعيدًا»، ثم سمح له بالذهاب.

لم يتحدث معه أحد في تلك الليلة، لقد وصل إلى البلدة التي تقع على محيط المنطقة التي جرى إخلاؤها، والأشخاص القلائل الذين مر بهم لم يرفعوا أعينهم من الأرض، وكانوا يتحركون بسرعة، كما لو أنهم لا يستطيعون التواصل مع أي شخص قد يحتاج إلى المساعدة. قالت نظراتهم: ما من أمل هنا، لقد ضاع كل شيء، وحل الدمار.

في اليوم التالي لقدومه، من شروق الشمس إلى غروبها، وعلى مدار صباح هذا اليوم، عبر طرقات تمر بمدن خاوية، ومر بمدارس وملاعب مهجورة، وأحياء هادئة بشكل مرعب لا يُسمع فيها صوت الدراجات الثلاثية، أو أجهزة راديو السيارات، أو لعب كرة القدم. إن الصوت الوحيد المألوف هو صوت الماء المتدفق عبر خراطيم الحديقة عندما ملأ زجاجة المياه الخاصة به.

لم يرَ أي بشر آخرين، لكنه رأى الحيوانات التي تركوها وراءهم، مهرًا خجولًا يقضم العشب أمام دار العبادة، كلابًا تحدق إليه بعيون مليئة بالكراهية من خلف صناديق القمامة، العشرات من القطط النحيلة التي تتحرك بعيدًا ويبدو عليها الضعف والهزال.

اقترب الجندي وقال: «مهلًا يا فتى». ثم نظر إلى عكازي بيتر المصنوعين يدويًا، والجبيرة خشنة الملمس، والملابس المتسخة، وأضاف: «لقد قمنا بإخلاء هذه المنطقة منذ أسبوعين تقريبًا. أين كنت، ألا تعلم ذلك؟».

«أعلم ذلك. لكنني تركت عزيزًا عليَّ هناك. سأذهب لإحضاره».

«لا تقلق، لقد تحققنا من جميع السجلات، لقد غادر الجميع».

رد بيتر: «إنه ليس شخصًا». بعدها رفع ذقنه متحديًا الجندي ليقنعه بأن الأمر مهم حقًّا.

لكنه وجد ملامح وجه الجندي قد تغيرت، بدا أصغر سنًّا إلى حد ما، ورأى بيتر أنه لم يمر وقت طويل على تركه المدرسة الثانوية. أعاد الجندي بندقيته إلى حزامها، وقال: «لديَّ كلب اسمه هنري». لم ينطق بكلمة أخرى مدة دقيقة، فقط نظر إلى الطريق، كما لو كان يأمل أن يظهر كلبه هذا فجأة. ثم تنهد وأردف قائلًا: «لا أعتقد أن أحدًا يعتني به. قالت شقيقتي إنها ستفعل ذلك، لكنها مشغولة بعملها. فهل تريد رؤية صورته؟».

حتى قبل أن يومئ بيتر برأسه موافقًا، سحب الجندي حافظته، وأخرج منها صورة كلب بيجل عادي. فور رؤيتها شعر بيتر بغصة في حلقه. كانت حواف الصورة متآكلة وباهتة، يبدو أنها التقطت منذ فترة طويلة.

«هذا هنري. حصلت عليه في ذكرى ميلادي الثامنة. اليوم لم تعد الحالة الصحية لمفاصله بخير، لكنه لا يزال يحب المشي، ولا يزال يحب البحث عن السناجب وأشياء من هذا القبيل. أخبرت شقيقتي بكل ذلك، ولكن ... هنري لن يفهم أين ذهبت، وتلك هي المشكلة. سينتظرني عند الباب طوال اليوم. كيف يبدو شكل كلبك؟ سأنتبه جيدًا لرؤيته».

«باكس ليس...» توقف بيتر، ولم يكمل جملته، فما دام باكس ليس إنسانًا، لا يهم أن لم يكن كلبًا، لذا أردف قائلًا: «لونه بني مائل للحمرة وسيقانه سوداء اللون».

«ما حجمه؟ ذئاب البراري منتشرة هنا، وتضع صغارها في هذا الوقت من العام، وسوف تهاجم أي كلب صغير من أجل حماية جرائها».

«إنه صغير جدًّا». اعتدل بيتر في وقفته لتخفيف الضغط على كفيه المتقرحتين، ثم أضاف: «من فضلك لقد قطعت مسافة طويلة جدًّا للقدوم إلى هنا والبحث عنه».

حدَّق الجندي إلى صورة كلبه دقيقة أخرى قبل أن يضعها في حافظته. وعندما نظر إلى بيتر مرة ثانية بدا أكبر سنًّا، فقال له: «إننا نحاول التصدي للأعداء لكنهم قادمون. ادخل، لكن اعلم أن عليك أن تعود بحلول الغد». ثم أشار إلى عكازي بيتر وسأله: «هل يمكنك فعل ذلك؟».

«نعم يمكنني. إذًا ... هل ستسمح لي بالمرور؟».

نظر الجندي حوله، واقترب منه قائلًا: «هناك دوريات تتناوب حراسة هذا الطريق كل ساعة، لكننا نحرس فقط المداخل الرئيسية. لم يتخذ أحد مركزًا له في الغابة حتى الآن. يمكنك السير مسافة 18، مترًا، ولن يوقفك أحد. لكن اسمع: إذا ما قُبض عليك، فأنا لم أخبرك بأي شيء. الآن ابتعد عن هنا».

«شكرًا لك». استدار بيتر، وانطلق نحو الغابة قبل أن يغير الجندي رأيه.

قال الجندي: «يا فتى، آمل أن تعثر عليه».

كان الجو هادئًا في الغابة، ولكن الهدوء هنا يتناسب مع طبيعة المكان، وقد كسر هذا الهدوء صوت الكائنات البرية، ذلك الصوت الذي بث الأمل في نفسه. هنا، يستطيع بيتر تخيل رؤية ذيل باكس البني وهو يتحرك بين الأشجار. وهنا، عندما ينادي، من السهل تخيل صياح باكس ردًّا عليه. إن كل هذه الأفكار رفعت معنوياته لدرجة أنه كاد يتجاهل الألم في راحتيه وتحت إبطيه، والنزيف والالتهاب.

لمدة ساعة ظل يتحرك عبر الأرض المليئة بالكثير من إبر الصنوبر المتساقطة على مر العقود، وبدت الأرض مرنة كأنها تساعده على الحركة. وعندما سمع الصوت القوي للسيارة

الجيب، اختبأ خلف بعض الشجيرات حتى مرت في سلام. وبعد ذلك، سار على طول حافة الطريق، واثقًا بأنه عندما تمر دورية أخرى، سيكون لديه ما يكفي من التحذير للاختباء.

وسرعان ما وصل إلى المكان الذي يقصده.

إنه ليس مكانًا ذا علامة معينة، أو طريقًا معينًا يستقيم بعد انعطاف طويل، بل بقعة تفوح منها رائحة الخيانة. لقد ارتكب فعلة شنيعة هنا، وظل المكان محفورًا في ذاكرته.

صاح قائلا: «باكس». نادى دون أن يبالي بما إذا سمعه أحد، فلتأتِ سيارات الجيب، فليأتِ جيش كامل، فهو لم يكن ليغادر دون ثعلبه. نادى ثانية: «باكس» لكن في ظل كل هذه الصيحات، لم يجد حوله سوى الصمت العميق. صمت مشئوم، غير واعد على الإطلاق.

استأنف السير على الطريق مرة أخرى، وهو ينادي محافظًا على تركيزه على حافة الطريق المغطاة بالحصى. كان على يقين بأن باكس كان يحمل دمية الجندي في فمه عندما ابتعدت السيارة. وأدرك في قرارة نفسه أنه عندما يفقد باكس الأمل في عودته، سيسقط هذه الدمية من فمه. أراد بيتر أن يمسك هذه الدمية بيده مرة أخرى، فهي دليل قوي على أن ثعلبه كان هنا.

قطع مسافة 400 متر، ثم 800 متر، وعيناه إلى أسفل، ثم توقف فجأة، لم يكن ليجد تلك الدمية. لأن باكس لم يكن ليفقد الأمل قط. مطلقًا، لم يكن ليظن أن صديقه قد تخلى عنه، فقد كانا لا ينفصلان، وباكس كان على علم بهذه الحقيقة طوال الوقت. بيتر هو من كان بحاجة لإدراك ذلك.

إذا لم يكن باكس هنا، فلا بد أنه ذهب إلى المنزل للعثور على بيتر، أو على الأقل حاول ذلك - ربما منعه النهر من القيام بذلك، وربما لا. الكلاب تعود إلى منازلها على الرغم من كل الصعاب طوال الوقت. وباكس أذكى من أي كلب عشر مرات، فلماذا لا يتمكن من إيجاد طريقه؟ ربما كان في المنزل الآن.

المنزل. يا إلهي المنزل على بعد نحو 16 كيلو مترًا جنوب شرق المصنع القديم. والمصنع على بعد 8 أو 9 كيلو متر جنوب المكان الذي يقف فيه الآن.

لذلك سوف يتجه جنوبًا، ويظل ينادي باكس على طول الطريق. سيكون الوادي العميق الضيق المجاور للمصنع خطيرًا للغاية، حتى إنه لا يمكن اجتيازه في الظلام، لذا سيتحتم عليه النوم هناك، ثم يحاول التحرك عند الفجر. وسوف يعبر النهر من موضع اتساعه بالقرب من المصنع، وبعد قطعه مسافة 16 كيلو مترًا أخرى من مسارات يعرفها جيدًّا، سيجد نفسه في منزله.

قال بصوت عالٍ: «انتظرني يا باكس، أنا آتٍ».

27

استيقظ باكس مفزوعًا، وشعر بأن صديقه في مكان قريب.

قفز من مكانه، وأيقظ بريسل، التي كانت تغفو بجانبه، وبدأ يبحث في كل مكان حوله عن رائحة بيتر.

لم يعثر على أي شيء، لكنه على يقين بأنه قريب منه.

اندفع عبر الأشجار نحو الحافة الجبلية التي تطل على المعسكر. ولم يره بين المتعطشين للحرب. ولم يسمع صوته وسط التذمر والصراخ. زحف نحو أسفل التل، وظل يحوم حول المعسكر مقتربًا منه قدر الإمكان، استشعر الروائح من جميع الاتجاهات، لكن صديقه لم يكن هناك.

لكنه كان قريبًا، وقادمًا إليه.

عاد باكس إلى بريسل، واستلقى بجانبها، لكنه لم ينم.

28

انطلق بيتر نحو الجنوب، وظل يمشي مدة ساعة تقريبًا، وهو على يقين بأن باكس قد مر بالطريق نفسها. ولكن عندما خرج من الغابة توقف.

ظهر أمامه مرج واسع، جزء منه منخفض لأسفل، ويمتد مسافة تقدر كيلو متر على الأقل، والجزء الآخر مسطح ويمتد مسافة وستمائة متر من الأرض الخضراء الواسعة. وعند نهاية هذا المرج، ارتفعت الأرض عشرات الأمتار في شكل تدرج غريب، وكأنها جُرفت باستخدام مجرفة عملاقة. وبعد ذلك، تمتد نحو الأفق المنطقة المشجرة التي تخفي الوادي العميق الضيق.

منذ استيقاظه، سافر طيلة تسع ساعات دون أن يفكر في الراحة مرة واحدة، ولكن الآن عندما أدرك حجم المسافة الهائلة التي لا تزال أمامه شعر بالإرهاق، واستنزاف ما بقي من طاقته.

ألقى حقيبته وسقط على الأرض.

تصلبت يداه، وصارتا أشبه بمخلبين نتيجة ضغطه على مقبضي العكازين طيلة تسع ساعات متواصلة. فتح كفيه عنوة وشعر بتشقق جلدهما الناعم. لقد تقرحتا من قبل، وعالجهما، وها هما قد تقرحتا مرة أخرى. سكب الماء البارد من زجاجة المياه على كفيه

الملتهبتين، وبدأ التقاط بقايا المطاط العالقة بهما. وببطء وهدوء وضع زوجًا إضافيًّا من الجوارب على يديه، ونظر إلى المساحة الشاسعة أمامه.

لفتت انتباهه حركة في منتصف الطريق أسفل الوادي؛ إنه شيء يتحرك ويقفز بين شجرتين. يبدو أنها حركة ثعلب. نهض مرتكزًا على ركبتيه، وصاح: «باكس».

تحرك هذا الشيء مرة أخرى. لكن لا، أيًّا ما كان هذا الشيء فهو ليس باكس، فلونه أسمر أو أصفر وليس بنيًّا مائلًا للحمرة. ربما يكون ذئب براري.

إن الفكرة نفسها كانت صادمة ومروعة بالنسبة له، وجعلت الأدرينالين يتدفق في عروقه، وفجأة نهض وواصل مسيرته، ظلت حقيبته تصطدم بظهره، وعكازاه يتحركان نحو أسفل التل على طول الطريق إلى قاع الوادي على مدار نصف ساعة تقريبًا بعدها غرق العكازان في الأرض المستنقعية هناك، تلك الأرض الموحلة التي جعلته يتحرك بشكل أبطأ، ولكنه ظل يتحرك.

ثم ظهر أمامه جدار صخري شاهق يبلغ ارتفاعه نحو 3 أمتار. بدت الصخور أعلى كثيرًا مما ظهرت عليه عبر الناحية الأخرى من الوادي.

قبل أن يسيطر عليه التردد، ألقى حقيبته، ثم عكازيه، وسمع صوت ارتطام كل هذا بحافة صخرية، بعد ذلك أدخل أصابعه في شق وسحب نفسه لأعلى. احتكت الجبيرة بسطح الصخرة الخشن، لكن ذراعيه كانتا قويتين بفضل تدريب فولا، فاستخدمهما ليدفع نفسه نحو موطئ قدم غير عميق. ومن هناك، مد يده نحو شجرة بارزة، ثم شق آخر في الصخرة، وأخيرًا دفع نفسه فوق الحافة الأولى.

استغرق ساعة كاملة ليتسلق الجدار الصخري المتدرج بهذه الطريقة: إلقاء العكازين والحقيبة أولًا، ثم دفع نفسه بعد ذلك. وعندما وصل إلى القمة، وهو يلهث ويتصبب عرقًا،

سقط على الأرض تحت شجرة صنوبر يافعة. وشرب الماء الموجود في زجاجته دفعة واحدة، وأكل آخر شطيرة لحم بحوزته. بعدها فتح العلبة الثانية التي أعطته فولا إياها.

إنها تحتوي على شطيرة زبد الفول السوداني، وما إن رآها شعر بيتر بغصة في حلقه، حيث تذكر المرة الأولى التي عثر فيها باكس على جرة فارغة منها في سلة المهملات. وكيف أنه دفع أنفه بعمق حتى علقت في الجرة، وحينها ظل بيتر يضحك حتى شعر بالألم من كثرة الضحك. على الفور أعاد بيتر الشطيرة إلى الحقيبة، متمنيًا لو أنه وجدها في اليوم السابق وألقاها للكلاب التي كانت تبحث في صناديق القمامة عن طعام، بعدها نهض مرة أخرى. لقد كانت الساعة السادسة تقريبًا، وما زالت أمامه مسافة كبيرة ليقطعها.

وطوال رحلته، رافقته ذكرى تلك الحيوانات الجائعة، وهي تتحرك وتندفع وتنسحب، وكأنها أشباح تلقي باللوم عليه. لقد تمنى أن يخبرها بأنه يعرف جيدًا ذلك الشعور عندما يختفي فجأة الشخص الوحيد الذي أحبك ورعاك. وكيف يبدو العالم فجأة خطيرًا عقب ذلك.

لقد فقد بيتر والدته. وعليه ظل يتساءل كم عدد الأطفال الذين استيقظوا هذا الأسبوع ليجدوا أن عالمهم قد تغير بهذه الطريقة؛ ذهب آباؤهم إلى الحرب، وربما لن يعودوا إلى المنزل أبدًا؟ بالطبع هذا هو أسوأ تغيير قد يحدث لهم. ولكن ماذا عن الخسائر الأقل فظاعة؟ وكم عدد الأطفال الذين يشتاقون لأشقائهم أو شقيقاتهم الأكبر سنًّا خلال شهور طويلة؟ وكم عدد الأصدقاء الذين تحتم عليهم أن يودعون بعضهم البعض؟ وكم عدد الأطفال الذين يعانون الجوع؟ وكم عدد الأطفال الذين تحتم عليهم ترك منازلهم؟ وكم عدد الحيوانات الأليفة التي اضطروا إلى تركها وراءهم لتدبر أمرها بنفسها؟

ولماذا لم يفكر أحد في تلك الأمور؟ قالت فولا من قبل: «يجب التحدث بصراحة عن عواقب الحرب». ألا تعد هذه الأمور من عواقب الحرب أيضًا؟

فزع بيتر عندما لاحظ حلول الظلام. ونظرًا لما شعر به من ذعر شديد - كان ينبغي أن يبحث عن مكان مناسب ليستقر فيه ليلًا - ظل يدور حول نفسه. وقد ارتطم عكازه الأيسر

بمجموعة من الحجارة فسقط بقوة، وسمع صوت طقطقة حادة، للحظة خشي أن يكون هذا صوت تهشم أحد ضلوعه! لكنه كان صوت قطعة من الخشب. حاول الجلوس وهو لا يزال ممسكًا بالجزء العلوي من العكاز أما الجزء السفلي منه، فكان عالقًا بين الحجارة على بعد نحو متر ونصف المتر.

قال: «اللعنة». خرجت الكلمة من فمه بتلقائية، ومنحته شعورًا بالرضا، وانخرط في التلفظ بغيرها من الكلمات تنفيسًا عن غضبه. لكن تجاهل الغابة المظلمة لصيحاته جعله يشعر بعدم الارتياح، فتوقف. وعلى أي حال، لم يكن هناك وقت للنحيب، فلديه عكاز عليه إصلاحه ولم يتبقَّ الكثير من ضوء النهار.

وجد نفسه محاطًا بفروع الأشجار الصلبة التي يمكنه تثبيتها على الأجزاء المكسورة باستخدام شريط لاصق من أجل دعم العكاز. ولكن لم تكن لديه فأس ليقطعها. وعندما أخرج المضرب من حقيبته حتى يتمكن من العثور على الشريط اللاصق، أدرك أن الحل في يده.

حاول إعادة الأجزاء المكسورة من العكاز إلى مكانها، ثم وضع المضرب عليها، بعدها بدأ لف الشريط. وعندما انتهى، اختبر الاستناد إلى العكاز بوزنه الكامل. فوجده قويًّا وصلبًا. وتمنى أن يتمكن من إخبار فولا بأنها كانت على حق، وأنه سيحتاج إلى المضرب في رحلته.

جلس على ركبتيه بجانب حقيبته مرة أخرى. كان الحادث تحذيرًا كافيًا بالنسبة له لذا استقر في مكانه، وأخرج الأشياء التي يحتاج إليها لإقامة مخيم الليلة، أمسك بوعاء وملأه بكومة من الأغصان والعشب المجفف وقرب منه عود كبريت، فاشتعلت النيران.

وضع بيتر سكين الجيب فوق النيران حتى تأكد من تعقيمها، ثم كزَّ على أسنانه وشق البثور الجديدة التي تشكلت على راحتيه. وقد جعله الألم يلهث، لكنه وضع بعضًا من مرهم فولا وأخذ نفسًا عميقًا حتى يخف الألم. ذكرته رائحة الأعشاب بمطبخها، وتساءل عما إذا كانت هناك الآن. ترى كيف تدبر أمورها الآن من دون تلك الساق الثقيلة التي كانت تستخدمها؟

وقبل أن يضع سكينه جانبًا، رفعها في الهواء، ليرقص آخر ضوء للنار على طول نصلها. في هذه اللحظة، تذكر المرة الأولى التي رأى فيها سكين فولا، وكيف صدم عندما قطعت جزءًا من ساقها الخشبية.

رفع بيتر بنطاله الجينز، وضغط بسطح السكين على ساقه وحاول تخيل قطع جزء من لحمه فقط لشعوره بالانزعاج منه، أو لأنه لم يكن مثاليًّا.

حينئذ، عوى ذئب، ثم أجاب آخر من مكان بعيد، فارتجف بيتر وحرك السكين، وضغط بها على جلده، ثم سحبها بسرعة، فأحدثت جرحًا طوله بضعة سنتيمترات، لكنه نتج عنه ألم شديد. وهكذا أدرك ميزة أن تكون لديك ساق مصنوعة من الخشب.

تجمعت قطرات من الدم، وعندما بدأ الدم الداكن يقطر، استخدمه في رسم ثعلب يقفز. وبظفره رسم أنفًا مدببًا، ثم أذنين. وبمسحة من إبهامه رسم الذيل.

باكس، موعدنا غدًا.

إنه عهد كتبه بدمه، والتزام منه تجاه ثعلبه.

29

انتفخ بطن باكس نتيجة تناوله ثلاثة فئران. فضلًا عن أن هناك فأرًا آخر يتدلى من فمه، فأر المسك، وهو أول فريسة ضخمة له. سوف يغذي بريسل ورانت طوال اليوم. كان يتوق إلى النوم بعد ليلة طويلة من الصيد، لكنه كعادته ظل يمشي في مسار متعرج طويل لإرباك وتشتيت أي حيوان مفترس محتمل. إن الأثر الذي تركه رانت وهو ينزف أثناء تحركهم لا يزال قويًا بما يكفي لتعريضهم للخطر.

ألقت أشعة الشمس الأولى بنورها على الأرض العشبية. رأى حركة فلفتت انتباهه. إنها بريسل. كانت تقفز وتتحرك بحرية في المكان بدلًا من الوجود قرب الجحر لحراسة رانت. لقد شاهدها وهي تقفز وتتظاهر بالفزع، ثم تتدحرج على العشب. بعدها رأى مشهدًا أكثر إثارة للدهشة: إنه رانت يميل برأسه ويلعب.

رانت خارج الجحر، ويلعب.

ألقى باكس بالفأر، ونادى بريسل.

فالتفت رانت.

نادى باكس ثانية للتحقق من الأمر.

فأجابه رانت، لقد استعاد قدرته على السمع.

شعر باكس بارتياح شديد لدرجة أنه عجز عن الحركة لحظة. بينما كان يعتني من قبل بصبي واحد فقط، أصبح قلبه الآن مليئًا بالحب لهذه الثعلبة الشرسة وشقيقها المشاكس. وهم جميعًا في مأمن الآن.

اندفع نحوهما، فأفسحا له المجال ترحيبًا به. استلقى باكس على ظهره، فألقى رانت بجسده عليه. دحرج باكس رانت بلطف، منتبهًا لأي أنين من الألم، لكنه لم يسمع سوى صيحات البهجة.

قضوا ساعة في اللعب والمرح. وكان رانت يستريح كثيرًا، وكلما فعل ذلك، كان باكس وبريسل يتوقفان ويحيطان به. ومثل الفراشات بجانبهم، رفعت الثعالب الثلاثة وجوهها نحو شمس الصباح.

وفجأة قفزت بريسل ووقفت على براثنها واتسعت فتحتا أنفها.

شم باكس الرائحة نفسها. تلك الرائحة التهديدية التي جعلته يشعر بالقلق مدة يومين. لكنها لم تعد رائحة بسيطة في الهواء، بل كانت قوية وتزداد قوة.

إنه ذئب براري. قفزت بريسل نحو الجحر، ثم التفتت مرة أخرى نحو المنطقة المفتوحة، ثم قفزت ثانية تجاه رانت. ولم يسبق أن رآها باكس مذعورة إلى هذا الحد.

في تلك اللحظة، رفعت الثعالب الثلاثة آذانها في انتباه شديد تجاه المكان نفسه في الغابة. تجاه صوت حركة مخلوق لا يحتاج إلى التخفي. وهو يتجه شمالًا، أعلى الوادي. مباشرة نحو المنطقة المفتوحة.

كان الذئب يتبع أثر رانت.

دفعت بريسل شقيقها بأنفها كي يجلس في وضع مستقيم وصرخت في باكس قائلة: احرسه.

دفع باكس رانت إلى الجحر، وظل يتحرك أمام مدخله، شاهد بريسل وهي تتجه نحو الصوت، بخطوات ثابتة وحذرة، ثم توقفت فجأة، ورفعت أذنيها وجذعها عاليًا.

وبعد ذلك أمامها مباشرة، تحديدًا قرب نبات العرعر الذي لا يزال مستويًا بالأرض إثر سحب رانت، ظهر ذئب داكن اللون، وكان يميل برأسه نحو الأرض.

زمجرت بريسل، فرفع الذئب رأسه. وبعدها زمجرت مرة أخرى، وقفزت نحو المنطقة المفتوحة.

رفع الذئب رأسه، واتخذ خطوة نحوها. ثم خفض أنفه لتتبع أثر رانت مرة ثانية.

حثت الغريزة العميقة باكس على الهروب. كان الذئب ذكرًا طويلًا، ذا عضلات قوية. والثعلب لا يقدر على منافسة حيوان كبير وعدواني بهذا الشكل. لكن هناك غريزة أعمق ذكرته بأن رانت أعزل في الجحر.

تجاهلت بريسل أيضًا غريزة الفرار. وبدلًا من ذلك، اندفعت مباشرة نحو الذئب، وانقضت عليه من الجانب.

تحرك الذئب بسرعة، ومال بجسده ليلامس برثن بريسل الخلفي، فتحركت نحو المنطقة المفتوحة، وهي تعرج وتئن متظاهرة بأنها أصيبت. حدق إليها الذئب ثم هز جسده مدركًا الخدعة، وعاد للتركيز على تعقب رائحة رانت.

قفزت بريسل مرة أخرى، ووقفت أمام الذئب وواجهته، وقد قوست عمودها الفقري بعض الشيء. وخرج من حلقها عواء أجش لم يسمعه باكس من قبل.

للحظة، تراجع الذئب، وبدا مندهشًا من أن الثعلبة الصغيرة تتحداه. ثم رفع كتفيه في وضعية الهجوم، وكشر عن أنيابه.

تصلب جسد باكس، وكتم أنينه في صدره، بينما كان رانت يبكي في الجحر.

قفز الذئب نحو بريسل، وأسقطها أرضًا. للحظة، لم يرَ باكس شيئًا سوى فرو وأسنان تومض في العشب، ولم يسمع سوى العواء والزمجرة.

بعد ذلك تمكنت بريسل من الإفلات من قبضة الذئب. وقفزت مرة أخرى نحو منتصف المنطقة المفتوحة. قفزة واحدة فقط.

أدرك باكس أنها تستدرجه بعيدًا عن رانت. وبالفعل تمكنت بريسل من البقاء بعيدًا عن متناول يد الذئب، بل نجحت في استدراجه حتى وصلت إلى شجرة الصمغ.

وبعد ذلك، كما فعل باكس تمامًا، قفزت لتصعد على الجذع المائل. وأخذت تسير على الفرع السفلي بحذر، ولم ترفع عينيها قط عن الذئب الذي تتبعها على الأرض. وعندما وصلت إلى الموضع الذي يتشعب فيه الفرع، صارت فوق رأسه تمامًا. هسهست مستفزة إياه.

قفز الذئب لكنه لم يتمكن إلا من خدش لحاء الشجرة والأوراق فقط. ظل يدور في المساحة الخالية أسفل الفرع بحثًا عن بقعة مرتفعة، ثم قفز مرة أخرى. وهذه المرة أمسكت مخالبه الأمامية بفرع الشجرة وثبتته للحظة قبل أن يسقط. ومن ثم جمع شتات نفسه، وقفز مرة أخرى.

رأى باكس أن بريسل وصلت لأقصى مدى يمكنها الوصول إليه على الفرع. وسوف يمزقها الذئب ويسقطها من على الشجرة قريبًا، أو ينفد صبره، ويمل من تشتيتها له، ويعود لمواصلة المهمة التي ألهته عنها. حتى إن فعل ذلك، فستتبعه وتقاتل حتى يمزقها إربًا.

وجه باكس أمرًا إلى رانت قائلًا: ابقَ مكانك. وانطلق إلى المنطقة المفتوحة سريعًا.

30

حدق بيتر.

نظر للمكان من حوله، فوجد شجرة بتولا بجوار الجدران العلوية للمصنع. لقد أطلق عليها هو وأصدقاؤه فيما مضى اسم شجرة القراصنة؛ لأن أوراقها الصفراء الزاهية جعلتها تبدو في الخريف كأنها مغطاة بالعملات الذهبية. كما أنه ربط باكس بجذعها ذات مرة عندما لم تعجبه لعبة الحرب التي كانوا يلعبونها. لا تزال شجرة القراصنة موجودة إلى الآن، ولكن أغصانها كساها اللون الأسود. ولم يكن من السهل التعرف على أي شيء آخر في المكان، باستثناء المصنع نفسه.

اختفت جميع الأشجار الموجودة في نهاية الحقل؛ اقتلعت من جذورها بسبب الانفجارات، وصارت مجرد قطع صغيرة متناثرة. كما احترقت مساحات كبيرة من الأعشاب من حولها، وتحولت إلى رماد. أما الضفة فكانت مغطاة ببقايا السمك، وجراد البحر، والسلاحف، والضفادع التي نهشتها الغربان.

اعتصر الألم قلبه عند النظر إلى الماء. ففي المرة الأخيرة التي كان فيها هنا، غاص في البركة الموجودة عند قاع الوادي. حينها كانت المياه متلألئة وشفافة للغاية، لدرجة أنه تمكن من رؤية سيقان القصب ذات اللون الأخضر الشاحب، وقشور سمك السلمون المرقط،

حتى عندما نظر لسطح الماء، رأى أجنحة اليعسوب الزرقاء الشفافة وهي تطفو على السطح. بدا المشهد كأنه يسبح في بحر من الألماس السائل.

الآن تسد الصخور الطينية النهر، وتحولت البركة إلى بقعة بنية باهتة. كما انخفض مستوى المياه إلى النصف تقريبًا من عرضه المعتاد. كانت رائحة الموت تفوح من الأراضي الطينية القريبة من الضفاف، التي تكتلت حتى أصبحت طينًا جافًّا.

إن الماء هو سبب هذه الحرب. تذكر بيتر أن فولا سألته عن الجانب الذي يقاتل فيه والده.

حينها أجابها، مذهولًا من اضطرارها للسؤال. وأضاف بسخط: «جانب الحق».

قالت فولا: «يا فتى، يا فتى». كررتها مرتين للتأكد من أنها جذبت انتباهه، ثم أضافت: «هل تعتقد أن أي شخص في تاريخ هذا العالم انطلق للقتال مع الجانب الخطأ؟».

زادت شدة الرياح، وعصفت عبر الحقل، مثيرة دوامات من الرماد. حاول بيتر أن يتخيل اللعب هنا ثانية، لكنه أدرك أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يرغب أي شخص في اللعب هنا مرة أخرى.

كانت النسور الجارحة التي تحلق فوقه هي الكائنات الحية الوحيدة التي يستطيع رؤيتها. ومع كل هذا الدمار الشامل، لا بد أنها حصلت على ما تحتاج إليه من غذاء على مدار أيام. ظل يراقبها مشلولًا بسبب المشهد الحزين المحيط به. وكان أقرب اثنين منها يدوران حول غصن شجرة الشوكران بالقرب من الضفة، ربما لتقييم مدى الأمان للعودة إلى الوجبة التي قاطعها وجود بيتر.

الوجبة التي قد تكون جثة ... لم يتمكن بيتر من تخيل الفكرة، لكنه لم يتمكن من محوها من ذهنه أيضًا. لو أن باكس كان هنا، فربما يكون ميتًا الآن. ولو كان كذلك، فستقوده النسور إلى الدليل.

كانت تحوم فوق ثلاث نقاط مميزة - واحدة بجانبه، واثنتان بالقرب من النهر- ببطء وكسل. لم تكن في عجلة من أمرها فوجباتها لم تكن لتذهب إلى أي مكان.

أسقط حقيبته. وبعد أن تحرر من هذا الثقل، تحرك خطوات قليلة نحو غصن شجرة الشوكران. وأسفل هذا الغصن رأى المنظر الذي كان يخشاه: ذيل ثعلب، نعم، كان ذيلًا ذا طرف أبيض. ثم رفع فرع الشجرة.

تحته كانت جثة الثعلب المتآكلة، لكن الفرو لا يزال كما هو، ولم يكن أحمر اللون، نعم، لم يكن أحمر اللون.

ما يعني أنه ليس باكس.

أخذ نفسًا عميقًا متقطعًا، وشعر بالدوار بعدما تنفس الصعداء، وعلى الفور اتجه نحو النهر، ودخل المياه، وعندما وصل الماء إلى خصره، انزلق عكازيه على الحجارة المغطاة بالطين، فدفعهما نحو الضفة البعيدة وغطس في الماء. لأول مرة منذ أسبوعين، لم يشعر بيتر بأن قدمه المكسورة تعوقه. سبح بقوة.

سحب نفسه حتى وصل إلى الضفة. وما إن خرج من الماء، حتى شعر بأن الجبيرة المبللة تزن 50 كيلو، والجص المغطى بالطين بدأ يتفتت بالفعل. فأخرج سكينه من جيبه وقطع الجبيرة حتى حرر رجله التي كانت شاحبة ومرتخية، لكن الورم أصبح أقل حدة والكدمة اختفت تقريبًا.

زحف بيتر نحو عكازيه ووضعهما تحت ذراعيه. وما إن تمكن من الوقوف رأى الشيء الذي كانت المجموعة الأكبر من النسور تحوم حوله: جثة غزال. تذكر أنثى الغزال التي رآها في حقل فولا - ونظرتها التي تقول أنتم البشر تدمرون كل شيء - بعدها أدار ظهره للمشهد.

وعلى بعد 18 مترًا من الحقل، حلق نسر واحد فوق البقعة الثالثة التي رآها. تحرك بيتر، واختار طريقًا حُرقت فيه الأعشاب، وهو الطريق الأسهل.

في البداية بدا أنه لا يوجد شيء على الأرض المتفحمة. ولكن عندما أوشك على الاقتراب من المكان رأى ساقًا خلفية، بلا لحم ومحترقة، لكنها تبدو بالتأكيد ساقًا خلفية. إنها ساق خلفية نحيفة سوداء اللون ذات برثن أبيض صغير، وهناك قطعة كبيرة من الفرو عالقة بالجزء العلوي منها لونها بني داكن.

إنه ثعلب.

مال بيتر على عكازيه. ربما لم يكن باكس. إنها صغيرة جدًا، فلا يعقل أن تكون ساق باكس، أليس كذلك؟ أراد أن يعرف الإجابة، ثم تراجع عن رغبته. فلا يهم على أي حال؟ كان هناك ثعلب يعيش حياته، وقام بعض البشر بإنهاء تلك الحياة - ألم يكن هذا كافيًا للشعور بالغضب؟

سوف يحفر الأرض بيديه العاريتين ويدفن البقايا.

سقط بيتر على الأرض. ومر بيده على رقعة خالية من الأنقاض. وفي لحظة لمست يده شيئًا ما أدى إلى انقطاع أنفاسه.

إنه الجندي الدمية ينظر من خلال فوهة البندقية التي تلامس خده الأخضر الصلب، ويستهدف أي شيء يقف في طريقه.

انحنى بيتر فجأة، وصاح قائلًا: «باكس».

31

وصل باكس إلى الشجرة في الوقت الذي قفز فيه الذئب مرة أخرى، وفي هذه المرة تشبث جيدًا بجزء من الفرع. طار باكس نحوه، وعض جزءًا من فروه الداكن، وتمسك به.

سقط الذئب، وغرس أسنانه في كتف باكس بسرعة، وعلى حين غرة. لكن باكس تمكن من الإفلات منه، وهرع نحو الحافة الجنوبية للمنطقة المفتوحة، على أمل أن يقود الذئب بعيدًا عن الشجرة، والجحر، والثعلبين اللذين يحبهما.

غير أن الذئب لم يتبعه، ورفع رأسه وعوى. ثم التفت لينظر إلى بريسل مرة أخرى. خفض باكس جسده، وبدأ يزحف عائدًا إلى الشجرة، لكنه توقف فجأة، ومال برأسه نحو صوت أتٍ من المعسكر.

هل هو صوت صديقه؟

أمامه عوى الذئب مرة أخرى، وهذه المرة تم الرد على النداء. فعلى الفور وجه الجميع انتباههم نحو المكان نفسه بالقرب من شجرة العرعر. ليظهر ذئب براري ثانٍ. ذكر آخر، لكنه شاحب اللون وذو بنية قوية. نظر للمشهد من حوله، واندفع سريعًا نحو الشجرة.

صاحت بريسل مرة أخرى في محاولة لتهديده، ونفشت فروها، لكن باكس رأى عينيها تتحركان في رعب.

ضرب الذئب الثاني الجذع.

عندئذ سمع باكس الصوت ثانية؛ بيتر ينادي اسمه.

اندفع خارج المنطقة المفتوحة، وعبر مجموعة الأشجار، ثم توقف عند خط القمة القريب من المصنع.

رأى الرجال المتعطشين للحرب يتدفقون من وراء الجدران، رافعين عصيهم، ويقتربون من شخص ما ملقى في الحقل.

إنه شاب ذو شعر أسود، ملقى على الأرض المحترقة. هل هو صديقه؟ الرياح آتية من الشمال لم تحمل رائحته، ولم تخبره بشيء.

توقف الجنود وعصيهم لا تزال مرفوعة في وضع التهديد. نهض الشاب، فاتضح أنه طويل القامة، ورأى باكس أن جسده لا يشبه جسد بيتر؛ فهذا الشاب عريض المنكبين، وهناك عصا رفيعة مثبتة تحت إحدى كتفيه. والأغرب من ذلك أنه رفع رأسه عاليًا في شموخ، ولم يحنِها إلى الأسفل. واجه الرجال في تحدٍّ، وهو أمر لم ير باكس بيتر يفعله من قبل، بل رفع قبضته، وسددها في وجوههم.

ركض جندي واحد نحو الحقل، وفي حركته كان يشبه والد بيتر. صاح، وكان الصوت مألوفًا. ولكن بعد ذلك سار نحو الشاب وعانقه، وهو أمر لم ير باكس والد بيتر يفعله من قبل.

هل هذان الرجلان هما صديقاه البشريان؟ حاول باكس أن يشم رائحتهما، لكن النسيم العاصف لم يحمل سوى رائحة الذئبين الغاضبين؛ لذا عاد باكس من حيث أتى؛ إلى المنطقة

المفتوحة.

32

سمح بيتر لوالده بأن يعانقه. فدائمًا ما أراد أن يضمه إليه، ويغدق عليه من حبه وحمايته. وشعر بوالده يرتجف من النحيب، وأراد أن يطمئنه بأن كل شيء على ما يرام. غير أن الحقيقة لم تكن كذلك. وقد قبض يديه بإحكام، إحداهما على العكاز، والأخرى على الجندي الدمية.

وعلى الفور جذب نفسه بعيدًا، وسأل: «ما الذي تفعله هنا؟ لقد أخبرتني بأنك ستقوم بتركيب الأسلاك فقط...».

وبعد ذلك فهم كل شيء في لحظة واحدة: لماذا لم يتقدم الجنود، كيف احترقت الأعشاب، واقتلعت الأشجار، وخنق النهر بالصخور. كيف لم يبق من الثعلب سوى ساق واحدة.

وضع الجندي الدمية في جيبه، والتقط ساق الثعلب، وقال: «كنت تعلم، كنت على علم بكل شيء، ومع ذلك فعلت ما فعلته بـباكس».

33

مرة أخرى ظن باكس أنه سمع صوت صديقه. رفع أذنيه، ووجههما ثانية نحو المعسكر.

عندها فقط، تغير اتجاه الرياح، وشم باكس رائحة عرق المتعطشين للحرب، ورائحة البارود، ووقود سياراتهم، والحقول المتفحمة.

وصديقيه البشريين.

ركض عائدًا إلى الحافة.

رأى صديقه يرفع شيئًا من الأرض. شيئًا يبدو كأنه عصا، لكنه ليس كذلك. إنه شيء مغطى بالفرو ومكسور.

تصاعدت رائحة الحزن والشوق إلى أعلى التل. رائحة نضرة وقوية مصدرها صديقه بيتر. وأخرى مليئة بالتوتر مصدرها والده. عندئذ أدرك أن هذه الرائحة ليست مقصورة على بيتر، بل هي رائحة البشر جميعًا.

حمل بيتر الشيء المكسور فوق رأسه، وبكى في غضب، وفجأة صاح قائلًا: «باكس».

بعدها صاح باكس بصوت عالٍ.

34

رفع بيتر ما تبقى من الثعلب عاليًا فوق رأسه، ونادى اسمه مرة أخرى: «باكس».

ومن مسافة عالية قرب المصنع سمع صوتًا يجيبه، فشعر بنوع من الأمل. لكن لا، لا بد أنه تخيل ذلك من شدة رغبته في سماع هذا الصوت.

وعلى أي حال تحرك، وتفقد خط القمة، فلمح وميضًا من اللون الأحمر. وذيلًا ذا طرف أبيض. ظهر ثعلب في مكان مفتوح، ونهض ليقف على ساقيه الخلفيتين - على ساقين خلفيتين، كيف؟ - ونظر إليه مباشرة.

وضع بيتر ساق الثعلب في يد والده، وقال: «ادفن هذه». ثم أمسك بعكازه الآخر واتجه نحو التل.

رد والده: «انتظر يا بيتر، يجب أن تفهم أن هذا واجبي».

أشار بيتر إلى الثعلب على الحافة الجبلية، وضرب صدره بقوة حتى آلمه، هذا وصاح قائلًا: «إنه ثعلبي».

صاح والده ليحذره من الأسلاك وطلب منه التوقف. رأى بيتر الأسلاك وتخطاها، لكنه لم يتوقف؛ لأنه رأى ثعلبه ينتظر على التل، ولا يفصله عنه سوى تلك المسافة بينهما. مرارًا

وتكرارًا، أخذ يغرس عكازيه في الأرض ويتأرجح فوقها، ليقطع تلك المسافة.

عندما كان على وشك الوصول، جف قميصه بفعل الرياح، ثم تبلل بالعرق مرة أخرى، توقف وصاح مناديًا. رفع باكس رأسه، ثم انطلق بعيدًا نحو الأشجار.

رآه يتحرك مستخدمًا سيقانه الأربع، نعم، كان بيتر متأكدًا من ذلك، ما يعني أن باكس لم يصب بأذى.

ظل يتبعه، ولكن مرة أخرى، عندما اقترب منه، اندفع باكس، وركض نحو الأشجار.

تبعه بيتر مرة أخرى، ولم يشعر بالاستياء إزاء إجباره على مشاركته في هذه اللعبة الاختبارية. لقد خان ثقة حيوانه الأليف، لذا ما من عجب في أن يتصرف هذا الحيوان بحذر الآن. فهو بحاجة للتأكد من ولائه. أيًّا كان ما يريده باكس سيطيعه بيتر، فهذا أبسط عقاب له على فعلته. تبعه عبر الأشجار مسافة 180 مترًا.

وبعد ذلك دخلا المنطقة المفتوحة، ووقف الثعلب وانتظر. اقترب منه بيتر ومد يده نحوه، وقال: «أنا آسف. آسف جدًّا...».

حدق باكس إلى صديقه، ثم أمسك معصمه بين فكيه. زاد نبض بيتر نتيجة إحساسه بأسنان باكس التي تضغط على معصمه بقوة كافية جعلته يشعر بنداء البرية داخله في تجسيد حي لفكرة: «اثنين لكن ليس اثنين» التي قيلت من قبل.

ترك باكس معصم بيتر، واندفع عبر المنطقة المفتوحة نحو شجرة مائلة يدور حولها اثنان من ذئاب البراري. انقض باكس على الذئب الأكبر حجمًا.

صاح بيتر: «لا يا باكس. عد». كانت الشجرة بعيدة جدًّا، على بعد 45 مترًا على الأقل. غرس بيتر عكازيه في العشب، وتحرك بقوة وعزم.

وعندما كان على بعد 10 أمتار، رأى الفريسة التي يحاول الذئبان اصطيادها - ثعلبًا آخر ذا فرو لامع ووجه رقيق، إنها أنثى. كانت تنزف من جرح في فخذها، وذيلها لم يكن سميكًا كالمعتاد، كما أنها أخذت تضرب به كالسوط وسيلة للتهديد.

انقضت الثعلبة على أحد الذئبين من أعلى، وسخرت منه، وانقض باكس على الآخر. ورأى بيتر أنها تشكل هي وباكس فريقًا رائعًا.

وأنهما ليسا في قوة الذئبين.

انطلق بيتر نحو الشجرة، وهو يصرخ، لكن الذئبين تجاهلا صرخاته. ومال الذئب الأكبر حجمًا بجسده وغرس أنيابه في رقبة باكس الذي عوى على الفور.

زأر بيتر غاضبًا، واستند إلى أحد العكازين، وأمسك بالآخر - الأثقل وزنًا نتيجة دعمه بالمضرب - بكل قوته مستهدفًا نقطة معينة بين الذئبين.

ما إن ارتطم المضرب بالشجرة حتى تحرك الذئبان في غضب، وفر الذئب الأكبر حجمًا بعيدًا، واختفى بين الأغصان. أما الآخر فابتعد مسافة تقدر بنحو 9 أمتار، ثم توقف والتفت للوراء.

نظر إلى بيتر وكشر عن أنيابه.

أظهر بيتر أسنانه كرد فعل تلقائي، زمجر باكس بجانبه، ونفش فروه استعدادًا للقتال. لكن بيتر وضع عكازه الثاني فوق رأسه، وزأر مجددًا، وعليه زمجر باكس بشراسة، فتراجع الذئب إلى الوراء في دهشة. واستدار وفر من المنطقة المفتوحة.

أمسك بيتر بالشجرة، وسقط على الأرض وهو يرتجف.

على الفور، قفز باكس فوقه، وظل يتمايل تحت عنقه، ويلعق وجهه، ويشم رجله المكسورة، ويداعب وجهه مرة أخرى. طوق بيتر ثعلبه بذراعيه، وضغط بوجهه على الفرو الذي تنبعث

منه رائحة شجر الصنوبر، وقال: «أنت بخير، أنت بخير، أنت بخير».

قفزت الثعلبة فوقهما إلى الأرض، واختفت بين الشجيرات المحيطة بالمنطقة المفتوحة. جلس باكس وصاح مناديًا عليها وهو بين ذراعي بيتر.

بعد لحظة، رأى بيتر أنفًا أسود يطل من بين الشجيرات.

وفجأة خرج ثعلب نحيف، بحجم باكس تقريبًا عندما كان عمره ثمانية أشهر، وظل فروه يومض في ضوء الشمس. تعثر وهو يمشي في المنطقة المفتوحة على ثلاث أقدام. بعدها ظهرت الثعلبة من جديد، وأخذت تتجول في المكان، وصاحت في وجه الثعلب الصغير، ورمقت بيتر بنظرات مليئة بالحذر.

انزلق باكس من بين ذراعي بيتر، وصاح مرة أخرى. اقترب الثعلب ذو الأرجل الثلاث بضع خطوات. وكان يعرج بطريقة غريبة، ما جعل بيتر يدرك أنه فقد ساقه أخيرًا. وبعد ذلك حاول بيتر التقرب منه والتواصل معه.

مد يده وناداه بهدوء. تردد رانت، وظلت نظراته تتنقل بين بيتر وباكس، وبصعوبة تقدم بضع خطوات، ودس رأسه تحت ذقن باكس.

مد بيتر إصبعه. وسمح له الثعلب المصاب بتمشيط عنقه لحظة، ثم أسرع عائدًا إلى جانب الثعلبة لينعم بالأمان.

نظر الثعلبان إلى باكس بترقب، ثم اختفيا وسط الشجيرات.

فهم بيتر الأمر. إن باكس ينتمي لهما، وهما ينتميان له، ولن يفترقوا.

يا للحسرة، أهذا ما سيحدث بعد أن قطع كل هذه المسافة؛ كل هذا الطريق؟

جثا بيتر على ركبتيه، ثم وضع يده على ظهر باكس، وشعر بعضلاته تقفز.

نظر بيتر حوله. بدت الغابة خطيرة الآن، مليئة بالذئاب والدببة، وقريبًا ستمتلئ بالبشر، وستدور رحى الحرب. نظر إلى ثعلبه، الذي لا يزال يتابع بعينيه عائلته الجديدة، وقال: «اذهب، لا بأس». لكنه لم يكن سعيدًا بتلك الفكرة، بل كان يعتصر ألمًا، شعر بمرارة في حلقه، وبصعوبة في التنفس، وكأن قلبه سيتوقف عن النبض. سحب يده بعيدًا؛ لأن باكس سيشعر بألمه الشديد، ولن يغادر، وقال ثانية: «اذهب».

انطلق باكس نحو الشجيرات، ثم التفت لينظر إلى صديقه.

شعر بيتر بالدموع تنهمر على وجهه، لكنه لم يمسحها.

عاد باكس مرة أخرى، وظل يئن وهو يلعق الدموع.

دفعه بيتر، ثم أمسك بعكازه، واستند إليه لينهض، قائلًا: «لا. لا أريدك أن تبقى. سأترك دائمًا باب الشرفة مفتوحًا، لكن الآن عليك الرحيل».

نظر باكس إلى الأشجار، ثم إلى وجه صديقه.

وضع بيتر يده في جيبه، وأخرج الدمية ورفعها.

رفع باكس رأسه وعيناه مثبتتان على يد بيتر.

ألقى بيتر الجندي البلاستيكي فوق الأشجار، داخل الغابة، بعيدًا قدر استطاعته.

شكر وتقدير

خالص الشكر إلى الثعالب ذات الفرو البني المائل للحمرة التي كلما عرفت المزيد عنها، زاد إعجابي بها، وزاد إصراري على تصويرها بشكل محترم يليق بها. وإنني أدين بالشكر إلى ماثيو والتر، عالم الأحياء في ولاية نيويورك ومتتبع الحياة البرية الماهر الذي قضى سنوات في إجراء أبحاث عن هذه النوعية من الثعالب. وعندما يجري وصف سلوك الثعلب بدقة على مدار الرواية، فذلك بفضل الخبرة والمعلومات التي شاركها معي. وعندما لا يكون الوصف دقيقًا، فذلك يعود لرغبتي في وضع لمسات تخدم احتياجات القصة وتطورها. أحث القراء على إجراء أبحاثهم الخاصة عن هذا الحيوان الرائع.

لولا الأشخاص التالي ذكرهم، لظلت هذه الرواية مجرد مجموعة من الصفحات المجعدة المتراكمة في غرفتي: أبنائي، الذين على الرغم من أنهم صاروا كبارًا ما زالوا يذكرونني بالروابط القوية التي يمكن أن تنشأ بين الأطفال والحيوانات؛ مجموعات الكتابة الخاصة بي، مجموعات تضم كتَّابًا من جميع أنحاء العالم - كتَّابًا أذكياء، ذوي بصيرة، لا يقبلون بأي جملة دون المستوى، ولا تنقل المعنى جيدًا؛ وكيل أعمالي، ستيفن مالك، الذي فهم هذا الكتاب وأحبه منذ أن كان مجرد فكرة في مهدها؛ محررتي، دونا براي، على توجيهاتها الرائعة؛ كل فريق مؤسسة هاربر كولينز للنشر على الدعم المذهل؛ ديفيد الصبور الذي كان داعمًا لي في كل الأوقات التي قضيتها في دراسة الثعالب ومراقبتها.

وأخيرًا، كريس كروتشر، شكرًا لك على أفكارك الرائعة التي ساعدتني كثيرًا على سرد أحداث هذه القصة.

الغلاف الخلفي

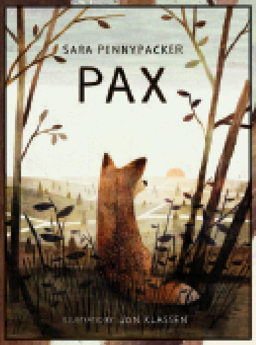

"هذا الكتاب يشبه في طابعه شخصية *الثعلب باكس*، فكلاهما يمتلك مزيجًا من الطبيعة الجامحة والجمال الآخاذ".

– نيويورك تايمز بوك ريفيو

"هذا عمل خيالي مذهل يجب أن يقرأه ويناقشه كل من الأطفال والكبار على حد سواء".

– سكول لايبراري جورنال
(تقييم متميز)

امسح الكود للنسخة الإلكترونية

ISBN 628-1072-15-928-4
6 281072 149284
282209291

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore

BALZER + BRAY
An Imprint of HarperCollinsPublishers

1. الغلاف
2. الغلاف الأمامي
3. حقوق الطبع والنشر
4. الأغلفة الداخلية
5. مؤلفات أخرى بقلم سارة بينيباكر
6. ملاحظة المؤلفة
7. إهداء
8. مقولة
9. 1
10. 2
11. 3
12. 4
13. 5
14. 6
15. 7
16. 8
17. 9
18. 10
19. 11
20. 12
21. 13
22. 14
23. 15
24. 16

25. 17
26. 18
27. 19
28. 20
29. 21
30. 22
31. 23
32. 24
33. 25
34. 26
35. 27
36. 28
37. 29
38. 30
39. 31
40. 32
41. 33
42. 34
43. شكر وتقدير
44. الغلاف الخلفي